الشيخ / بكر محمد إبراهيم

الدولـة العثمانية

الناشر

مركز الراية للنشر والأعلام

الكتـــــاب : الدولة العثمانية

التـــــأليف : الشيخ/ بكر محمد إبراهيم

الطبعـــــة : الأولى سنة ٢٠٠٢

الناشـــــر : مركز الراية للنشر والإعلام
القاهرة ٣٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى
تليفون : ٥٩٢٦٢١٩

رقم الإيـداع : ٢٠٠٢/٣٠٩٩

الترقيم الدولى : ISBN: 977-5967-61-6

مقدمة

الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، والصلاة والسلام على نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أشهد أن لا إله الله ، إله الأولين والآخرين رب السموات والأرضين ورب كل شئ ومليكه ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه .

وبعـــد ...

فبين يدى القارئ الكريم كتاب الدولة العثمانية يتناول قصة دولة الخلافة دولة بنى عثمان ، دولة الأتراك وكيف تكونت هذه الدولة وظروف نشأتها وكيف تنامت قوتها عبر القرون وكيف فتحت البلاد مصر، والشام، والعراق، والبلقان فى أوروبا وغيرها من البلدان ، فكانت حامية حمى الإسلام فى عصرها وأوانها .

ويتناول الكتاب قصة الحروب والغزوات والفتوحات التى قامت بها هذه الدولة وكيف اتسعت رقعتها والصراعات التى قامت بينها وبين الدول الأوروبية انجلترا وفرنسا وروسيا وغيرها من البلدان الأوروبية، وكيف ظلت الدول الأوروبية تعمل على تمزيق هذه الدولة لإسقاط الخلافة الإسلامية حتى تم لها ما أرادت بعد قرون عديدة وصراعات طويلة .

ويتناول الكتاب الحركات الاستقلالية عن الدولة العثمانية ومنها حركة على بك الكبير بالاتفاق مع ضاهر العمر ، وكيف تخلى محمد بك أبو الدهب عن على بك الكبير ، وعادت مصر إلى الخلافة العثمانية بعد استقلال على بك الكبير بحكمها عشر سنوات .

ويتناول الكتاب سيرة جميع سلاطين هذه الدولة ابتداء بعثمان مؤسس هذه الدولة وانتهاء بالسلطان عبد الحميد ثم سقوط هذه الدولة وضعفها وشيخوختها واضمحلالها وتدهورها وانتزاع الأمم والدول من تحت مظلة حكمها وسقوط الخلافة على يد عميل الاستعمار الغربى مصطفى كمال أتاتورك رئيس جمعية الاستقلال والترقى وتحويل تركيا إلى دولة علمانية لا شأن لها بالخلافة وتمزق الأمة الإسلامية إلى دول ودويلات يتنازع الاستعمار الغربى على التهامها واحتلالها والسيطرة عليها وحكمها ، ومجئ الحملة الفرنسية إلى مصر حتى خروجها بعد سنوات قلائل من سنة ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين إلى سنة ألف وثمانمائة وواحد بفضل مقاومة الشعب المصرى لها بقيادة علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عمر مكرم والشيخ السادات وتجار مصر وعلى رأسهم الشيخ المحروقى .

وكان تناولنا للحملة الفرنسية بايجاز شديد ولعلنا نرجع إلى ذكر هذه الحملة بشئ من التفصيل فى كتاب قادم .

وقد تناولت فى هذا الكتاب حكم الدولة العثمانية لمصر بشئ من التفصيل ثم الغزو العثمانى أو الفتح العثمانى لمصر باستفاضة كبيرة كما رواها المؤرخ ابن إياس المصرى فى بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

إن التاريخ مدرسة نتعلم منها الكثير ، ولأن لكل أمة أصول وجذور تستمر فى دراستها واستلهام العبرة منها فى حاضرها ومستقبلها والدولة العثمانية لها ما لها وعليها ما عليها ولم تكن تخلو من أخطاء ولكن لها مزايا جمة ويكفى أنها قد وحدت بلاد المسلمين وأمة الإسلام تحت رايتها وكانت شوكة فى ظهر الطامعين والمتورثبين الذين يريدون لهذه الأمة التفرق والتشتت والتعزم .

نسأل الله تعالى أن يعيد لهذه الأمة مجدها ويلهمها أمر رشدها ويوحد صفوفها وينصرها على أعدائها ويرفع راياتها وأن يعز الإسلام والمسلمين وأن يجمع شعوبها على كلمة الحق والدين وأن يقيض لها من يحرر المسجد الأقصى السليب ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف
بكر محمد إبراهيم
رئيس أنصار السنة بالسلام
عضو اتحاد الكتاب

قصة الفتح العثمانى لمصر

عزم السلطان العثمانى سليم خان الأول على فتح الشام ومصر. لأن السلطان المملوكى قانصوه الغورى اتفق مع الصفويين الشيعة أعداء الدولة العثمانية على قهر العثمانيين ؟ كما أن السيادة على المياه الإسلامية الجنوبية أصبحت للبرتغاليين.

وكذلك كان السلطان سليم العثمانى يرى فى نقل الخلافة إلى دولة "بنى عثمان" سبباً هاماً فى تقويتها، وتقوية بلاد المسلمين، وأن هذا الأمر سوف يحد من أطماع أوربا فى الدول الإسلامية، ويقضى عى الخطر البرتغالى فى جنوب البحر الأحمر.

كان أمر نقل الخلافة إلى العثمانيين وقتذاك ضرورياً.. لضعف الخلفاء العباسيين - الموجودين بمصر - وقلة حيلتهم .. فقد كانت الخلافة اسمية فقط، وما كان الخليفة إلا صورة تبدو فقط فى الأعياد والمناسبات، وكان بمقدور السلطان المملوكى خلع خليفة وتولية آخر حسب رغبته.

ولهذه الأسباب كانت الحرب بين السلطان سليم العثمانى والسلطان الغورى المملوكى أمراً لابد من وقوعه.

وفى سنة (٩٢٣ هـ - ١٥١٧م) وبالقرب من مدينة حلب التقى الجيشان فى مرج دابق التى قُتل فيها السلطان الغورى تحت سنابك الخيل، انتصر فيها السلطان سليم نصراً كبيراً بفضل دقة الخطط الحربية العثمانية ومرونتها، وتفوق العثمانيين عسكراً .. حيث كان سلاح مدفعية المماليك يعتمد على مدافع ضخمة وثابتة تصعب حركتها، وكانت مدفعية العثمانيين تعتمد عى مدافع خفيفة يمكن تحريكها فى كل اتجه بيسر وسهولة.

ودخل السلطان العثمانى دمشق وخُطب له على منابرها .. ثم أرسل إلى طومان باى خليفة الغورى على مصر يعرض عليه حكم "غزة" و "مصر" تحت سيادة الدولة العثمانية مع دفع خراجاً سنوياً لها .. وذلك حقناً لدماء المسلمين فما كان من طوماى باى إلا أن أمر بقتل رسول السلطان سليم .. وهكذا أغلق طومان باى باب التفاوض وفتح باب الحرب التى وقعت بينهما فى "الريدانية".

وبنفس الأسباب التى انتصر بها السلطان سليم فى مرج دابق، انتصر فى الريدانية.. وقُتل طومان باى بعد فترة بالقاهرة.

ومن باب زويلة :

فى يوم الاثنين ، ثالث المحرم سنة ٩٢٣ هـ دخل السلطان سليم القاهرة.. وبينما كان يشق شوارعها فى موكب حافل، كانت أصوات الناس تلهج بالدعاء له لكثرة ما عايشوه من الفساد والخلل فى أيام المماليك، ونودي فى المصريين بالأمان، والاطمئنان، وممارسة البيع والشراء، وأن باب الظلم قد أغلق، وباب العدل قد فُتح .. وعلى منابر القاهرة خُطب للسلطان سليم العثمانى.

وهكذا تحولت مصر إلى ولاية عثمانية.

نظام الحكم العثمانى لمصر

ومكث السلطان سليم بالقاهرة بضعة أشهر رتب فيها شئون مصر، ونظم أحوالها، وأجرى تعديلات تقتضيها نظم الحكم، ووضع الخطط التى يجب أن تسير عليها إدارة مصر من بعده .. ولم يغب عن ذهنه الوصية التى توارثها العثمانيون الأوائل عن الأمير عثمان - الذى أرسى قواعد الدولة العثمانية - والتى قال فيها لولده أورخان وهو على فراش الموت :

يا بنى .. أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود ، ولا يغرنك الشيطان بجهدك وبمالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بنى .. لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا، وللإسلام نموت، وهذا يا ولدى ما أنت أهل له.

يا بنى .. إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء رب العالمين.

وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

لذا اجتهد السلطان العثمانى فوضع نظاماً دقيقاً يكفل له عدم تلاعب الولاة بمصر، وإيقاع الظلم بأهلها، أو محاولة الاستقلال بها - لا سيما والمسافة بعيدة بين الأستانة والقاهرة - ووسائل المواصلات غير ميسرة آنذاك - فجعل على مصر ثلاث إدارات أو قوى لتراقب كل منهم الإدارتين الأخرتين .. وهم :

أولا : الباشا (الوالى) :

ويجدد تعينه كل عام .. وجعله السلطان تحت ملاحظة الأغا كبير القلعة .. ويتلخص عمل الباشا فى تبليغ المراسيم والمنشورات والأوامرالعثمانية إلى الشعب والحكومة ويراقب تنفيذها .. وقد اختار السلطان سليم خاير بك لولاية مصر فكان خاير أول والى على مصر من قبل الدولة العثمانية.

ثانيا : الفرق العسكرية :

التى يقودها أحد القادة العثمانيين العظماء لحفظ نظام مصر والدفاع عنها .. ومن ضباط هذه الفرق يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقطع الباشا أمراً إلا بمشورة المجلس .. وللمجلس حق الموافقة والرفض لقرارات الباشا، ومراجعة

ديوان الأستانة إذا لزم الأمر، وله أيضا حق عزل الباشا إذا مال فى حكمه عن الطريق القويم.

ثالثا : الأمراء المماليك:

ليتم بهم التوازن بين الباشا والفرق العسكرية .. لأن المماليك أعداء الفريقين ويهمهم نصر الأضعف فلا يستبد القوى.

وكان يتم تعيين حكام المديريات من أمراء الممايك بمعرفة مجلس شورى الباشا.

وجدير بالذكر أن العثمانيين قسموا مصر آنذاك إلى ١٤ مديرية (محافظة) وكان حاكم المحافظة يقلب بـ (بك) أو سنجق.

فى عام (٩٢٦هـ - ١٥٢٠م) مات السلطان سليم تاركاً ابنه سليمان القانونى على عرش الدولة العثمانية وخلافة المسلمين (كان السلطان سليم الأول التاسع من سلاطين بنى عثمان، وأول خليفة للمسلمين ، وقد توارث السلاطين الخلافة من بعده) وعندما تولى السلطان سليمان القانونى جعل فى مصر ديوانين (مجلسين) الديوان الكبير، والديوان الصغير، وجعل رئاستهما للباشا.

ويتلخص عمل الديوان الكبير فى التشاور والإقرار فيما يتعلق بالأشغال العمومية.

ويتلخص عمل الديوان الصغير فى الاجتماع يومياً للنظر فى الأحداث اليومية.

ومما يجدر ذكره أن السلطان سليمان لُقب بالقانونى لكثرة سن القوانين

التى تقتضيها نظم الحكم الدنيوية فى عهده .. وذلك لأن الدولة العثمانية بلغت فى أيامه أقصى ما وصلت إليه من النفوذ السياسى، وسعة الفتح .. حتى إنها شملت فى أيامه مصر، وتوس، والجزائر، وامتدت غرباً حتى حدود المغرب، وشبه الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، وأرمينيا، وأذربيجان، ثم شبه جزيرة الأناضول، وشبه جزيرة البلقان، أوربا الشرقية حتى حدود فيينا، بلجراد، وصربيا، والبوسنة والهرسك، وكوسوفو، ولذلك كانت البحار العالمية كالبحر الأبيض المتوسط، والبحر الأسود، والبحر الأحمر بحاراً إسلامية.

وفى عهد السلطان سليمان القانونى - وغيره من السلاطين الأقوياء مثل السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ هـ - ١٤٥١م) (٨٨٦ هـ - ١٤٨١م) رفعت الدولة العثمانية شأن الإسلام، والمسلمين حيث كانت ذات هيبة تخشاها الدول ويحسب حساب سلاطينها الملوك.

ويؤخذ على الدولة العثمانية نقلها لأمهر الصناع المصريين إلى الأستانة.. وإن كانت نظرتهم أن الأستانة عاصمة المسلمين وتحتاج إلي تقدم صناعى ورقى حضارتها وزيادة تعميرها.

وكذلك نظام الإقطاع الحربى .. الذى يتلخص فى منح السلطان كل فارس قطعة أرض زراعية واسعة، يزرعها بمساعدة الفلاحين .. الفارس كمشرف والفلاحين كمستأجرين.. وذلك مقابل أن ينضم الفارس إلى الجيش عند نشوب أى حرب، وعلى الفارس أيضا أن يقدم إلى الجيش مجموعة من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم.. ولا ريب فى أن هذا النظام أوقع الظلم بالفلاحين من قبل العسكريين .. لبعد العسكريين عن أعين السلاطين ولكن .. جدير بالذكر أيضًا

أن هدف العثمانيين من هذا النظام هو الحفاظ على قوة الجيش فى كل وقت للحفاظ على الدول الإسلامية التى كثيراً ما عانت من أطماع الدول الأوربية.

وأن العثمانيين ليسوا أول من عمل بنظام الإقطاع الحربى فى مصر فقد عرفت مصر هذا النظام في أيام الناصر صلاح الدين الأيوبى .. ولكن صلاح الدين نجح فى حماية الفلاحين من استغلال العسكريين، ربما ساعده فى ذلك تواجده فى مصر لفترات طويلة حيث كانت القاهرة عاصمته، ومركز إقامته، كان يشرف على هذا النظام بنفسه، ولكن إقامة السلاطين العثمانيين كانت بالأستانة والتى تبتعد كثيراً عن مصر.

وبالرغم من اتباع السلطان سليم للدقة فى تشكيل حكومة مصر، وجعلها ثلاث إدارات لتراقب كل منها الأخرى، وبالرغم من وضع الخطط التى يجب أن تسير عليها إدارة مصر - وقد زاد السلاطين العثمانيين ى دقة إدارة مصر من بعده حتى لا يجور الولاة على مصر التى كانت تتمتع لدى العثمانيين بمكانة خاصة - إلا أن مصر لم تسلم من جور بعض الولاة العثمانيين، وظلم غالبية أمراء المماليك وتلاعبهم بنظم الحكم لجعلها فى صالح أطماعهم .. حتى أن أحمد باشا ثالث الولاة العثمانيين على مصر تآمر على الدولة العثمانية، وحاول أن يستقل بمصر ويجعلها ملكية خاصة له، ويحكمها أولاده من بعده .

ولكن مؤامراته باءت بالفشل لانقلاب الجنود عليه، وثورة المصريين - الذين كان ولاؤهم للسلطان العثمانى - ضده، وقُتل أحمد باشا بعدما حكم مصر نحو عامين (٩٢٩ هـ - ١٥٢٣م) (٩٣١ هـ - ١٥٢٤م) ولُقب فى التاريخ بـ (الخائن).

لمحة عن مصر العثمانية

ظلت الكلمة العليا فى حكم مصر للباشوات الذين تولوا من قبل السلطان العثمانى نحو ١٩٢ عاماً من سنة (٩٢٣ هـ - ١٥١٧م) إلى سنة (١١١٥ هـ - ١٧٠٣م) .. وتولى فى هذه الفترة نحو ٨٠ باشا.. ثم بدأ الضعف يدب فى جسد الدولة العثمانية بسبب تولى أمرها سلاطين ضعفاء انصرفوا إلى نعيم الدنيا، وجعلوا همهم فى محاكاة دول أوربا فى عاداتها.. تلك الدول التى كانت تحاول جاهدة إضعاف الدولة العثمانية وإسقاطها وجعلت تكرر المحالة تلو المحاولة حتى نجحت فى آخر الأمر .

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية، رأت مصر نفوذ المماليك يقوى، وتعلو كلمتهم فى حكمها، وترجح كفتهم فى إدارتها.. حتى رأت شيخ القاهرة الملوكى (كبير المماليك - بمثابة المحافظ الآن) يتصرف فى جملة شئون حكمها.. ورأت الوالى العثمانى يتحول إلى اسم فقط، يتلقى التعليمات من شيخ القاهرة أو كبير المماليك.

وهكذا تحولت السلطة العثمانية (المتمثلة فى الوالى) إلى سلطة اسمية، بينما كانت السلطة الفعلية للمماليك. وظل حكم مصر على هذا الحال نحو ٦٠ عاماً.. حتى تولى على بك الكبير.

حركة على بك الكبير

تولى على بك الكبير مشيخة القاهرة فى عام (١١٧٧ هـ ١٧٦٣م) ودفعته تطلعاته إلى فكرة الاستقلال بمصر وقطعها من جسد الخلافة العثمانية، وعندما اختمرت فكرته فى نفسه جعل يعمل لها فى الخفاء، فقتل الجنود العثمانيين

بمصر، واتصل بصديقه الشيخ ضاهر العمر والى عكا وكشف له عن نواياه، وطلب منه مؤازرته إذا حدث الصدام بينه وبين السلطان العثمانى، ثم جمع بكوات المماليك وأعلن لهم عن فكرته وكسب غالبيتهم فى صفه.

واستطاع أن يستقل بمصر نحو عشر سنوات من عمرها، خُطب له فيها على منابر مصر، وضُربت باسمه النقود، وانتهت حركته حينما دفعته أطماعه أن يرسل محمد بك أبو الذهب فى جيش قوامه ثلاثين ألفا يخضع بلاد الشام لنفوذه، وكان أبو الذهب على اتصال سرى بالأستانة فرجع بأمر من هناك إلى مصر وحارب على بك بنفس الجيش الذى جهزه للاستيلاء على الشام.. وانتصر عليه أبو الذهب، وعادت مصر مرة أخرى إلى حوزة الدولة العثمانية فى سنة (٨٨٥ هـ - ١٧٧٣م) وتم تعيين أبى الذهب والياً عليها ولكنه قُتل بعد شهور.

فعادت السلطة الحقيقية مرة أخرى إلى المماليك.. وشهدت مصر المماليك منقسمين إلى أحزاب، يحكمون مصر حسب مشيئتهم، ورأت أرضها مقسمة بين بكواتهم، يسرقون خيراتها، دون النظر إلى مصلحتها.. وعانت مصر من الفساد الذى انتشر فى ظل حكمهم الذى لا يرعى عهداً، ولا يحترم حرمة أحد.. وكان الصراع بين أحزاب المماليك يدور فى شوارع القاهرة، والقرى المجاورة لها، وكانت مصر تقاسى بشدة من ضرر هذا الصراع.

وبعدما تتابع على حكم مصر نحو ١٦ والياً بعد قتل أبى الذهب.

وبينما كانت سلطة مصر الكاملة لشيخ القاهرة المملوكى .. وكان حكم مصر منقسماً بين إبراهيم بك، ومراد بك ، وكانت أحوال مصر على أقصى درجات التدهور فى ظل حكمها وصلت الحملة الفرنسية إلى الاسكندرية.

الغزو العثمانى فى مصر (١)

ابن عثمان يفتح باب الشر:

وفى يوم الاثنين خامس عشرينه حضر قاصد ملك الروم سليم شاه، فلما حضر طلع إلى القلعة، فجلس السلطان فى الحوش على المصطبة، فلما مثل بين يديه أحضر صحبته رأس على دولات ورأس ولده ورأس وزيره وهم فى علبة فلما أحضروا بتلك الرؤوس بين يدى السلطان شق عليه ذلك وقال : إيش أرسلى هذه الرؤوس هى رؤوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ، ثم رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرؤوس ويدفنها على شاه سُوار عند الكوم الذى بالقرب من زاوية الشيخ كهنبوش، فانفض الموكب فى ذك اليوم والسلطان والأمراء فى غاية الاضطراب، وكثر القال والقيل فى ذلك أن قلعة رمنطوا وبلاد على دولات جميعها ملكها ابن عثمان واستناب فيها ابن سوار، وقد خرجت بلاد على دولات من يدى السلطان ولم تنتطح فى ذاك شاتان، وابن عثمان يقصد فى الباطن إثارة فتنة كبيرة بينه وبين السلطان وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر، فنكد السلطان فى ذلك اليوم إلى الغاية. ـ وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج السلطان من الدهيشة ولم ينزل إلى الميدان، وأشيع أنه قد شرب دواء وأنه متوعك فى جسده، وكان حصل له فى يوم الاثنين انزعاج لما حضر قاصد ابن عثمان برأس على دولات، وحصل فى ذلك اليوم بين السلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه فى الكلام وقالوا له : يا مولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيدَ ابن عثمان وخُطب له فيها باسمه وضُربت له

(١) جاء هذا الباب فى بدائع الزهور لابن إياس المصرى وبدأ بعنوان ابن عثمان يفتح باب الشر .

السكة باسمه وشرع فى بناء برج عند عقبة بغراص وآخر على باب الملك والسلطان يده فى الماء البارد وفسدت أحوال المملكة وغاب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم بيميلوا إلى ابن عثمان لأجل عدله فى الرعية وهذه الأحوال غير صالحة، فشق عليه كلام الأمراء وكظم لذلك، ولم ينزل الميدان فى ذلك اليوم ولا حكم بين الناس . - ومن الحوادث قد أشيع بين الناس أن سنبل الطواشى لا لا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين جماعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان ساقيا عند ابن السلطان، فضربه سنبل ضربا مبرحا بسبب فشروى فأقام أياما ومات، فتعصب له جماعة من المماليك الجلبان وأوعدوا سنبل بالقتل فى ذلك اليوم، وكثر القيل والقال فى ذلك وأشيع بإقامة فتنة كبيرة بين المماليك والسلطان لأجل سنبل بسبب ذلك - وفى يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى من يشبك الذى كان نايب صفد وعُزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب بدمشق، وهذه درجة من حيدر لأسفل، وقيل إنه سعى فى ذلك بمبلغ له صورة . - وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة من الممايك الجلبان بسبب سنبل الطواشى لا لا سيدى ابن السلطان، وقد تقدم سبب ذلك من أجل المملوك الذى قتله، فلم يطلع من الأمراء فى ذلك اليوم إلا القليل، وقيل إن السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان فى غاية النكد.

القبض على سنبل الطواشى :

وأرسل قبض على سنبل الطواشى وأودعه فى الترسيم واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة، خوفا

عليه من المماليك حتى تخمد هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون.

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم السبت فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا إلى دورهم. ـ ومما وقع فى ذلك اليوم من الحوادث المهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا فى ذلك اليوم استمروا على إثارة الفتنة المقدم ذكرها، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع إلى القلعة، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة، وقصدوا المماليك أن ينهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتار، وقصدوا أن ينزلوا إلى المدينة وينهبوا الأسواق، فمنعهم من ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة من النزول إلى المدينة، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل إلى الدهيشة فبلغه أمر هذه الفتنة، ثم اتسع الكلام بين المماك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشى الذى قتل المملوك، وقد تقدم القول على ذلك، فأرسلت المماليك تقول للسلطان: إن لم تسلمنا سنبل الطواشى أو تُنفق علينا لكل مملوك منا مائة دينار وتقيم حرمتنا فإن السوقة صارت تمسك لجام المماليك فى الأسواق وتُبهدلهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك، فلما ترددت الرسل بين المماليك وبين السطان بسبب ذلك وقد رأى السلطان عين الغدر من المماليك، ورسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به إلى المماليك، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذى قتله وهو فى الترسيم عند السلطان فى الدهيشة، فأخذه الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق، فلما خرج إلى باب القُلة أحاطت به المماليك وقصدوا أن يقطعونه بالسيوف، فصار يسأل قرابة المملوك الذى قُتل بألف دينار فأبى من ذلك وقال : ما أخذ إلا روحه، ثم أنزلوه من سلم المدرج وأتوا به إلى عند

الحوض الذى تحت سلم المدرج فوسطوه [1] هناك، وأحضروا له تابوت فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ومضى أمره كأنه ما كان.

من هو سنبل ؟

وكان سنبل هذا من أعيان الخدام حبشى الجنس جميل الصورة يُدعى سنبل من غازى، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة، وكان لا لا سيدى ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم، وكان خازندار كيس، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير أخور كبير فصار سنبل هو المتصرف فى أمور باب السلسلة ويحكم عوضا عن ابن السلطان، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة فعادى جميع الأمراء وحملوا منه فى الباطن، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء، ولم يفد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئًا، ومات هذه الموتة الشنيعة، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطا، وكان ذلك من الأمور المقدرة، فلما توسط سنبل خمدت تلك الفتنة وطلعت المماليك إلى الطباق وبطل أمر الفتنة، ثم إن السلطان أشهر المناداة فى القاهرة : بأن لا سوقى ولا تاجر يبهدل مماليك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجام فرسه ومن فعل ذلك قطعت يده ولا يقل حياء عليهم، وكانت هذه المناداة من أكبر أسباب الفساد فى حق الناس، وصارت المماليك من بعد ذلك يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك، وصار الناس معهم من بعد ذلك فى غاية الضنك والقهر، وقد أرضى المماليك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة.

---

(١) أى ضربوه بالسيف من وسطه .

أنباء انتصارات سليم الأول:

وفى يوم الاثنين ثالثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه ابن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع فى بناء أبراج على عقبة بغراص عند باب الملك، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعتب السلطان فى تأخير إرسال التجريدة إلى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان، فلما وردت هذه الأخبار على السلطان تنكد إلى الغاية وطلع إلى الدهيشة هو والأمراء وضربوا مشورة فى ذلك الأمر. - وفى يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان إلى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام بها إلى بعد العصر، فلما رجع إلى القلعة شق من على باب اللوق، فلما شق من هناك وقف له جماعة هناك من التجار وشكوا له من أذى المماليك فى حقهم وخطفهم القماش من على الدكاكين، فلم يلتفت إلى ذلك، وربما أغلظ التجار على السلطان فى القول، فطلع إلى القلعة وهو فى غاية السودنة من العوام. - وفى يوم الخميس سادسه توفى القاضى أبو الفتح السرم ساحى، وكان من أعيان الناس ورأس الموقعين العدول، وكان موته فجأة على حين غفلة.

مأدبة الزينى بركات واستعراضه جيش حملة الهند:

وفى يوم السبت ثامنه نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى المقياس وبات به، وأصبح يوم الأحد مقيما هناك، ومدّ له الزينى بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع إلى القلعة بعد العصر من يوم الأحد، وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا، فجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطانى. - وفى يوم الاثنين عاشره جلس السلطان فى الميدان

وعرض العسكر المعين إلى جهة الهند، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه، فلما فرغ من عرض العسكر أخلع على الرئيس سلمان العثمانى كاملية مخمل أحمر بصمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند، وقرر الباش الثانى شخصاً يسمى يشبك وهو أمير عشرة، وقرر الباش الثالث شخصاً يقال له دمرداش الإقريطشى، وكان أصله افرنجى يبيع النبيذ الإقريطشى فاشتهر بذلك، فأنعم عليه السلطان بأمرة عشرة وجعله باش العسكر، وكان ذلك من غلطات الزمان(١) ، فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعى بالنصر للعسكر، ثم إن العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزمور ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رؤوسهم الصنجق السلطانى، وكان لهم يوم مشهود، وكان مجموع هذا العسكر المتوجه إلى الهند على تحرر أمره نحو ستة آلاف إنسان، تفصيله: خاصكية خمسين، جمدارية مائة وخمسين، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعمائة وخمسين، وبحارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائة أربعة وأربعين على ما قيل، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا إلى الريدانية إلى أن يرحلوا من هناك إلى السويس، فكان السلطان فى مدة إقامتهم فى الريدانية يمد لهم أسطمة حافلة من ماله بكرة وعشياً إلى أن رحلوا من هناك وتوجهوا إلى نحو السويس، وكان عدة المراكب التى أنشأها السلطان بالسويس عشرين مركبا، وقد أشحنها بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزاد بسبب العسكر، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين ديناراً، وأودعهم بأن ينفق

(١) يحرم سب الزمان .

عليهم قبل أن يسافروا جامكية (١) ستة أشهر معجلا عند خروجهم إلى السفر. - وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود إلى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التى حضرت على يده، ثم إن السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا إلى ابن عثمان وقالوا للسلطان : هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكان من توجه إليه بهذا الجواب قتله، فلم يوافق إلى التوجه إليه أحد من العسكر. - وفى يوم الخميس ثالث عشرة أخلع السلطان على الوزير يوسف بالبدرى بأن يستمر فى الوزارة على عادته، وكان له مدة وهو فى الترسيم بسبب عمل الحساب، وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطوراً بخمسة وستين ألف دينار والتزم بأمر السداد هو والقاضى شرف الدين الصُغير ناظر الدولة، فأخلع السلطان عليهما ونزلا فى موكب حافل . - وفى يوم السبت خامس عشرة نزل السلطان من القلعة وعدى إلى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين، وأقام هناك يومين وليلة، وأحضر عنده مغانى وأرباب الآلات، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب أسمطة حافلة وطوارى فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك، فانشرح السلطان هناك إلى الغاية وصنع دكة خشب فى وسط الماء، وكان النيل فى قوة الزيادة، وجلس عليها وحوله الخاصكية وهم خائضون فى الماء حتى ابتلت ملاليطهم بالماء والطين، وقد فتك فى القصف والفرجة حتى خرج فى ذلك عن الحدّ، وكان السلطان حصل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشى سنبل وفتنة المماليك فى طلب النفقة، فما صدق بإخماد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وانشرح فى ذلك اليوم، واستمر مقيما

(١) مرتب .

هناك إلى يوم الأحد آخر النهار، وكانت ليلة تفرقة الجامكية، فطلع من هناك إلى القلعة وشق من الصليبة ولم يكن قدامه أحد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط.

فتنة العربان فى غزة:

وفى يوم الخميس عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير وصحبته الأمير خاير بيك أحد المقدمين الذى كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشرات وخاصكية، فخرج فى ذلك اليوم وتوجه إلى جبل نابلس بسبب فساد العربان الذى هناك، فإنه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقُتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطانى من غزة إلى مصر، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب، وكان ذلك اليوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفاءل الناس بخروج الدوادار فى ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها فى هجاج وسفر. - وفى يوم السبت ثانى عشرينه توفى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جانى بيك قرا من حيدر، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى، وكانَ لا بأس به. - وفى يوم الاثنين رابع عشرينه رحل الأمير الدوادار من الريدانية وتوجه إلى الخانكة، ومما عُد من محاسن الأمير طومان باى الدوادار أن شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو يتمنى مائة دينار ذهب وجمل وعبد حتى يتوجه إلى الحجاز، فأقام على ذلك مدة طويلة وكان يبتلش بالأمراء كلما طلعوا إلى القلعة ونزلوا فأصورهم وأبادهم شر وأحرمهم يشقوا من الصليبة، ففى بعض الأيام أرسل إليه الأمير طومان باى الدوادار خمسين دينارا ذهب وجمل وعبد وقال له : امض إلى الحجاز، فقال له ذلك الفقير: احملنى معك إلى القدس فأزوره قبل أن أحج، فحمله معه لما سافر إلى نابس، فعُدَّ ذلك من

النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار، وكان فيه الخير، وكان قليل الأذى (١) بخلاف من تقدمه من الدوادارية.

عزل القاضي الفاسد:

وفى يوم الخميس سابع عشرينه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى محى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير، ونفذ منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير الكلف ولم يقم فيها سوى هذه المدة اليسيرة وعُزل، فلما عُزل لم يرث له أحد من الناس فى سعيه فى هذه الوظيفة، وقد نفذ منه على وظيفة القضاء فوق الثلاثين ألف دينار، وهو ممقوت عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات إلا مدة يسيرة نحو السنتين، وكان أرشل قليل الحظ. ـ فلما عُزل ابن النقيب فى ذلك اليوم أخلع السلطان على قاضى القضاة كمال الدين الطويل وأعاده إلى القضاء، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة كمال الدين، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار، وكان الساعى له القاضى علاء الدين ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم السطان، فلما لبس التشريف وشق من القاهرة فأوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيرسية، وكان قاضى القضاة كمال الدين محببا للناس قاطبة.

فلما أحضروا له التشريف فوقف السلطان عن لبسه فى ذلك اليوم وصار يعتبه بكلمات مما تقدم منه، وقال له : لا تبقى تحكم وترجع عن أحكامك. ـ وفى يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرين رجب كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن قاضى القضاة محبّ الدين ابن الشحنة وكان قاضى

---

(١) وكأن أذى المماليك هو القاعدة .

القضاة عبد البر إماما فاضلا عالما علامة فى هيبة وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت من أعيان علماء الحنفية، توفى وله من العمر نحو خمسة وسبعين سنة أو دون ذلك ومات وهو منفصل عن القضاء، وقد أقام فى منصب القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر، ورأى فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره من القضاة، وكان من أخصاء السلطان بحيث أنه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليال فى الجمعة، وصار هو المتصرف فى أمور المملكة بحضرة السلطان، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر السلطان عليه بسبب عزل القضاة الأربعة فى يوم واحد، فعُزل معهم، واستمر على عزله والسلطان متغيظ عليه ولا يسمع بذكره قط حتى مات من شدة قهره، وفى يوم الاثنين سادس عشرة حضر إلى الأبواب الشريفة جاتم الخاصكى الذى كان أرسله السلطان إلى ملك التتار بسبب أقارب السلطان الذين أسرهم ملك التتار عنده، فلما مر من على بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه من الهدية التى كان أرسلها السلطان إلى ملك التتار، وحصل لجانم من ابن عثمان غاية البهدلة، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان.

أخبار حشود ابن عثمان :

فلما رجع جانم أخبر عن ابن عثمان أموراً كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر تجىء ثغر الإسكندرية ودمياط، وفرقا من عسكره تجىء من على البلاد الحلبية، فلما تحقق السلطان ذلك أرسل خلف أمير كبير سودون العجمى وبقية الأمراء، فجلسوا فى الدهيشة وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان، وقيل إنه حلف الأمراء فى ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا يخرجوا عن طاعته ظاهراً وباطنا، وحلف هو أيضاً لهم بمعنى ذلك، وانقض المجلس بعد الحلف.

سبب الفتنة جاسوس :

ويقال كان سبب إثارة هذه الفتنة الحادثة بين السلطان وبين ابن عثمان أن خشقدم مملوك السلطان الذى كان مُشدّ الشون[1] قد حصل له من السلطان حنق بسبب زوجته بنت جانى بيك دوادار الأمير طراباى، فلما رأى خُشقدم أن السلطان محط عليه بسبب جانى بيك قفز على حين غفلة ونزل فى مركب وتوجه إلى عند سليم بن عثمان وكان له أخ عند ابن عثمان، فلما توجه خشقدم إلى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بأمرية فى بلاده، فلما استقر خشقدم عند ابن عثمان شرع يحط على السلطان عند ابن عثمان ويخبره بأمور من أفعال السلطان من أبواب المظالم، وأخبره بما أحدثه على السوقة من أمر المشاهرة والمجامعة على أرباب البضائع من المال المقرر عليهم فى كل شهر، وأخبره بأمر الغش الذى فى المعاملة فى الذهب والفضة،

وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط عن أحوال مصر، حتى أخبره بجملة عساكر مصر وما يشتملون عليه، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية، وحسن له أن يمشى على بلاد السطان وسهل عليه ذلك الأمر، فعرفه كيف يرسل مراكب على الإسكندرية ودمياط، فعند ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر، والله تعالى غالب على أمره، فمن حين توجه خشقدم إلى ابن عثمان وهو يظهر المشى على بلاد السلطان، ولا سيما قتل علىّ دولات وملك بلاده وولى فيها ابن سوار وجعله نائبه وصار يكاتب السلطان فى مطالعاته بألفاظ يابسة، وكل ذلك مما أوحاه إليه خشقدم عن أحوال الديار المصرية، فلما حضر جانم الخاصكى وأخبر السلطان بما قاله ابن عثمان

(١) أمين مخازن الغلال .

فى حقه من هذه الأخبار المقدم ذكرها، اضطربت أحوال السلطان وتنكد لذلك، واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة.

حادثة تاريخية مع التتار :

وهذه الواقعة تقرب مما وقع للملك الناصر محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام، فإنه أظهر العصيان على السلطان فأرسل بالقبض عليه، فلما تحقق ذلك فر من الشام وتوجه إلى غازان ملك التتار وقوى عزمه وحسن إليه بأن يمشى على بلاد السلطان فيملكها من غير مانع، وكذا جرى فمشى غازان على بلاد السلطان وملك حلب والشام، فخرج إليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتحارب مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة، فرجع الملك الناصر إلى مصر وهو مهزوم، ثم تحايا عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتحارب مع غازان ثانيا فكسره (كسرة) مهولة وغنم منه أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك، وكان هذا كله من فتنة قبجق لما توجه إليه وحسن له ذلك، ونعوذ بالله أن يكون فتنة ابن عثمان مثل ذلك، والأمر إلى الله تعالى.

أخبار من السويس :

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرة جاءت الأخبار من السويس بأن المراكب التى جهزها السلطان إلى الهند غرق منهم مركب وقد انصدمت فى شعب فانكسرت وغرق جميع ما كان فيها، وفقد من العسكر الذى كان فيها جماعة، فلم تتفاءل الناس بذلك. - وفى يوم الخميس تاسع عشرة أخلع السلطان على الأمير أينال باى دوادار سكين وعينه بأن يسافر إلى البلاد الشامية بسبب أمور تتعلق بأشغال السلطنة، فتوجه إليها. - وفى يوم الجمعة عشرينه فُتح سد بحر

أبى المنجا، وكان النيل يومئذ فى سنة عشر أصبح من إحدى وعشرين ذراعا، وكان فتحه فى أول يوم من بابه من الشهور القبطية، وقد تأخر فتحه عن العادة إلى ذلك ايوم، وكان النيل فى قوة عزمه من الزيادة، فلما فُتح سد أبى المنجا نقص النيل فى ذلك اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئًا وقد ثبت على ستة عشر أصبعا من إحدى وعشرين ذراعا، وحصل به غاية النفع وأروى سائر البلاد التى قط ما رويت، واستمر ثابتا إلى أوائل هاتور فعد ذلك من النوادر، ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولابيت واحد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين، ولم يُعلم ما سبب ذلك ولكن أشاعوا أنه سكن بالجزيرة عدة مناخات جمال لابن السلطان والأمراء، فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من النفر الذى هناك، فهذا كان السبب فى منع الناس فى سكنى الجزيرة. - وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان فى الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فإن السلطان ينفق ويخرج فى جمعته، وصار فى كل جامكية ينادى للعسكر بذلك فى الحوش، وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب ابن عثمان، واستمرت الإشاعات قائمة بسفر السلطان ثم خمدت تلك الإشاعات قليلا، وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان إلى بولاق وتوجه إلى ضيافة القاضى كاتب السر محمود بن أجا بالبرايخية التى هناك فأقام عنده إلى يوم الأربعاء وهو فى أرغد عيش، فما أبقى القاضى كاتب السر فى ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء أحسنه، حتى قيل إنه تكلف على أسطمة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فوق آلاف دينار، وكان ابن السطان معه وجماعة من الخاصكية، وانشرح السلطان هناك إلى الغاية وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات،

وأظهر القاضى كاتب السر أنواع العظمة من الفُرش الفاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف ثم إن السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع إلى القلعة وكانت ليلة جامكية، فلما ركب من هناك (٢٩٥ ب) أخلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة من ملابيسه مخمل أحمر بصمور فاخر، وتشكر منه لما تكلفه له من الأسطمة الحافلة وغير ذلك من المآكل والمشرب والتقادم الحافلة. - وفى يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان الجامكية، وهى آخر الجوامك، ثم نادى للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فإن التجريدة إلى حلب عمالة، فلما تحققوا المماليك ذلك نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار وهجموا عليهم الحارات والبيوت، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الأسواق وأخذوهم من تحتهم، وأخذوا بغلة الشيخ برهان الدين ابن الكركى وهو فى الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل[1] عليها بمبلغ له صورة حتى خلصها، ثم صارت المماليك تسافر إلى نحو بلبيس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين وأكاديشهم، حتى ضج منهم جميع الناس وتزايد منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا، وصاروا يبهدلون القضاة والعلماء بالضرب ويُنزلونهم من على بغالهم، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة.

بناء سور برشيد :

وفى رمضان كان مستهل اشهر يوم الثلاثاء، فجلس السلطان فى الميدان، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر، ثم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب، وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو

(١) برطل هنا بمعنى دفع إتاوة وأحيانا تستعمل هذه الكلمة بمعنى الرشوة .

على رؤوس الحمالين مزفوف، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت به العادة فأخلع السلطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصُغير والمحتسب، وكان يوما مشهودا . - وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رمضان قوى عزم السلطان بأن يسافر إلى ثغر الإسكندرية ورشيد بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك، وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شاطئ البحر الملح فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك، وقد بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرق ثغرى الإسكندرية ودمياط على حين غفلة، فلما صلى السلطان الصبح يوم الأربعاء نزل من القلعة وتوجه إلى بولاق وعدى إلى بر إنبابة ونصب له خيمة هناك حتى يتكامل خروج العسكر، فكان صحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى(١) سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تانى بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين، وجماعة من الأمراء اطبلخانات والعشرات منهم الأمير خاير بيك المعمار، وكان صحبته من المباشرين الشهابى أحمد ابن الجيعان نائب كاتب السر والقاضى أبو البقا ناظر الأسطبل، وأخرون من المباشرين من أرباب الوظائف، وعين معه نحو خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبغلا جنيبا، فقاسوا فى المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه، وكان النيل فى عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من كثرة الماء، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة ولا سيما فى رمضان والصيام عمال كل يوم ، فأقام السلطان فى بر إنبابة إلى يوم الخميس ثالث الشهر فنزل فى مركب ورحل من إنبابة هو والأمراء فى عدة مراكب كثيرة، وكانت هذه السفرة على حين غفلة.

---

(١) الأتابكى : قائد الجند .

عقاب المتأخر فى السداد :

وفى يوم الأحد ثالث عشرة أشيع بين الناس أن الوالى عاقب جانى بيك دوادار طراباى على بقية المال الذى تأخر عليه، فطالبوه بأن يورد مما عليه شيئًا على الجامكية فقال : ما بقى معى شىء من المال غير روحى خذوها، فضربوه كسارات على ركبه، وقيل عصروه فى أصداغه، وهو يقول ما بقى معى شىء من المال، فاستمر يعاقبه الوالى حتى أشرف على الموت، وأشيع بين الناس موته، ولكن ما صح ذلك، وهذا انتقام من الله تعالى فإن جانى بيك هذا كان من وسائط السوء مستحقا لكل الأذى.

خروج المحمل بكسوة الكعبة:

وفى ذلك اليوم عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة ومقام إبراهيم عليه السلام، وعرض المحمل الشريف، وكان السلطان فى الحوش جالسا به، وكان ذلك اليوم مشهودا. - وفى يوم السبت ثامن عشرة خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد، وكان له يوم مشهود.

إسلام أحد اليهود :

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرة وقعت فيه نادرة غريبة وهو أن السلطان نزل إلى الميدان وجلس به وأحضر بين يديه شخصا يهوديا يقال له يوسف شنشوا، وكان أصله تاجرا من تجار الفرنج، وكان يعرف باللغة التركية، ثم بقى معلما فى دار الضرب، فقيل إنه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب قديم وهو مبلغ اثنا عشر ألف دينار فتكاسل عن وزن ذلك، فأرسله السلطان إلى المقشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئًا مما عليه من المال، فأحضره السلطان بين يديه

وأحضر له المعاصير وعصره فى أكعابه فى وسط الميدان بين يديه، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله برأت عن كل دين بخلاف دين الإسلام، فكبر الحاضرون من العسكر والناس أجمعين، فلم يلتفت السلطان إلى إسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء ورسم ليحيى بن نُكار دوادار الوالى بأن يتسلمه ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه، وقال : المسلمون كثير والإسلام ما له حاجة بهذا، فشكه ابن نكار فى الحديد ونزل به ليعاقبه ويستخلص منه المال، فكان كما يقال : إذا تسلط على اليهودى يسلم.

موت مضحك السلطان :

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجمى الشنقجى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه، وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى أواخر شهر رمضان إلى نائب الشام وإلى نائب حلب، وعلى يده فيلين تقدمة من عند السلطان أحدهما إلى نائب الشام والآخر إلى نائب حلب، فأشيع بين الناس أن الشنقجى العجمى قد مات على غير وجه مرضى، وقد اختلف القول فى سبب موته وإلى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته والأقوال فى ذلك كثيرة، وكان هذا العجمى مشعوثا مُضحكا يلعب بالصحون النحاس على جريدة فى الحلق، فلما قربه السلطان وأحسن إليه صار من جملة أعيان المملكة ويركب وقدامه الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم إليه إذا دخل عليها، وكذلك أرباب الدولة من المباشرين وغيرها، وقيل إنه لما دخل إلى الشام كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق فيها بالأفيال الذى أرسلهما السلطان، ويقال إن نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك نائب حلب،

وكسب من السلطان أمولا جزيلة وسلاريات صمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة، ومن الأمراء وأعيان الناس. وكان الناس يسألونه فى قضاء حوائجهم عند السلطان، ورأى من العز والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من المقربين عند الملوك، وكانت رياسة هذا العجمى من غلطات الزمان كما قيل : ما طاب فرع أصله خبيث ولا زكى من مجده حديث، ولم يصح موته.

العربان يقطعون الطريق على حامل البريد:

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما، وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه حتى الراحلة التى تحته وجميع كتب الحجاج، فلم يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب فى هذه السنة، وقيل إن المبشر مشى على أقدامه يومين وهو لابس بشت، فلما سمع السلطان ذلك تنكد والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة، فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى زين الدين النابلسى أخى الشرفى يونس النابلسى الذى كان استادارا، وكان القاضى زين الدين مجاورا بمكة فمات هناك.

أخبار عن استعداد ابن عثمان لغزو مصر:

ولما حضر ابن على دولات حضر صحبته حاجب ثانى بحلب وهو شخص يقال له قانصوه من نفيس، وكان نائب حلب أرسله إلى ابن عثمان قاصدا(١) بسبب القلاع التى أخذها من بلاد على دولات، فلما حضر قانصوه هذا من عند سليم شاه بن عثمان فأخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه

(١) القاصد : السفير والرسول بين الملوك

القلاع إلا بالسيف وما أردهم إلا بالسيف، وأنه ما هو راجع عن التوجه إلى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر، وهو فى عمل برق عظيم وجهز مراكب فى البحر ليجيء على إسكندرية ودمياط، فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء فى ضرب مشورة بسبب ذلك، وأخبر هذا القاصد إنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنوه أمراؤه من ذلك، وقالوا : القاصد ما يُقتل.

فتنة المماليك :

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من الأمراء المقدمين إلى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه السلطان إلى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة، ثم نزل ستة عشر أميرا مقدم ألف وتوجهوا إلى عند السلطان فى المقياس لكى يُرضوا خاطره على مماليكه مما وقع من المماليك فى حقه، فلما اجتمعوا بالسلطان قال لهم : أنا ما بقيت أعمل سلطانا ولوا عليكم من تختاروه غيرى،

فبات تلك الليلة بالمقياس وباتت عنده الأمراء المقدمون، فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك الجلبان وقصدوا أن ينهبوا بيوت الأمراء، فمنعوا بعضهم بعضا من ذلك، فنهبوا بعض دكاكين من الصليبة مثل الشمع والحلوى والخبز وغير ذلك، واستمر الحال على ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ويخطفون العمائم والشدود، وحصل منهم فى تلك اليلة الضرر الشامل من أذى المماليك، وكان السلطان لما توجه إلى المقياس أخذ ولده معه خوفا عليه من المماليك أن لا ينكدوا عليه.

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجهت الأمراء المقدمون قاطبة إلى عند السلطان، وكذلك الأمراء الطبلخانات والعشرات من أرباب الوظائف، فوقف

الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه يقوم ويطلع إلى القلعة ويرضى عن مماليكه، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : ما بقى لى حاجة بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولوا أمير كبير، فخاف أمير كبير وصار يرعب من كلام السلطان وحصل له وهم.

وقد وقع عروض ذلك للملك الأشرف قايتباى لما طلبوا منه المماليك نفقة عند حضورهم من تجريدة ابن عثمان، فجمع الأمراء قاطبة والخليفة والقضاة الأربعة وأحضر القبة والطير وفرس النوبة وقال : سلطنوا أمير كبير أزبيك، وفكك أزرار ملوطته على أنه يدخل إلى البحرة، وقال للقضاة : اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده الخليفة إلى السلطنة ثانيا، وكان سبب ذلك المماليك أيضًا.

ثم إن السلطان أرسل خلف أغوات الطباق وهو فى المقياس، فلما حضروا بين يديه صاروا يشكون هو أن إقطاعاتهم لم يصل لهم منها شىء، وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل أوان النيل بمدة، وأن لحوم العسكر مكسورة بالأشهر(١)، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة، وأن كل شىء غال حتى الخام والبلعلبكى والتبن ما يوجد، وصارت الجامكية(٢) ما فيها بركة كونها من مال المصادرات وأغلظوا عليه فى القول، وقالوا له : ليش ما تمشى على طريقة الملوك السالفة وتقل من هذا الظلم، ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر اللحوم المكسورة وأن يبطل المشاهرة والمجامعة،

(١) أى تأخر صرف حصة اللحوم للعسكر لشهور .

(٢) الجامكية : الروتب .

ويعزل المحتسب[1] ويولى غيره، ويعزل الوزير والوالى ويولى غيرهما، فقال السلطان : نعم أفعل لكم ذلك جميعه، وصاروا يشرطون عليه شروطا كثيرة من هذا النمط، وهو يقول : نعم، وكان الماس دوادار سكين هو الذى يتردد بالرسائل بين السلطان وبين المماليك، فلما طيب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفا شريفا وحلف عليه أغوات الطباق من الخاصكية[2]، وكل واحد منهم على انفراده، بأن يرجعوا بقية المماليك ويُخمدوا هذه الفتنة ويكونوا تحت طاعة أستاذهم، فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان وباسوا له الأرض، وخمدت تلك الفتنة على خير، ولولا لطف الله تعالى فى إخماد هذه الفتنة عن قريب، وإلا كان قصد المماليك الجلبان أن ينهبوا المدينة وأسواق القماش وبيوت الأمراء وأعيان الناس ويقتلون من الأمراء من أرادوا قتله، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم، وكل مفعول جائز فى هذه الأيام، ولكن الله سلم ولله الحمد على ذلك.

الفتنة الثانية : سنة ٩٢٢هـ (١٩١٦م) :

وفى مستهل المحرم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمان والبيع والشرى، وأن أحداً من الناس لا يكثر كلاما، وأن أحداً لا يخرج من بعد العشاء ولا يمشى بسلاح ولا يتزايا بزى المماليك ولا يغطى وجهه فى الأسواق ومن فعل ذلك شُنق من غير معاودة، وأن لا أحد يحتمى على المحتسب . وقد تقدم القول على أن المماليك الجُلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان

(١) المحتسب : وهو الذى يفتش على الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ،، ويعاقب من يراه متلبساً بمخالفة .

(٢) رؤساء المماليك .

وتوجه إلى المقياس وأقام به ثلاثة أيام، فمشت الأمراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أنه يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة، ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قُررت على السوقة أرباب البضائع، وتقدم القول بما كان سبب ذلك، فلما أن طلع السلطان إلى القلعة وبات بها، فلما أصبح نادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ولم يفعل شيئًا مما وقع الاتفاق عليه مع المماليك الجُلبان، فشق عليهم هذه المناداة، وأشيع إثارة فتنة ثانية وكثُر القال والقيل بين الناس، وكانت الناس قد استبشروا بأن السلطان ينادى بإبطال المشاهرة والمجامعة، فلما نادى كل شىء على حكمه نزل على الناس خمدة بسبب ذلك. - وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض آغاوات الطباق، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام ، وقال لهم : لا تسمعوا المماليك القرانصة الذين يرمون بينى وبينكم الفتن وتشتمون العدو فينا وابن عثمان متحرك علينا ولابد من خروج تجريدة عن قريب، حصلوا معكم ذهب ينفعكم إذا سافرتم، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته، ما يبقى وراكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة. فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا يثيرون فتنة فى ذلك اليوم، وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة، وقد استوعدوا المماليك ابن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم نادى بأن كل شىء على حكمه، فتخلفت جماعته بالزعفران فى عمائمهم وشق من القاهرة، فتنكد المماليك الجُلبان لذلك وقالوا: قد شمت فينا، وقال المماليك ولم يطلع من أيديهم شىء: وقد تخلق جماعته بالزعفران جكارة فينا والله ما نرجع حتى نقتله. وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان: سلمنا ابن موسى المحتسب نقتله بسبب غلو البضائع من كل شىء فى الأسواق.

إجراءات الزينى بركات :

وفى يوم الأحد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة، وكانت جنازته حافلة. ـ وفى أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة، وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك من خوفه من المماليك الجلبان.

قتل اللصوص :

وفى يوم السبت ثالث عشرة رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة، وقد قبض عليهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب، فرسم السلطان بتوسيطهم فى ذلك اليوم ، وكان فيهم شخص يسمى أبو عزراييل وهو كبيرهم، فوسطهم أجمعين.

وفاة الشيخ ابن عنان :

وفى هذا الشهر أو فى الشهر الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله الولى المعتقد سيدى محمد بن عنان رحمة الله عليه، وكان من أعيان مشايخ الصوفية، وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس.

عرس الأمير :

وفى يوم الخميس ثامن عشرة كان دخول الأمير قايتباى أحد الأمراء

الطبلخاناه، وهو قريب زوجة الأتابكى قانم التاجر، على ابنة الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين، فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة، قيل اجتمع فيه من المغانى خمسة وعشرون ريسة، ومدوا فيه أسمطة حافلة من الأطعمة الفاخرة، وصنعوا فيه شموعا مزهرة مابين قصور وشمامات، وكان من المهمات المشهورة.

القبض على الشامى :

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض فى مكة على شخص يقال له المعلم أحمد الشامى، وكان أصله من عتالين الزردخاناه، فوجدوا معه مالاً يفتك فيه مكة، فلما بلغ أمره للأمير علان قبض عليه، وكان له رفيق فهرب من هناك، فلما دخل أحمد الشامى هذا إلى القاهرة أسفرت القضية على أن أحمد الشامى كان اتفق مع جماعة من معلمين دار الضرب التى كانت بالقلعة وسرقوا من مال السلطان اثنى عشر ألف دينار، وغرمها السلطان للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار الضرب، فلما حضر أحمد الشامى بين يدى السلطان اعترف بذلك، فسلمه السلطان للوالى يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذى أخذه، ثم إن أحمد الشامى أقر على شخص كان معهم لما أخذوا المال هو كان بالقاهرة مقيما، فلما أقر عليه أحمد الشامى خاف على نفسه من الضرب فأحضر للسلطان أربعة آلاف دينار وقال : هذا هو القدر الذى نابنى من المال ولم يخصنى شىء غير ذلك، فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه فى الحديد حتى يحضر بقية المال، وكان هذا الشخص من معلمين دار الضرب أيضًا ممن فعل معهم ذلك، وقد ظهر هذا المال الذى سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعُد ذلك من جملة سعد السلطان.

وصول سفير الحبشة:

وفى يوم الخميس خامس عشرينه حضر قاصد من عند ملك الحبشة، أقول أن قُصاد ملوك الحبشة لها مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر، وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى سنة ست وثمانين وثمانمائة، وفى هذه المدة لم يدخل إلى مصر قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة ومالهم شغل فى مصر،

فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا قماش كما تقدم للأشرف قايتباى، فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك، وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القُرصة وفى أيديهم أساور ذهب، وأما القاصد الكبير ذكروا على أنه ابن أمير كبير الحبشة، وقيل إن أباه هو الذى حضر فى دولة الأشرف قايتباى، فكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيهم بعض فصوص، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة، وعليه شاياه حرير ملون، وعلى بقية أعيان أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رءوسهم شدود حرير،

وذكروا أن فيهم شخصاً شريفاً، فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير،

وكان معه لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها، وكان صحبتهم البترك الكبير وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب، واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة، فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج، والبترك ماش قدامهم فلما وصلوا إلى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا يجلسون عليها بحضرة السلطان فما مكنوهم الرءوس نوب من ذلك ووقع فى أيام الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان.

فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبل الأرض، فلما وصل إلى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة، ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب، فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان، وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس فلا تمنعوهم من ذلك، فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة، فرسم لهم السلطان بأن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع[1] إلى أن يسافروا، وأرسل لهم خياما ضربته لهم من داخل الميدان، ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام، فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من الرءوس النوب فوصلوهم إلى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرجموهم، فكان لهم يوم مشهود.

---

(١) السيدة زينب فيما بعد

التأكد من نية ابن عثمان :

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه، ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن، وأصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة، وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان. - وفيه أخرج السلطان خرجا من مماليكه الغورية ففرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيًا ونشابا، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك.

وفيه أرس السلطان إلى عبد الرزاق أخى على دولات، وإلى أولاد على دولات الكبار والصغار، ثمانية آلاف دينار، فقسمت بينهم، وأرسل يقول لهم اعملوا بهذه النفقة يرقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة فاجمعوا عساكركم من التركمان إلى أن أحضر أنا والعسكر. - وقيل أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان إلى ثغر الإسكندرية وتمضى فى مراكب إلى هناك، فكانوا نحو مائتى مكحلة، وقد بلغه بأن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجئ على السواحل للديار المصرية.

إلغاء الضرائب :

وفى يوم الخميس خامس عشرينه أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطالة، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة وهو أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى نصف فضة، وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك، فلما تسطن ابنه الناصر أعاد هذه المظلمة، فلما

تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب غلال ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى وصار يسمى الموجب[1]، ثم انتقلوا من الغلال إلى أن جعلوا على البطيخ مكسا[2] أيضًا، فاستمر ذلك مدة طويلة إلى أن ألهم الله تعالى السلطان إلى إبطال ذلك جميعه.

أخبار ابن عثمان :

وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار ردية بسبب ابن عثمان، فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يضربون مشورة فى أمر ابن عثمان. - وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ثانى صفر، وأن لا يتأخر عن العرض أحد من العسكر من كبير ولا صغير، فاضطربت لذلك أحوال العسكر قاطبة.

إلغاء ضريبتين :

من الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم وهو مستهل شهر صفر أن السلطان أمر بإبطال المشاهرة والمجامعة التى كانت على الحسبة، وأشهر المناداة فى مصر والقاهرة بذك وأن مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال بطال، فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان، ونقطت الناس المشاعلية بالفضة الذين بشروا بذلك، وكان يوما مشهودا.

وكانت هذه المشاهير من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين، فإن

---

(١) ضريبة مبيعات.

(٢) ضريبة.

الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبره بأن يجعل على السوق كل شهر مالا يردونه لمحتسب، فتزايد الأمر إلى أن صار مقرر على السوقة فى كل شهر فوق الألفى دينار ترد للخزائن الشريفة، فكان الزينى بركات بن موسى المحتسب يرد فى كل سنة للخزائن الشريفة من المشاهرة والمجامعة نحو ستة وسبعين ألف دينارٍ من هذه الجهة وغيرها من الجهات التى متكلم عليها الزينى بركات بن موسى، وكان جماعة من الأمراء الذين بغير أقاطيع محقا له فى كل شهر على الزينى بركات بن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة، فكانت السوقة تجور فى أسعار البضائع ولا يجرؤ من الناس أحد يكلمهم فيقولون : علينا مال السلطان نورده فى كل شهر. فاستمر ذلك من أول دولة السلطان إلى الآن، ألهم الله تعالى السلطان إلى إبطال ذلك.

وفيه وجد مملوك من مماليك السلطان مقتولا بباب الوزير، وكان ذلك المملوك من مماليك السلطان من جلبانه، وكان مسارعا، فلا يعلم من قتله، فتنكد المماليك بسببه. - وفى ذلك اليوم أخلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض، ولم يعد الزينى بركات بن موسى إلى الحسبة، فنزل من القلعة فى موكب حفل وصحبته الأمير طومان باى الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة، واستمرت الحسبة شاغرة إلى الآن لم يل بها أحد.

أخبار من حلب :

وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساعٍ، وقيل اثنان من عند نائب حلب، وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة على أيديهما، فلما قُرئت على السلطان فإذا بها أن شاه إسماعيل الصفوى ملك العراقين جمع من العساكر

ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على بلاد ابن عثمان، وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وقعة مهولة، وانكسر منه شاه إسماعيل الصفوى، فاستمر الصوفى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بملوك التتار، فقيل إنه جمع الجم الغفير من العساكر فإن ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الوقعة المقدم ذكرها، فلما راج أمر الصوفى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان فقيل إنه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد ملكها من يد الصوفى، فلما تحارب معه وانكسر الصوفى فجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله، فأشيع أن الصوفى كبس على من كان بآمد على حين غفلة وقتل من كان بها من العثمانية واستخلصها من يدى جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم، فلما طرق السلطان هذا الخبر اجتمع بالأمراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب مشورة بسبب ذلك إلى قريب الظهر.

قرار خروج السلطان إلى حلب :

ولقد أشيع بأن السلطان قال : أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفى وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا، فانفض المجلس على أن لابد من خروج تجريدة تقيم بحلب ويحرسون البلاد، وأشيع فى ذلك اليوم بإحضار الكشاف ومشايخ العربان وألزمهم بأن يشرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير من فرسان العرب ويوزعوا ذلك على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد، وهذا أكبر أسباب الفساد فى حق الجند والمقطعين فإن الكشاف ومشايخ العربان يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة أمثال لأنفسهم، والأمر فى ذلك

لله تعالى.

رسالة من نائب الشام :

وفى يوم الخميس رابع عشرة ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان إلى البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع فى الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر إلى حلب.

نقل الزينى بركات وتعيين محتسب جديد:

وفى ذلك اليوم أخلع اسلطان على مملوكه الأمير ماماى الصغير وقرره فى نظر الحسبة الشريفة، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله إلى أستادارية الذخيرة، فكانت مدة إقامة الزينى بركات بن موسى فى الحسبة إحدى عشرة سنة إلا أشهر وعُزل والناس عنه راضية، وقيل إن الأمير ماماى الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها، وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين فى هذا الزمان إلى الغاية وصارتا من أجلَ الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة التى سعوا بها هؤلاء ما يستخلصونها إلا من أضلاع المسلمين والأمر لله.

وفى يوم الأحد سابع عشرة ظهر أحمد بن الصايغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة، وكان له مدة وهو مختف فظهر فى ذلك اليوم

وقابل السلطان، ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى.

الاستعداد للحملة :

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس نفق السلطان على العسكر بقية النفقة. ـ وفى يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ونادى لهم فى الحوش أن السفر أول الشهر، فاضطرب أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال، وصارت المماليك يهجمون الطواحين(١) ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق، ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء على السلطان، وغلقت أسواق القماش من المماليك واختفى الصنايعية والخياطين واضطربت أحوال القاهرة، واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك، واختفى طائفة من الغلمان لأجل السفر، وصارت أحوال مثل يوم القيامة كل واحد يقول : روحى روحى.

وقد أعاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى بيقع منه، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر، ولم يكن أمر يستحق لهذا الرهج العظيم، ولا جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل إلى حلب، ولا جاليشه، ولا تحرك من بلاده، وقد أعاب على السلطان أيضا عرضه لعسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ونفق عليهم مع العرض فخشوا أن يشاع هذا الخبر فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصوفى أن السلطان قد عرض عساكره فى أربعة أيام ينسبونهم إلى قلة وإن ما ثم بمصر عساكر، وربما يطمع العدو إذا سمع ذلك وما كان هذا عين الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة.

---

(١) كانت الطواحين تدار بالبغال .

خروج السلطان إلى الشام :

فلما كان يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره قاصدا نحو البلاد الشامية والحلبية. وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج إلى البلاد الشامية على هذا الوجه من حين.

رسالة من ابن عثمان :

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب بأن ابن عثمان أرسل قاصدا إلى حلب، فعوقه نائب (حلب) عنده وأخذ منه كتاب ابن عثمان وأرسله إلى السلطان، فوصل إليه وهو بالمخيم بالريدانية، فلما فضه السلطان وقرآه فإذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة منها أن أرسل يقول له : أنت والدى وأسألك الدعاء وإنى ما رجفت على بلاد على دولات إلا بإذنك وأنه كان باغيا على وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب، وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم فى ذلك، وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإنى ما منعتهم إنما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا من جلب المماليك إليكم، وإن البلاد الذى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه.

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان الذى حضر فانشرح السلطان والأمراء لهذا الخبر واستبشروا بأمر

الصلح والعود إلى الأوطان عن قريب، وكان هذا كله حيلا وخداعا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد. ـ وفى عقيب ذلك حضر الأمير أينال باى دوادار سكين الذى كان توجه إلى حلب بسبب كشف أخبار ابن عثمان، فلما حضر وجد السلطان قد برز خامه إلى السفر وخرج من القاهرة، فأخبر أن قاصد بن عثمان قد وصل إلى حلب وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان فقدم أينال باى للسلطان هناك تقدمة حافلة. ـ وقيل فى ليلة رحيل السلطان من الوطاق بالريدانية أحضروا مشاعل مهولة فطار منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق منها جانب، فلم تتفاءل الناس بذلك.

تعيين طومان باى نائبا:

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية أخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة إلى أن يحضر وأخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة عوضا عن الأمير ماماى إلى أن يحضر وجعل الزينى بركات بن موسى متحدثا فى جميع جهات السلطنة إلى أن يحضر السلطان، فتضاعفت عظمة الزينى بركات إلى الغاية وصار فى مقام نظام الملك وهو المتصرف فى أمور المملكة، والأمير الدوادار معه كاللولب بدوره كيف شاء، وأخلع على الأمير الماس والى القاهرة وأقره فى الولاية وأوصاه بحفظ القاهرة وعدم الظلم، وأخلع على الأمير ماماى المحتسب ورسم له بالسفر معه إلى حساب. فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه المشاعلية تنادى بالأمان والاطمنان والبيع والشرى وأن أحدًا لا يمشى من بعد العشاء بسلاح، وأن لا مملوكا ولا غلاما يشوش على متسبب وأن من كان له ظلامة أو حق شرعى

على أحد ولم يدفعه فعليه بباب الأمير الدوادار، فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء، وما حصل للناس منه فى غيبة السلطان إلا كل خير، وكان الأمير الدوادار محببا للرعية قليل الأذى فى حق الناس، فلما شق من الصليبة شق فى موكب حافل وقدامه السعاة والنفطية والسقايين والجم الغفير من المماليك السلطانية فتوجه إلى داره فى ذلك الموكب.

رحيل السلطان :

وفى يوم السبت ثانى عشرين ربيع الآخر رحل السلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصرى أمير آخور كبير واقباى الطويل أمير آخور ثانى، فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه إلى خانقة سرياقوس، فكانت مدة إقامته فى الوطاق بالريدانية سبعة أيام، فلما توجه إلى خانقة سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشرينه. - وفى يوم الاثنين رابع عشرينه فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذى تأخر بمصر، فجلس الأمير طقطباى عند سلم المدرج ونُفقت الجامكية بحضرته، وهذه أول جامكية نُفقت فى غيبة السلطان. - وفى ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمراء المقدمين الذين عينهم السلطان إلى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد من فساد العربان،

فتوجه الأمير تانى بك النجمى إلى نحو الشرقية، والأمير أزبك المكحل إلى نحو الغربية والأمير قانصوه الفاجر إلى المنوفية، والأمير قانصوه أو سنة إلى البحيرة، والأمير بخشباى كان مسافرا إلى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك، ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة بأن المماليك السلطانية المتعينين

إلى الشرقية والغربية يخرجون صحبة الأمراء الذين سافروا فلا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك المعينة إلى السفر، فامتثلوا ذلك.

و صول السلطان إلى غزة:

ثم وردت الأخبار بأن السلطان دخل إلى مدينة غزة المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الأولى فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة حافلة، فشق السلطان مدينة غزة فى موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة، فقيل أقام بغزة خمسة أيام ورحل عنها. وأشيع أن السلطان لما كان بغزة أخلع على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة وقرره معلم المعلمين، عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها، وكان هذا من غلطات الزمان فى تولية الوظائف إلى غير أهلها.

دخول دمشق :

وفى هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل إلى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الأولى فلاقاه سيباى نائب الشام، ولاقاه سيباى نائب الشام من المنية وبركة طبرية على ما قيل من الأخبار، ودخل فى موكب حافل وعسكر بالشاش والقماش وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العسكر، ولاقاه أمراء الشام وعساكرها، وحمل على رأسه ملك الأمراء سيباى نائب الشام القبة والجلالة كما جرت بذلك العوايد من قديم الزمان، فزينت له مدينة دمشق زينة حافلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق، ونثر على رأسه بعض تجار الفرنج الذى هناك ذهبا وفضه، وفرش له سيباى نائب

الشام تحت حافر فرسه الشقق الحرير، فتزاحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر فرسه من شدة إزدحام الناس عليه، فمنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق تحت حافر فرسه،

ولما دخل إلى دمشق نثر على رأسه القنصل وتجار الفرنج دنانير ذهب، ونثر المعلم صدقة اليهودى معلم دار الضرب بالشام فضة جديدة وفُرشت له الشقق من مدسرة النائب بها الآن، وزُينت له المدينة سبعة أيام، فكان له بدمشق يوم مشهود، وعُد ذلك من المواكب المشهودة، فاستمر فى هذا الموكب الحافل حتى دخل من باب النصر الذى بدمشق وخرج إلى الفضاء منها وتوجه إلى المصطبة التى يقال لها مصطبة السلطان، وهى بالقانون الفوقانى، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وكانت قد تشعثت من قدم السنين، وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف بُرسباى لما توجه إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى للملك الأشرف قانصوه الغورى.

الو صو إلى حلب:

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل إلى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة، وكان لدخوله يوم مشهود، وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء، كموكبه بالشام، وحمل القبة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام، وفى حال دخول السلطان إلى حلب وصل إليها قُصاد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فقيل إن ابن عثمان أرسل إليه قاضى عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين، وأحد أمرائه يقال له قراجا باشاه، وصحبتهم سبعمائة عليقة، فنزلوا بمدينة حلب.

وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضى ابن عثمان وقراجا باشاه شرع يعتبهم فى أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه فى حقه وأخذه إلى بلاد على دولات، فقال له قاضى ابن عثمان وقراجا باشاه : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر وقال مهما اختاره السطان افعلوه ولا تشاورونى. وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد. ومن جملة مخادعة ابن عثمان إلى السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكرا وحلوى فى علب كبار، وكل ذلك حيل منه. ثم إن قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى عن علماء بلادهم وقد أفتوا بقتل شاه إسماعيل الصوفى وأن قتاله جائز فى الشرع، وأرسل يقول فى كتابه : السلطان والدى وأسأله الدعاء لكن لا يدخل بينى وبين الصوفى فإنى ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض فلا تدخل بيننا بشىء من أمر الصلح.

القبض على سفير السلطان :

ثم وردت الأخبار إلى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذى جهزه إلى ابن عثمان، وهو مغلباى أحد الدوادارية السكين، ووضعه فى الحديد. وكان السلطان جهز الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة إلى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار، وأخلع على قاضى عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشاه الذى تقدم ذكر حضورهما إلى حلب خلعا سنية بطرز بلبغاوى عراض، وأذن لهم بالعود إلى بلادهم، وكان هذا عين الغلط من السلطان الذى أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباى دوادار سكين ويظهر له من أمر ابن عثمان ما

يعتمد عليه، فلما وصل الأمير كرتباى عينتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح وأنه بهدل مغلباى ووضعه فى الحديد وقصد شنقه حتى شفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحها، فلما تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عينتاب فهرب نائبها، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهنا وكركر غير ذلك من القلاع، فلما وصل كرتباى بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة.

ثم إن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال الباغى ابن عثمان، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون إلى القتال، والذى يريده الله تعالى هو الذى يكون.

اتضاح حقيقة أمر سليم بن عثمان :

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار، وذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين فى شعبان، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين وهو فى حال لنحس، يزمط أقرع على رأسه، وهو لابس كبر عتيق دنس، وراكب على إكديش ذيل،

وقد نُهب بركه وأخذت خيوله وقماشه، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقال له: قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق، وأخبر أنه وضعه فى

الحديد وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدلة ما لا خير فيه. فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان، فقيل إنه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش وبرك فى نظير ما ذهب له.

الرحيل إلى مرج دابق :

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر وركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها. - فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان فصلى السلطان صلاة الصبح ثم ركب وتوجه إلى رغزغين وتل الفار، وقيل هناك مشهد نبى الله داود عليه السلام، فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء على كتفه طبر، وصار يرتب العساكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين على ميمنته وهو بتخفيفه وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان، وعلى رأسه الصنجق الخليفتى.

وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس حرير أصفر على رءوس جماعة أشراف، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم : خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدى

أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفتى، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة[1] بأعلام سود،

وكان الصبى قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفا بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وكان الصنجق السلطانى واقفا خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب.

وصف معركة مرج دابق:

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق، فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان،

وكانت النصرة لعسكر مصر أولا، ويا ليت لو تم ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان: لا تقاتلوا شى وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكى سودون العجمى قد قتل فى المعركة، وقُتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام، فانهزم من فى الميمنة من العسكر.

---

(١) وما شأن خادم السيدة نفيسة وخليفة البدوى بالحروب .

خيانة خاير بك :

ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، وأسرالأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قُتل، ويقال إن خاير بك نائب حلب كان موالسا على السلطان فى الباطن، وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة.

استغاثة السلطان :

وكان ذلك خذلانا من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر، فصار السلطان واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك، فشرع يستغيث للعسكر: يا أغوات هذا وقت المروة قاتلوا وعلىّ رضاكم. فلم يسمع له أحد قولا وصاروا ينسحبون من حوله شيئًا بعد شىء،

فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر، فانطلق فى قلبه جمرة نار لا تطفى، وكان ذلك اليوم شديد الحر، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لايرى بعضهم بعضا، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغُلت أيديهم عن القتال.

نصيحة الفرار وشلل السلطان ووفاته:

فلما اضطربت الأحوال، وتزايدت الأهوال، فخاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق فأنزله وطواه وأخفاه، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب. فلما

تحقق السلطان ذلك نزل عليه فى الحال خلط فالج أبطل شقته وأرخى حنكه، فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة ذهب، فشرب منه قليلا وألفت فرسه على أن يهرب، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهرة، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته، على ما قيل من هذه الإشاعة. فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله.

اختفاء جثة السلطان :

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر، ولا وقف له أحد على أثر ولا ظهرت جثته بين القتلاء، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته فى الحال، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر، فداسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول، وفُقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء.

ووقع النهب فى عسكر مصر، وزال مُلك الأشرف الغورى على لمح البصر فكأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير، بعدما تصرف فى مُلك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فإنه ولى ملك مصر فى مستهل شوال سنة ست وتسعمائة، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك.

خلاصة ما حدث :

وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إى بعد الظهر، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقُتل فى تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالا يحصى عدده، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكى سودون العجمى وبيبرس قريب السلطان وأقباى الطويل، وأسر قانصوه بن سلطان جركس وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء سبلخانات وعشرات وخاصكية، وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة،

ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل، فإنهم لم يقاتلوا فى هذه الوقعة شيئًا، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة، وقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى ضبطه . وقتل من أمراء مصر ومات تحت صنجقه فى يوم الحرب، وانكسر على هذا الوجه أبدا، ولا سمع بمثل ذلك، ونهب ماله وبركه بيد عدوه، غير قانصوه الغورى، وكان ذلك فى الكتاب مسطورًا. وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف، فردت عليه أعمالهم ونياتهم وسلط الله تعالى عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ماجرى.

استيلاء ابن عثمان على حلب :

ثم إن ابن عثمان تحول عن مرج دابق ودخل إلى حلب فملكها من غير مانع، فنزل بالميدان الذى بها فى مكان كان به السلطان، فهذا ما كان من أمر السلطان وابن عثمان. وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فإنهم

توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول بها، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم وودائعهم التى كانت بحلب، وجرى عليهم من أهل حلب ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان، وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجوا قبل ذلك صحبة قانى باى أمير آخور كبير، فنزلوا فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر لأهل حلب، فما صدقوا أهل حلب بهذه الكسرة التى وقعت لهم فأخذوا بثأرهم منهم. فلما رأوا الأمراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا إلى دمشق،

فدخلوها وهم فى أنحس حال لا برك ولا قماش ولا خيول، ودخل غالب العسكر إلى الشام بعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل، وبعضهم عربان وعليه عباءة أو بشت، ولم يقع لعسكر مصر كاينة قط أعظم من هذه الكاينة،

فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر فى الشام حتى يتكاملوا البقية ويظهر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميرا. وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى، وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه، فكانت ساعة يشيب منها الوليد، ويذوب لسطوتها الحديد، فصار فى مرج دابق جثث مرمية وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة فى التراب قد تغيرت محاسنها، وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى بروح مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستونات فولاذ وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك.

صفة السلطان سليم :

كان السلطان سليم مربوع القامة، واسع الصدر، أقنص العنق، مكرفس الأكتاف، فى ظهره جنيه، مترك الوجه، واسع العينين، ذرية اللون، وافر الأنف، ملئ الجسد، حليق اللحية ليس غير الشوارب، كبير الرأس، عمامته صغيرة دون عمايم أمرائه. فلما ملك حلب سلموه أهلها المدينة بالأمان وهرب قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب وتوجه إلى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل إليها شخصا من جماعته،

وهو أعرج أجرود وفى يده دبوس خشب. فطلع إلى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا يرده، فختم على الحواصل التى بها واحتوى على مافيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك. وقد فعل ابن عثمان أباحة أنه أخذ قلعة حلب بما فيها بشخص أعرج وفى يده دبوس خشب وهو أضعف من فى عسكره.

أخبار الخائن خاير بك :

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن هو خاير بك نائب حلب، فإنه أول من كسر عسكر السلطان هو ، وهرب عن ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه إلى حماة، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة أمرائه، ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة، وقصص ذقنه، وسماه ابن عثمان خاين بك، كون أنه خان سلطانه وأطاع بن عثمان فسماه بذلك،

فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان. وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المسعتصم بالله وملك

هولاكو، ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين عند هولاكو، ثم أقلب عليه وقتله وصلبه وقال له : أنت ما كان فى وجهك خير لأستاذك يكون فى وجهك خير لى، وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك.

أخبار القاهرة بعد المعركة:

ومن هنا نرجع إلى أخبار القاهرة بعد هذه الحركة، فإنه ما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من أمر هذه الوقعة وقتل الأمراء، فقام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى[1] سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب، وكان يعرف بسودون من جانى بك، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية، منها أمرية مجلس وأمرية السلاح والأتابكية[2].

وأظهر الفروسية فى هذه الوقعة، واستمر يقاتل حتى قتل من على ظهر فرسه رحمة الله عليه.

فقام نعى السلطان فى ذلك اليوم، ونعى الأمراء الذين قتلوا فى هذه الوقعة، وصار فى كل حارة نعى بسبب من قتل من العسكر، ورجت القاهرة فى ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقيل بالقاهرة.

العربان ينهبون:

وفى يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعايم نهبوا ضياع الشرقية، وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس من الغنم منها للسلطان والدوادار، ودخلوا وادى العباسة، فلما بلغ الأمير

---

(١) الأتابكى : قائد العساكر .

(٢) الأتابكية : قيادة الجيش .

الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج إليهم وصحبته خمسمائة مملوك وكبس عليهم، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشى والغلال وغير ذلك، فرجع الأمير الدوادار إلى داره. ـ وفيه أخلع الأمير الدوادار على الزينى بركات بن موسى وشق القاهرة، وأشهر النداء بالأمان والإطمئنان وأن المشاهرة والمجامعة بطالة وجميع المظالم الحادثة بطالة، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتمى أحد عليه، وقد تضاعفت حرمته وتنافذت كلمته فوق ما كان واجتمع معه عدة وظائف سنية، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده. ـ وفى يوم الاثنين ثامن عشرة نفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذى بالقاهرة، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ونفق الجامكية هناك، والإشاعات قائمة بموت السلطان والأحوال مضطربة.

الإفراج عن السجناء :

وفيه رسم الأمير الدوادار بعرض من فى السجون حتى النساء التى بالحجرة، فلما عرضهم أفرج عن جماعة كثيرة منهم: جانى بك دوادار الأمير طراباى وكان له مدة وهو فى المقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان متحدثا فى نظر الديوان المفرد، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان له مدة وهو فى المقشرة على مال من بقايا مصادرة، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين، وأفرج عن صلاح الدين بن كاتب غريب بن أخى أبى الفضل،

وأفرج عن المعلم شنشوا الذى كان يهوديا وأسلم وأفرج عن المعلم يعقوب الصغير اليهودى معلم دار الضرب، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين والأعيان ممن كانوا فى السجون، وأفرج عن النساء التى كانوا

بالحجرة، ولم يبق فى السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم، ولم يترك بالسجون إلا القليل ممن قتل أو سرق وقطع أيدى جماعة وأطلق، ثم أمر بتوسيط جماعة من المجرمين منهم شخص يسمى عبد القادر أبو أُدية وآخرين منهم، وقطع أيدى جماعة من الحرامية. ثم أفرج عن الشيخ صلاح الدين بن أبى السعود بن القاضى إبراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة، وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم، فأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه،

وكان سبب ذلك أن شخصا يقال له إبراهيم السمرقندى رافعه عند السلطان على أنه لقى خبية فى مكة لبعض التجار فيها مال جزيل، فأرسل السلطان أحضره على غير صورة من مكة، فلما حضر قال له : المال الذى لقيته.

تحول الولاء إلى ابن عثمان :

وفى رمضان دخل قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركة وكل ما يملكه، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة وخطب باسمه فيها، ومشى حكمه من الفرات إلى حلب، وأخبر أن الخيفة والقضاة الثلاثة فى الأسر عند ابن عثمان بحلب، ولولا هرب محمود مع العسكر وإلا كان أسر معهم، وأخبر أن إبراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقشى الذين كانوا من أخصاء السلطان الغورى، فلما مات التفوا على سليم شاه بن عثمان، وصاروا من جماعته وصاروا يتقربون إلى ابن عثمان بمرافعة جماعة الغورى،

ولم يتذكروا شيئًا من إحسان الغورى لهم، ولا سيما ما أحسنه الغورى إلى العجمى الشنقشى من سلاريات وشق وسمور ومال وإنعامات جزيلة فلم يثمر معهم إحسانه لهم، فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى بأن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى، فتوجه الوالى إليهم وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادل وحريمهم وحاشيتهم، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى، وظهر أنهم كانوا موالين على السلطان، وكانوا يكاتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة، وصاحب البيت أدرى بالذى فيه.

صفة السلطان القتيل :

كانت مدة سلطته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون جهورى وكانت صفته طويل القامة غليظ الجسد ذو كرش كبير، أبيض اللون، مدرر الوجه، مشحم العينين، جهورى الصوت مستدير اللحية، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلا. وكان ملكا مهابا جليلا مبجلا فى المواكب ملىء العيون فى المنظر، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال كان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة.

وكان يركب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطانى، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان، فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش ومياتر زركش. وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجور بالسروج البداوى والركب العراض. وكان يشد فى وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكى. وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد

والماس عين الهر. وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور. وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه، ويحب رؤية الأزهار والفواكه، ويميل إلى أبناء العجم، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم.

وكان مولعا بغرس الأشجار، وحب الرياضات، وسماع الأطيار المغردة، ونشق الأزاهر العطرة والبخور. وكان يستعمل الأشياء المفرحة، وكان نهما فى الأكل، وكان يغوى طيور المسموع، وكان يُعرف بقانصوة من بيبردى الغورى. واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمى التى لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك، وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً.

محاسنه ومساوئه:

وكان للغورى محاسن ومساوىء لكن مساوئه أكثر من محاسنه، فأما ما عُد من محاسنه فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد فى الصالحين والفقراء، ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية، وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار، وكان قريبا من الناس يحب المزاج والمجون فى مجلسه غير كثيف الطبع فى ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك

ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالهم.

المساوىء :

وأما ما عُد من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى، منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدث فى سائر الدول من قبله، ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز فى ملة من الملل، ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون: علينا مال السلطان، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك،

وقرر على دار الضرب مالا له صورة فى كل شهر فكانوا يصنعون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا، فكان الأشرفى الذهب إذا وصفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا، قد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين فلعب فى أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم، فلما شنق جمال الدين قرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى فمشى على طريقة جمال الدين، وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر، فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته إلى أن مات،

وقد ورد فى الحديث الشريف : من غشنا فليس منا. ومن مساوئه أنه كان

سجن الريس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة، وأقام بها أياما، وكان من المقربين عنده. ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلما، ولو كان للميت أولاد ذكور وإناث فيمنعهم من ميراثهم، ويخالف أمر الشرع الشريف.

ومنها أنه كان يولى الكُشَّاف ومشايخ العربان على البلاد، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة، فتفرده الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف، فيأخذ كل منهم المثل أمثال، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد. وكذلك كان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير.

المبالغة فى الضرائب الجمركية:

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة وآل أمره إلى الخراب، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع، وأخرب البندر، وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج. وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل أردب، وهى ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى، وكذلك على

البطيخ والرمان، حتى حرج على بيع الملح. وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النمط ما لا فعله هناد فى زمانه. ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله،

ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحليبى التاجر وغيره من التجار. وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مالا له صورة، ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه. وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال، منهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السركان، ومنهم شمس الدين بن عوض، ومعين الدين بن شمس، وعلم الدين كاتب الخزانة، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال، ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات.

المنشآت :

وأما ما أنشأه من العمائر التى بالقاهرة، فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما فى الشرابشيين، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ومن إنشائه المأذنة التى أنشأها فى الجامع الأزهر وهى برأسين، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع. وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى، وجدد عمارة خان الخليلى وأنشأ به الحواصل والدكاكين. وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين، وكذلك الربعين التى بين الصورين والطاحون عند المصبغة. وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين لولده وتناهى فى زخرفه، وأنشأ هناك ربعا ووكالة، وأنشأ الميدان الذى تحت القلعة، ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية، وأجرى إليه ماء النيل من سواقى نقالة، وأنشأ به المناظر والبحرة والمقعد والمبيت برسم المحاكمات.

وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة. وجدد غالب عمارة القلعة منها الدُهيشة، وقاعة البيسرية، وقاعة العُواميد، وقاعة البحرة، وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش، وجدد عمارة المطبخ الذي بالقلعة، وجدد عمارة القصرالكبير الذي بالقلعة، وسائر البيوتات التي بها، وجدد عمارة سبيل المؤمنى وجعل سقفه عقود بالحجر. وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم. وأنشأ سوقا للرقيق بالقرب من خان الخليلي.

وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع[1] وبناء بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنيا بالطوب اللبن. وأنشأ المجراة ونقلها من درب الخولي إلى موردة الخلفاء. وجدد عمارة المقياس، وأنشأ به القصر على تلك البسطة التي كانت بها، وأنشأ بها المقعد المطل على البحر، وأنشأ على أبوابه قصرين، وجدد عمارة قاعة المقياس، والجامع الذي هناك. وجدد عمارة قنطرة بني وائل، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الحاجب، وقنطرة الخروبي وعلاها حتى صارت المراكب تدخل من تحتها، وجدد عمارة قناطر السباع. وأنشأ المصاطب وعليها الدعائم عند قلعة الأمير يشبك التي بالمطرية. وأنشأ بالطينة على ساحل البحر الملح قعة لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة. وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر. وجدد عمارة أبراج الإسكندرية.

وأصلح طريق العقبة. ودوار حقف، وأنشأ هناك خانا بأبراج على بابه، وجعل فيه الحواصل لأجل ودائع الحجاج، وأنشأ في الأزنم أيضًا خانا وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع

(١) السيدة زينب.

من مناهل الحجاج. وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا المجاورين والمتقطعين هناك، وأجرى عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين. وأنشأ بجدة سورا على ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج، وجاء هذا السور من أحسن المبانى هناك. وأنشأ على شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سوراً وأبراجا منيعة. وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين. - وفى الجملة إن السلطان الغورى كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه، ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه فى أفعاله ولا علو همته ولا عزمه فى الأمور، وكان كفئا تاما للسلطنة، مبجلا فى المواكب تملأ منه العيون.

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر

طومان باى من قانصوه النا صرى

ثبت موت السلطان الغورى ورجعت الأمراء من التجريدة فوقع الاختيار منهم على سلطنته، فامتنع من ذلك غاية الامتناع، والأمراء تقول له : ما عندنا سلطن إلا أنت، وهو يمتنع من ذلك. ثم ركب هو والأمير علان، وجماعة من الأمراء المقدمين وتوجهوا إلى كوم الجارح عند الشيخ سعود، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك، فتعلل طومان باى عن السلطنة بأنواع من العلل، منها أن خزائن بيت المال ليس فيها درهم ولا دينار، فإذا تسلطن ما ينفق على العسكر شيئًا ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف على مصر، وأن الأمراء لا يطاوعون على الرجوع إلى السفر ثانيا، ومنها أنه إذا تسلطن يغدرون به ويركبون عليه ويخلعونه من السلطنة ويرسلونه إلى السجن بثغر الإسكندرية، ولا يبقونه فى السلطنة إلا مدة يسيرة.

ثم إن الشيخ سعود أحضر بين يدى الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الذين جاءوا بصحبته، وحلفهم عليه بأنهم إذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتنا وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف بمعنى ذلك. فلما تحالفوا ترشح أمر الأمير طومان باى إلى السلطنة، وانفض المجلس على ذلك، وتوجهوا الأمراء إلى بيوتهم.

بداية الحكم :

تسلطن الأشرف طومان باى وله من العمر نحو ثمانية وثلاثين سنة. فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة، وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى، فأقبض عليه شعار الملك وتلقب بالملك الأشرف مثل قرابته الغورى. ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب، ولا وجدوا له فى الزردخاناه لاقبة ولا طبر ولا الغواشى الذهب، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة، والخليفة قدامه، فطلع من باب سر القصر الكبير، وجلس عى كرسى المملكة، وقبلوا له الأمراء الأرض، ودقت له البشائر بالقلعة، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته، وكان محببا للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر.

فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره فى موكب حافل. وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن، فسبحان من لايزول مُلكه ولا يتغير على طول المدى.

ويوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصرى محمد بن يلباى المؤيدى حاجب ميسرة بدمشق، وأخبر أن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينة دمشق،

وملك قلعتها وقتل على باى الأشرفى نائب القلعة، وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام، وحضر ابن يلباى هذا وهو فى زى العرب بشت وزمط على رأسه. فلما أشيعت هذه الأخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس فى أمر مريب بسبب ذلك، وقالوا : ما بقى بعد أخذ الشام إلا مصر، وجزموا بهذا الأمر وعول بعض الناس من أهل مصر على الهروب إلى جهة الصعيد فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر، ولا سيما كانت ليلة عيد الفطر والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر، والأنعة قائمة بسبب من قتل من العسكر.

أخبار غريبة عن سليم بن عثمان :

وفى يوم الاثنين ثامن شوال حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى باى الأحدب، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل إلى الشام تلاشى أمره، ووقع الوخم فى عسكره فصار يموت منهم فى كل يوم جماعة، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف، وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتبن، وكل من خرج من عسكره إلى الضياع قتلوه العرب، وقد تجون بدخوله إلى الشام، فلا بقى يمكنه الخروج منها، وصارت خيول عسكرهم سائبة تاكل من ورق الأشجار وهو فى غاية الحصر.

حادثة الزينى بركات :

وفى يوم الثلاثاء تاسعة كانت كاينة الزينى بركات بن موسى مع الشيخ سعود، سبب ذلك أن شخصا مدابغيا يبيع الجلود يقال له الدمراوى مكاسا على بيع الجلود، فجار عليه ابن موسى، فوقع بينه وبين ابن موسى، فقصد ابن

موسى يقبض عليه، فتوجه الدمراوى إلى عند الشيخ سعود واحتمى به، فأرسل إليه الشيخ سعود رسالته بسبب الدمراوى قد شفع فيه، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت إلى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى، فأرسل الشيخ خلف ابن موسى، فلما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام، وقال له : يا كلب كم تظلم المسلمين؟ فحنق منه ابن موسى وقام على غير رضى، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال، فصفوه بالنعال على رأسه حتى كاد يهلك، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير، فلما حضر قال له : أوضعه فى الحديد واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأن يؤذى المسلمين. فلما طلع الأمير علان وشاور السلطان فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ سعود، فأرسل السلطان يقول للشيخ سعود: مهما اقتضاه رأيك فيه افعله. فلما رد الجواب على الشيخ بذلك فأمر الشيخ بإشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقونه على باب زويلة، فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد وينادى عليه: هذا جزاء من يؤذى المسلمين.

فتوجهوا به من كوم الجارح إلى ساحل البحر من مصر العتيقة وهم ينادون عليه إلى أن وصل إلى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية، فأراد أن يوقع فيه فعل بشنق أو تغريق، ثم عاودوا الشيخ فى أمره، بأن عليه مالاً للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله، فعفى الشيخ عنه من القتل، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكن من أمره ما يكون، وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ سعود، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكاينة على الهلاك وذهاب الروح.

المصادرة :

ولما جرى لابن موسى ما جرى ظهر غريمه شهاب الدين بن الصايغ وكان يسمى عليه فى أيم الغورى، فلما وقعت هذه الكاينة لابن موسى انتدب إلى مرافعته ابن الصايغ وقال : أنا أثبت فى جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار. ثم إن ابن الصايغ توجه إلى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقواسة وجماعة كثيرة، وكبس على نساء ابن موسى الاثنتين وقبض عليهن ونهب مافى بيوتهن من قماش وأمتعة، وقبض على عبيده وغلمانه وحاشيته، فلما رأى السلطان قد حل فى أمره توقف عن ماكان فيه من أذى ابن موسى، ثم إن ابن موسى قال : أنا أثبت فى جهة ابن الصايغ مئتى ألف دينار. وقال للأمير علان : أرسل خلف ابن الصايغ وأودعه فى الحديد حتى يعمل حسابه، فلما حضر ابن الصايغ وضعه الأمير علان فى الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى. وأما ما كان من أمر الشيخ سعود فإنه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه الدايرة والأشلة وأنكروا عليه الناس والفقراء وقالوا: إيش للمشايخ شغل فى أمور السلطنة، واشتغلت الناس به ولم يشكره أحد على مافعله بابن موسى.

غرق سفن حملة الهند :

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة - وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك، وأن قد وقع بين الريس سلمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدة. وأن كلا منهما توجه إلى جهة من جهات الهند ولم يعلم له خبر.

القبض عى الجواسيس:

وفيه أرسل السلطان قبض على جماعة من الأروام الذين فى خان الخليلى، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة وعندهم جواسيس لابن عثمان، فأرسل قبض عليهم ووضعهم فى الحديد.

حيلة خاير بك:

وفى يوم الأربعاء تاسع ذى القعدة حضر دوادار خاير بك نائب حلب وزعم أنه قد فر من ابن عثمان، فأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة، بل أشاعوا أخذها، وأن نائب غزة قد هرب.

فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار وتنكد السلطان إلى الغاية، ونادى فى ذلك اليوم بأن العسكر المعين للسفر ممن أخذ النفقة يخرجون فى ذلك اليوم من غير تأخير، ومن تأخر لا يسأل ما يجرى عليه. - فلما كان يوم الخمس عاشرة خرج العسكر على وجههم مسرعين، وأشيع سفر السلطان بنفسه وأنه هو الذى يلاقى ابن عثمان، وصحبته الأمراء قاطبة وسائر العسكر. وحضر صحبة دوادار نائب حلب أمير كبير غزة وهو فى الحديد، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة وهم فى الحديد، وأرسل نائب غزة يرافع فيها بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر إلى غزة ويملكها من غير مانع. فلما حضروا بنى يدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان وإنما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة، فصدقهم السلطان على ذلك، وأرسل جان بردى الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرؤهم مما قالوه فى

حقهم بالباطل، ففكهم السلطان من الحديد إلى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم. - وفى يوم الخميس المقدم ذكره أخلع السلطان على الأمير يوسف البدى الذى كان وزيراً وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال، عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انفصاله عنها.

الاستعداد للقتال :

وفى يوم السبت ثانى عشرة جلس السلطان على التكة بالحوش وحضر الأمراء، فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طُقطباى حاجب الحجاب: أناعزمت على السفر إلى البحيرة . وكان السلطان جعله متحدثا فى كشوفية البحيرة، فقالوا الأمراء : الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من البحيرة وأنت ماخرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ولا نُهب لك برك ولا قماش. فتعلل أنه ضعيف. فحص بينه وبين الأمراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان، وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا ينهبوا بيته ويحرقوه، وقيل إن بعض المماليك لكمه، وقاسى من البهدلة مالا خير فيه، فتقرر الحال على أنه يخرج إلى التجريدة صحبة الأمراء، ومنع السلطان المماليك من نهب بيته. - وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة.

و صف الجيش :

وفى يوم الأحد ثالث عشرة جلس السلطان بالميدان وعرض العسكرالذى كان مسافرا فى التجريدة، فكتبهم إلى السفر ثانيا ولم يترك منهم إلا القليل، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك. ثم فى ذلك اليوم عرض السلطان عجلات من خشب تجرها أبقار وفيها رماة بالبنذق

الرصاص، فكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك، وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورجال يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال، وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب، فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال.

وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه إلى قتال ابن عثمان، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة، ولم ينفق على الأمراء شيئًا، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا على أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار وأنا واحد منكم إن خرجتوا خرجت معكم وإن قعدتوا قعدت معكم وما عندى نفقة لكم.

حبس الزينى بركات :

وفى يوم الاثنين رابع عشرة جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق. - وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى، وأعاده إلى الترسيم بعدما كان ترشح أمره إلى إعادته إلى وظائفه، وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما تقدم ذكره قرر عليه مالاً فلم يرد منه إلا اليسير وادعى العجز فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ضيق على أصحاب المصادرات، منهم : ابن موسى ومحمد المهتار وجمال الدين بواب الدهيشة، وآخرون ممن عليهم بواقى الأموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر، ومن حين قرر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى تلاشى أمر ابن موسى وآل أمره إلى العكس والزوال.

القبض على بائع لحم الكلاب :

وفى يوم الخميس سابع عشرة خرج الأمير ألماس والى القاهرة وبرز إلى

السفر فى ذلك اليوم، وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك فى قناطر السباع، فوجدوه قد عمد إلى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وصنع منه السنبوسك، فلما قبّضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير ماماى المحتسب، فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته بحبل، فطافوا به هو ورفيقه فى المدينة ثم سجنوهما فى المقشرة، ولم تزل الأعجام يقع منهم هذه الأفعال الشنيعة من قبل ذلك.

حضور وفد ابن عثمان :

وفى يوم الاثنين حادى عشرة وقع فيه من الحوادث أن بعض المماليك السلطانية خرجوا يسيرون إلى نحو المطرية، فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحجاج، فلما قربوا منهم فإذا هم من جماعة ابن عثمان، فقالوا لهم : من إنتوا. فقالوا نحن قُصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان، وكانوا نحو خمسة عشر إنسانًا، وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخمل، ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى، فلما قُتل وملك ابن عثمان حلب والشام تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى،

فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسروا يجُوا من على غزة، فإن نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزة، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق غير الدرب السلطانى، وطلع بهم من على التبة وأتوا بهم إلى عجرود، فما شعروا بهم أهل مصر إلا وهم فى وسط المدينة، فلما صدفوهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد وعلى جماعته وعلى ابن محاسن ووجدوا معهم ثلاثة من

العربان فقبضوا على الجميع. فبينما هم على ذلك فرأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا إليهم وسلموا عليهم وباسوا أيديهم، فقبضوا عليهم هؤلاء المماليك، وقالوا لهم: من أين علمتوا أن هذا القاصد يجى اليوم حتى أتيتوا إليه ما إنتوا إلى جواسيس من عند ابن عثمان. فقبضوا عليهم بعدما أشبعوهم ضربا وأتوا بالكل إلى بيت الأمير علان الدوادار الكبير.

فلما دخل القاصد إلى بيت الأمير علان، قالوا له : انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار. فلم يوافق على ذلك وأغلظ عليهم فى القول، ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار، فلما رأى الدوادار ذلك رسم للمماليك أن ينزلوه من على فرسه غصبا، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية وضربوهم وصكوهم وعروهم من أثوابهم، ووضعوهم فى الحديد بعدما قد قاسوا غاية البهدلة من جماعة الدوادار، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للأمير ومغلباى دوادار سكين، الذى كان السلطان الغورى أرسله إلى ابن عثمان وحصل منه فى حقه غاية البهدلة، فقال له السلطان : انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك. فأخذ خشداشينه وتوجه بهم إلى بيت الأمير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدلة أو يقتلونهم فما مكنهم الأمير علان من ذلك.

كلام مندوب ابن عثمان :

ثم قبضوا على عبد البر ابن محاسن الذى حضر صحبتهم، فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمته، فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل إلى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائه رأس من جماعة أهل مصر، من جملتهم خليفة أحمد البدوى وآخرون من الأعيان ممن تخلفوا

بحلب، وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق ستين ألف مقاتل، وأنه خُطب باسمه من بغداد إلى الشام على المنابر، وأن معاملته فى الذهب والفضة ماشية من بغداد إلى الشام، وأنه لما دخل إلى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق، وجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة وهو فى همة زائدة ويقول : ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة.

وأخبر أن ابن عثمان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها، ففى هذه المدة يفتك عسكره فى المدينة ويتجاهرون بأنواع المعاصى والفسوق، وأنهم لا يصومون فى شهر رمضان ويشربون فيه الخمر والبوزة، ويستعملون فيه الحشيش والشخيب، ويفعلون الفاحشة بالصبيان المردُ فى شهر رمضان، وأن ابن عثمان لا يصلى صلاة الجمعة إلا قليلا.

سجن المندوب :

وقد أشيع عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة من غير ابن محاسن، ممن يشاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام، فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان حنق منه السلطان وقال له : أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك. فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة فسجن به، وأقام أياما حتى طلع الأتابكى سودون الدوادارى وشفع فيه حتى أطلقه من البرج، وقد قطع قلوب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان. ثم إن السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخفية عنهم.

وأشيع أن حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا فاختفوا في القاهرة، فلما بلغ السلطان ذلك نادى في خان الخليلي بأن أحدا لا يأوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان ومن غُمز بأن عنده أحدا من العثمانية شنق على دكانه من غير معاودة.

قراءة رسائل ابن عثمان :

ثم إن السلطان أرسل أخذ المطالعات الذى حضروا على يد القاصد ولم يقابله، فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية. فالذى أشيع عن مطالعة السلطان غالب ألفاظها باللغة التركية، فكان مضمونها: من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان باى، أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إلى بأن أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين.

ومن جملة المطالعة وعد ووعيد وتشديد وتهديد ومن جملة ذلك : إنك مملوك منباع مشترى ولا تصح لك ولاية، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع. وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط: وأنى أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغورى، فاحمل لى خراج مصر فى كل سنة كما كان يُحمل لخلفاء بغداد.

واحتفل حتى قال : أنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين. ثم ذكر فى أثناء المطالعة: وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فأضرب السكة فى مصر باسمنا وكذلك الخطبة، وتكون نائبا عنا بمصر، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا

أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذى فى بطنها من الأتراك. وأظهر التعاظم وقوة البأس ولعل الله تعالى أن يخذله بسبب هذا التعاظم الزائد. وفى آخر مطالعته: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. فلما قُرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب، وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنهم إذا طلع القاصد إلى القلعة يقطعونه بالسيوف، فلم يطلع إلى القلعة بسبب ذلك.

تأثير الرسائل فى الناس :

فلما أشيع بين الناس بما فى مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة مما تقدم ذكره، اضطربت أحوال الديار المصرية وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان، وقالوا : مثلما طرقتنا قصاده على حين غفلة كذلك يطرقنا هو أيضاً على حين غفلة.

فشرع الناس فى تحصيل أماكن فى أطراف المدينة وجوانبها ليختفوا فيها إذا دخل ابن عثمان إلى مصر، وبعض الناس عول على أنه ينزل فى مراكب هو وعياله وأولاده ويتوجه بهم إلى أعلا الصعيد إذا تحقق مجئ ابن عثمان. وأشيع أن خايرك بك نائب حلب الذى عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان، أرسل مطالعات إلى بعض الأمراء المقدمين وهو يرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان، وشرع يطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية وأنه إذا دخل إى مصر يبقى كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه، وكل هذا حيل وخداع حتى يتمكن من الدخول إلى مصر.

رواتب الجند :

ثم أن السلطان نادى للعسكر بأن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشرين الشهر، فجلس السلطان بالحوش على التكة وطلع العسكر ليقبض النفقة، فلما طلعوا نفق عليهم لكل مملوك ثلاثين دينار وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا. فأرموا تلك النفقة فى وجهه، وقالوا : ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك فإننا لم يبق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح.

فنزلوا كلهم من القلعة على حمية وهم على غير رضى، فحنق منهم السلطان وقام من على التكة وطلع إلى المقعد، وقال : ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك والخزائن فارغة من المال، وإن لم ترضوا بذلك قولوا لكم من تختارونه فى السلطنة وأنا أتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد.

فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان : إن كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من السلاطين، وإن رحت لعنة الله عليك، غيرك يجى يعمل سلطانا. فسمع ذلك بأذنه منهم، وأشيع أن السلطان قال للعسكر: إنتوا أخذتوا من السلطان الغورى مائة وثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئًا وكسرتوا السلطان وأخنيتوا به حتى قتل منكم قهرا.

فنزل العسكر من القلعة على غير رضى، وأشيع إثارة فتنة بين العسكر. ثم أن فى ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصاغر، وجميع العسكر من الخاصكية والجمدارية، يطلعون غدا، باكر النهار، فإن العرض عام، فانفض المجلس على ذلك.

إشاعة وصول ابن عثمان :

وفى يوم الأحد رابع ذى الحجة وقعت حادثة مهولة، وهو أن السلطان نزل إلى الميدان، واجتمع الأمراء والعسكر، فلم يشعروا إلا وقد قامت ضجة كبيرة فى الرملة، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى الريدانية، فقال السلطان للعسكر : كم نقل لكم أخرجوا لتجريدة ما ترضوا تسافروا، فاخرجوا لاقوا ابن عثمان. فلبس العسكرآلة الحرب، وركبوا قاطبة ، ورُجت القاهرة رجا مهولا ووزع الناس قماشهم فى الأماكن المخيفة.

فلما اضطربت الأحوال وركب العسكر فتوجهوا إلى الريدانية فلم يروا هناك أحدا من العثمانية، فرجع العسكرإلى بيوتهم بعدما ارتجت القاهرة وعولت الناس على أن يختفوا فى فساقى الموتى. ثم أسفرت هذه الواقعة على أن جماعة من العربان نزلوا من الجبل وأتوا إلى الريدانية، فأشاع الذى رآهم عن بُعد أنهم من العثمانية، فانتشرت هذه الأخبار فى القاهرة من غير سبب وفى ذلك اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلبَ وسلم القلعة إلى ابن عثمان من غير مشقة ولا محاصرة، فتغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة، فأقام به مدة ثم أفرج عنه فى ذلك اليوم.

استعراض الجيش :

وفى يوم الاثنين ثانى عشرة أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التى يرسلها صحبة العسكر، فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة، فكان عدتها مائة عجلة، وتسمى عند العثمانية

عربة، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص، فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا، وصار يرتب العجل فى مشيها فى الميدان، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة، ومحملة أيضًا بارود ورصاص وحديد ورماح خشب وغير ذلك، وقدام العجلات أربع طبول وأربع زمور وقدامها من الرماة نحو مائتى إنسان ما بين تركمان ومغاربة، وبأيديهم صناحق بعلبكى أبيض وكندكى أحمر، وهم يقولون : الله ينصر السلطان.

وجماعة من النفطية ما بين عبيد ونفطية يرمون بالنفط قدام العجلات وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير، ويوسف الزردكاش الثانى، وجماعة من الزردكاشية، وعبد الباسط ناظر الزردخانة، والشهابى أحمد بن الطولونى، وقدامهم الجم الغفير من النجارين والحدادين الذين تعينوا للسفر مع التجريدة، فخرجوا من باب الميدان إلى الرملة، ونزلوا من على القبو وشقوا من البسطيين، ودخوا من باب زويلة وشقوا من القاهرة، فرجت لهم فى ذلك اليوم القاهرة واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة، وكان يوما مشهودا، وارتفعت الأصوات من الناس بادعاء للعسكر بالنصر على ابن عثمان الباغى، وتباكت الناس لما عاينوا تلك العلجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه، فاستمروا شافقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا إلى الريدانية عند تربة العادل التى هناك. وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم، من شدة الإزدحام فى ذلك اليوم، فلما وصلوا بالعجل إلى تربة العادل صفوهم هناك إلى أن تخرج الأمراء، فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة.

أخبار خروج ابن عثمان إلى مصر:

وفى يوم الأحد ثامن عشرة ورد على السلطان أخبار ردية بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه وهو وعساكره وهو قاصد إلى مصر، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين، فرقة تجىء من على الدرب السلطانى، وفرقة تجىء من على التيه من مكان جاء منه القاصد الذى تقدم ذكره .

فلما بلغ السلطان هذا الخبر أرسل أحضر الأمراء وضربوا مشورة فى ذلك، وأشيع أن السلطان يخرج إلى الريدانية ويقيم بها ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتقدم إلى الصالحية وفرقة تتوجه إلى نحو عجرود.

وكانت الأمراء عولوا على أن يخرجون إلى التجريدة فى أول السنة الجديدة، فلما ورد عليهم هذه الأخبار اضطربت أحوالهم، ورسم لهم السلطان بأن يبرزوا خيامهم فى الريدانية بسرعة ويكونوا على يقظ فإن ابن عثمان وقد وصل إلى غزة وقيل إنه توجه يزور بيت المقدس ثم يمشى بعساكره على عسكر مصر، وقد كثر القال والقيل فى ذلك واضطربت أحوال الناس قاطبة إلى أين يذهبون من هذه الفتنة إلى حين تنقضى.

عدم انضمام المغاربة :

وفى يوم الاثنين تاسع عشرة جلس السلطان على التكية بالحوش، وطلع الجم الغفير من المغاربة، فلما طلعوا إلى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان وأرسل إليهم الأمير شاد بك الأعور، فقال لهم : السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف إنسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة. فأرسلوا يقولون للسلطان: نحن مالنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل إلا افرنج ما نقاتل مسلمين؛

وأظهروا التعصب لابن عثمان. فلما عاد الجواب على السلطان بما قالوه المغاربة فعز على السلطان ذلك وأرسل يقول لهم : إن لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان وإلا المماليك الجلبان يقتلوا كل مغربى فى مصر حتى ما يخلوا بها مغربى يلوح. فنزلوا من القلعة على غير رضى من السلطان.

عدم انضمام مقاتلى رودس :

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس أرسل إلى السلطان ألف رام من جماعتة يرمون بالبندق الرصاص ، وأرسل إلى عدة مراكب فيها بارود فدخلت تلك المراكب إلى ثغر دمياط ، وأرسلو يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عونة من صاحب رودس إلى سلطان مصر حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر ، فلم يظهر لإشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة وإنما هى إشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها . ولما خرج السلطان إلى الريدانية أشيع أنه يتوجه من هناك إلى الصالحية حتى يخرج العسكر قدامة يلاقى عسكر ابن عثمان ، فمنعوة الأمراء من التوجة إلى الصالحية وقالوا : ما يقع بيننا وبينه إلا فى الريدانية .

الاستعداد للحرب والخوف منها :

ثم إن التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من بعض الدكاكين التى فى الأسواق ويدخلون بها فى الأماكن المنسية حتى يسلم ، وما سلم فيها بعد . وفية تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلو إلى القاهرة وسكنو بها ، ونقل أعيان الناس قماشهم إلى الترب وإلى المدارس والزوايا والمزارات وإلى بيوت العوام التى فى الأربا ع لعله يسلم ، فما سلم فيما بعد ، وأشيع أن عسكر ابن

عثمان لما دخل إلى بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان والإطمنان ، وأن أحدا من العثمانية لا يشوش على أحد من أهل بلبيس ولا ما حولها من الضياع، فدعوا له أهل بلبيس والفلاحين قاطبة.

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى العركشة، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هناك فلم تمكنه الأمراء من ذلك، ولو لاقاهم من هناك لكان عين الصواب، فإن خيولهم كانت قد بطلت من الجوع، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خرج من الشام، وهم فى غاية التعب، فكان ربما يكسوهم قبل أن يدخلوا إلى الخانكة ويجدوا العليق والمأكل والمشرب والراحة من التعب، فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول إلى الخانكاه. ثم إن السلطان رسم للعسكر بأن يبات تلك الليلة قدام الوطاق وهم على ظهور خيولهم لابسون آلة الحرب، ولا يناموِن إلا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية، وقد اشتد الرعب فى قلوب الأتراك من عسكر ابن عثمان.

دخول مصر :

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ودخلوا إلى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان، وكذلك غالب فلاحين الشرقية وأهل بلبيس، فدخلوا القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية.

ثم إن العربان من السوالمة صاروا يقبضون على من يلوح لهم من العثمانية ويقطعون رءوسهم ويحضرونها إلى بين يدى السلطان، فيرسم السلطان

بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة. ـ ثم إن السلطان عرض العسكر بالريدانية وهم لابسون آلة الحرب، حتى عرض الأمراء المقدمين والأربعينات والعشرات، فحضرت الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزهور، وكان لهم يوم مشهود بالريدانية.

خروج السلطان إلى القتال :

ثم إن السلطان سير إلى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر قاطبة، فسير بهم ثم رجع إلى الوطاق وقدامه الطبول والزهور والنفوط، فامدت العساكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية حتى سد الفضاء. وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان إلى بلبيس رسم بحرق الشون التى فى بلبيس وما حولها، حتى الشون التى فى الخانكاه، فأحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفول، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا ينهبوها بسبب خيولهم فيتقوى بذلك العسكر على القتال. وفى هذه المدة صارت العربان تقطع رءوس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات، فيرسل السلطان يعلق تلك الرءوس على أبواب المدينة.

اقتراب جيش ابن عثمان :

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل ببركة الحاج، فاضطربت أحوال عسكر مصر وغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغير ذلك من أبواب المدينة قاطبة، وغلقت أسواق القاهرة وتعطلت الطواحين وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق. ثم إن السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان إلى

بركة الحاج، زعق النفير بالوطاق وركب العسكر قاطبة، وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات، وركب قاسم بك بن عثمان،

فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا، واجتمع من العساكر من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس، ودقت الطبول والزمور حربيا، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم، وصف العسكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية، فاجتمع هناك الجم الغفير من العسكر.

وكان السلطان طومان باى له همة عالية فى هذه الحركة، لو كان السلطان الغورى حيا ما كان يثور ببعض ما ثار به السلطان طومان باى، لكن لم يعطه الله تعالى النصر على ابن عثمان، فلم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ولم يبرز كل منهما إلى غريمه فى ذلك اليوم، فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رءوس من العثمانية ، ويرسلون يعلقونها على أبواب المدينة.

المعركة :

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة، فيه وقعت كاينة عظيمة، تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب، وتضل لهولها الآراء عن الصواب، وما ذاك إلا أن السلطان طومان باى لما توجه إلى الريدانية ونصب بها الوطاق، فحصن الوطاق بالمكاحل والمدافع، وصف هناك الطوارق، وصنع عليها تساتير من الخشب، وحفر خندقا من الجبل الأحمر إلى غطان المطرية، وقد تقدم القول على ذلك.

ثم إن السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها ركايب فيها

عليق، وعلى أقتابها صناجق كبار بيض وحمر يخفقون فى الهواء، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وأن الحصار يقيم مدة طويلة، فجاء الأمر بخلاف ذلك. فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام بها إلى يومين، فلم يجر السلطان طومان باى أن يتوجه إليهم، ولو توجه إليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب.

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر، فلما بلغ السلطان طومان باى زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم،

فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق، فقتل من العثمانية مالا يحصى عددهم، وقتل سنان باشاه لالاء ابن عثمان وكان أكبر وزرائه، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار. وقتل فى هذه المعركة ابن بن سوار، قتل فى الريدانية ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه تربة يشبك الدوادار، وكذلك قتل هناك سنان باشاه وزير ابن عثمان الأكبر.

إعادة التجميع والانتشار :

ثم إن العثمانية تحابوا وجاءوا أفواجا أفواجا، ثم انقسموا فرقتين، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية

فطرشوهم بالبندق الرصاص، فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم، وقتل من الأمراء المقدمين جماعة، منهم أزبك المكحل وآخرون منهم. وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا وقيل انكسر فخذه فاختفى فى غيط هناك، وجرح الأمير علان الدوادار.

فلم تكن الساعة يسيرة مقدار خمس درجات حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم، فلما تكاثرت عليه العثمانية، ورأى العسكر قد قل من حوله، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى وولى واختفى، قيل إنه توجه إلى نحو طرة، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر. وأما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الأحمر، فإنها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الأمراء والعسكر، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخام وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك. ثم نهبوا المكاحل التى نصبهم السلطان هناك، ونهبوا تلك الطوارق والتساتير الخشب والعربات التى تعب عليهم السلطان وأصرف عليهم جملة مال ولم يُفده من ذلك شىء، ونهبوا البارود الذى كان هناك، ولم يبقوا بالوطاق شيئًا لا قل ولا كثر، فكان ذلك مما جرت به الأقدار والحكم لله الواحد القهار.

هدم السجن وإخراج السجناء :

ثم إن جملة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق، دخلوا إلى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة، فتوجهوا جماعة من العثمانية إلى المقشرة (السجن) وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس، وكان بها جماعة

من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية فاطلقوهم أجمعين، وأطلقوا من كان فى سجن الديلم والرحبة والقاعة أجمعين. ثم توجهوا إلى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه، وكذلك بيت يونس الترجمان، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار. ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش، وأخذوا عدة جمال من جمال الساقيين.

وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك، وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم إلى بعد المغرب، ثم توجهوا إلى شون القمح التى بمصر وبولاق فنهبوا ما فيها من الغلال. وهذه الحادثة التى قد وقعت لم تمر لأحد من الناس على بال، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار فى الأزل.

آخر أحداث عام ٩٢٢ هـ :

وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فيه دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة، فدخل وصحبته وزراء ابن عثمان ومن عساكره الجم الغفير، ودخل ملك الأمراء خاير بك نائب حلب، ودخل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل، القاضى المالكى محى الدين الدميرى، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى، وهؤلاء كانوا فى أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى. ودخل يونس العادلى، وخشقدم الذى كان شاد الشون بمصر وهرب من الغورى إلى بلاد ابن عثمان وكان سببا لهذه الفتنة العظيمة.

فلما دخل الخليفة دخل من باب النصر وشق من القاهرة وقدامه المشاعلية تنادى للناس بالأمان والإطمئنان والبيع والشرى والأخذ والعطا، وأن لا أحدا يشوش على أحد من الرعية، وقد غُلق باب الظلم وفتح باب العدل، وأن كل من كان عنده مملوك جركسى من مماليك السلطان ولا يغمز عليه شنق على باب داره، والدعاء للسلطان الملك المظفر سليم شاه بالنصر، فضج له الناس بالدعاء من العوام. فلم تسمع العثمانية من هذه المناداة، وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى بيوت الأرباع فى حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة، فاستمر النهب والهجم عمالا فى البيوت ثلاثة أيام متوالية، وهم ينهبون القماش والخيول والبغال من بيوت الأمراء والعسكر، فما أبقوا فى ذلك ممكن.

وفى ذلك اليوم خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة، وقد ترجم له بعض الخطباء، فقال : وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافح له فتحا مبينا، يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين. انتهى ما أوردناه من حوادث سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة.

بداية سيطرة السلطان سليم :

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فكان مستهل العام يوم السبت. ثم إن السلطان سليم شاه أرسل جماعة من الانكشارية وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النهابة من نهب البيوت، ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه وطاقه من ربكة الحاج ونصبه بالريدانية، وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب من فساقى الموتى ومن غيطان المطرية، فلما

يحضرونهم بين يدى ابن عثمان يأمر بضرب أعناقهم. ثم إن بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكى سودون الدوادارى، وأحضره بين يدى ابن عثمان، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام فوجده قد جرح وقد كسر فخذه وهو فى حالة الأموات، فاركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء وجرسه فى وطاقة وقصد يشهره فى القاهرة، فمات وهو على ظهر الحمار، وقيل حزوا رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق. ثم غُمز على الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة، فوجدوه مختفيا فى مكان فحزوا رأسه وعلقوها فى الوطاق.

وصاروا العثمانية يكبسون الترب ويقبضون على المماليك الجراكسة منها، وكل تربة وجد فيها مملوك جركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة من الحجازيين وغيرها ويعلقون رءوسهم فى الوطاق، فضرب فى يوم واحد ثلاثمائة وعشرين رأسا من سكان الصحراء، وقيل كان فيهم جماعة من الينابعة وهم أشراف، فراحوا ظلما لا ذنب لهم. وصاروا يكبسون الحارات ويقبضون المماليك الجراكسة من استطبلاتهم ويقبضونهم باليد ويتوجهون بهم إلى اوطاق بالريدانية فيضربون أعناقهم هناك، فلما كثرت رءوس القتلى هناك نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرها، حتى قيل قتل فى هذه الوقعة بالريدانية فوق أربعة آلاف إنسان، ما بين مماليك جراكسة غلمان، ومن عربان الشرقية والغربية، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباى، فجافت منهم الأرض وصار لا تعرف جثة الأمير المقدم ألف من جثة المملوك وهم أبدان بلا رءوس. وأما من قُتل من عسكر ابن عثمان فى هذه الوقعة فلا يحصى عددهم.

استدعاء ابن الملك القتيل :

ثم إن ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى، فلما حضر ألبسه قفطان مخمل مذهبا، وألبسه عمامة عثمانية، وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه،

ورسم له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى فى الشرابشيين، وأسكن الدفتردار أحد وزراء ابن عثمان فى بيته الذى فى البدنقانيين - ثم توجه إليه يوسف البدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا مخملا، وأقره متحدثا على جهات الغربية، وكذلك أخلع على فارس السيفى تمراز الشمسى وأقره كاشف المنية وغير ذلك من الجهات القبلية، وأخلع على الزينى بركات بن موسى وجعله متحدثا فى الحسبة إلى أن يقرر بها من يختارها، وأخلع على يحيى بن نكار وجعله متحدثا فى ولاية القاهرة إلى أن يقرر بها من يختاره.

استراتيجية السلطان سليم :

وفى يوم الأحد ثانى شهر الله المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من الريدانية ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف إلى آخر الجزيرة الوسطى، وقد أحضروا إليه مفاتيح قلعة الجبل على أنه يطلع إليها فلم يلتفت إلى ذلك واختار الإقامة على شاطىء بحر النيل. فلما كثرت العثمانية بالقاهرة صاروا كل من رأوه من أولاد الناس لابسا زمط أحمر أو تخفيفة يقولون له : أنت جركسى، فيقطعون رأسه،

فلبست أولاد الناس كلها عمائم حتى أولاد الأمراء والسلاطين قاطبة، وأبطلوا لبس التخافيف الزعوط من مصر.

فى يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ودخل إلى القاهرة من باب النصر، وشق المدينة فى موكب حفل، وقدامه جنايب كثيرة وعساكر عظيمة ما بين مشاة وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع، واستمر شاقا من المدينة حتى دخل من باب زويلة، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك إلى بولاق ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف، فلما شق من المدينة ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة.

وقيل إن صفته ذرى اللون، حليق الذقن، واف الأنف، واسع العينين، قصير القامة، فى ظهره حنية، وعلى رأسه عمامة صغيرة، يلبس قفطانا مخملا، وعنده خفة ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس. وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يعف مثل نظام الملوك السالفة؛ غير أنه سيىء الخلق سفاك للدماء، شديد الغضب، لا يراجع فى القول. ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر. فكان ينادى كل يوم فى القاهرة بالأمان والإطمئنان ، والنهب والقتل عمال من جماعته لا يسمعون له، وحصل منه للناس الضرر الشامل.

ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام: إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب فى أهلها بالسيف. فقيل تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه من ذلك، والله غالب على أمره.

فلما طفشت العثمانية فى القاهرة صارت أعيان المباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظونها من النهب، وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم : أنتم جراكسة، فيشهدون عندهم أنهم ما

هم مماليك جراكسة، فيقولون لهم : اشتروا أنفسكم منا من القتل، فيأخذون منهم بحسبما يختارونه من المبلغ، وصارت أهل مصر تحت أسرهم، ثم صاروا الناس من عياق مصر يغمزون العثمانية عى حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر، فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر، واحتووا على أموال وقماش ما فرحوا بها قط فى بلادهم، ولا أستاذهم الكبير.

معركة جديدة :

ومن هنا نرجع إلى أخبار ابن عثمان، فإنه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به إلى يوم الثلاثاء رابع المحرم، فلما كان ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء، لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى. بالوطاق واحتاط به، فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية، وظن أنه مأخوذ لا محالة، وأشيع أنه هجم عليه بجمال وهى محملة ساسا وأطلق فيها النار، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر بن عثمان ما لا يحصى عددهم، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليق وفيها الحجارة،

واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشيب منها النواصى، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قُديدار، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب. وأشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا

وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية. ثم إن المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية، كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحارات على المماليك الجراكسة.

فصاروا الأتراك كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب. فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبين الأتراك، ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عربة ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان. ثم أن العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملوكها منهم، ثم طردوا الأتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم. ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة
الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم. ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة
قُديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم. ثم إن العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة، فأحرقوا البيوت التى حول الزاوية، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ، ثم إن العثمانية طردوا الأتراك عن الناصرية إلى قناطر السباع.

قتال طومان باى بنفسه :

ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبة، وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة إلى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر، ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبة، وآخر عند قناطر السباع، وآخر عند رأس

الرملة، وآخر عند جامع ابن طولون، وآخر عند حدرة البقرة، ثم إن السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك. وأشيع أن السلطان قسم العسكر أربع فرق إلى جهة قناطر السباع، وفرقة إلى جهة الرملة، وفرقة إلى جهة جامع ابن طولون، وفرقة إلى جهة باب زويلة. فلم يقاتل من المماليك السلطانية إلا القليل، وصاروا يختفون فى الاسطبلات خوفا من القتال، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها.

الاعتداء على ضريح السيدة نفيسة :

ثم إن طائفة من العثمانية توجهوا من على مصر العتيقة، وطلعوا من على القرافة الكبيرة، وملكوا من باب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها، فدخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كان عندها، وبُسط الزواية، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتموا بها. ثم إن السلطان قصد بهدم قناطر السباع، فأخرق من عقدها بعض شىء. ثم إن الأتراك شحنوا جماعة من العثمانية فهربوا وطلعوا إلى مواذن الجامع المؤيدى، وصاروا يرمون على الناس بالبندق الرصاص ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة، واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنة أشر قتلة.

و صف المعارك :

ثم صارت القتلاء من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع وإلى الرملة وإلى تحت القلعة، وفى الحارات والأزقة من الأتراك والعثمانية، وهم أبدان بلا رءوس. هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب وهم

يشلحون الناس ويعرونهم من أثوابهم، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها. ثم إن السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من مسك أحدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الأمان فلا يقتله.

ومن العجائب أن السلطان طومان باى لما ظهر خُطب باسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة، وكان فى الجمعة الماضية خُطب باسم سليم شاه ابن عثمان.

فاستمر السلطان طومان باى يتلاقى مع عسكر ابن عثمان، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرم، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم، وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية، واستمر السلطان يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده بمفرده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء، منهم شاد بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه إلى نحو بركة الحبش، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله.

هزيمة جديدة :

وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان، وقد غُلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر، وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً. ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان، فلما انهزم السلطان صبيحة يوم السبت ثامن المحرم

طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو، فاحترق سقف الإيوان الكبير والقبة التى كانت به كون أى السلطان طومان باى كان به وقت الحرب، وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزين، ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العداس خطيب الجامع وأحضروه إلى بين يدى سليم شاه بن عثمان فهم برض عنقه، فلما بلغ الخليفة ذلك ركب وأتى إلى ابن عثمان وشفع فى ابن عداس وخلصه من القتل، ولولا كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال، وقاسى شدة عظيمة من الطربة.

ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك، ولعبوا فيهم بالسيف، وراح الصالح بالطالح، وربما عوقب من لا جنى، فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى باب الرملة، ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة، فكان مقدار من قُتل فى هذه الوقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة الأربعة أيام، ولولا لطف الله تعالى لكان لعب السيف فى أهل مصر قاطبة.

وصول الخائن :

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم دخل جان بردى الغزالى إلى القاهرة وعلى رأسه ورقة فيها أمان من السلطان سليم شاه، فلما دخل القاهرة توجه إلى وطاق ابن عثمان وقابله هناك. وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أن الغزالى توجه إلى غزة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة، وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام

السلطان الغورى، وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو خاير بك نائب حلب، وانهزموا قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر.

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم، وقيل سجنوهم بالقلعة، وكانوا نحو أربعمائة مملوك، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان، فلما ظهروا قبض عليهم وغدرهم فى أمانه، وكان من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر فى أمانه فى الحال، فكان لا يثق أحد منه بأمان إذا أعطاه لأحد من الناس. وفيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه منهم نائب غزة ومنهم كاشف للمحلة وللشرقية والغربية، وولى عدة جماعة كُشاف فى أماكن مختلفة من البلاد.

خروج سليم إلى القلعة :

وفى اليوم الخميس عشرين المحرم نادى السلطان سليم شاه فى الصليبة وقناطر السباع، بأن أصحاب الأملاك التى فى الصليبة وجامع ابن طولون يخلون من بيوتهم، فإن السلطان سليم شاه طالع إلى القلعة ليقيم بها، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك المعنى، فخرجت الناس من بيوتهم على وجههم، وانطلق فيهم جمرة نار، وهجمت عليهم العثمانية فى بيوتهم وسكنوا فيها فى عدة أماكن من بيوت القاهرة، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم، من الصليبة إلى جامع قوصون إلى قناطر السباع إلى داخل باب زويلة، وما خلا منهم موضع فى المدينة، وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الخوخ حتى لا تدخل فيها الخيول، ولم يفد من ذلك شيئًا وهدموا ما بنوه وسكنوا بها.

ثم إن السلطان سليم شاه طلع إلى القلعة فى موكب حفل من عسكره، وهذا أول طلوعه إلى قلعة الجبل، ولما أن طلع إلى القلعة نادى للناس بالأمان والإطمئنان. وفيه أشيع أن المماليك الذين طلعوا بالأمان قيدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى.

تعيين موظفين جدد:

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرين المحرم أخلع الدفتردار على الشرفى يونس الأستادار قفطان مخمل مذهبا وجعله متحدثا عى جهات بلاد الشرقية، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من إقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف، فأخذ قوائم من أولا الجيعان بمعنى ذلك ونزل إلى الشرقية، فما أبقى من أبواب المظالم شيئًا حتى فعله بالشرقية. وقرر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين فى جهات الغربية، وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا فى جهات المحلة، وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الأسطبل متحدثين فى الجهات القبلية، فاظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الإقطاعات والرزق. وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير التى بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم، فحصل لهم غاية النكد بسبب ذلك.

تدهور الأحوال:

وفى أواخر هذا الشهر تشحطت الغلال من القاهرة وارتفع الخبز من الأسواق، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا إى القاهرة نهبوا المغل الذى كان فى الشون وأطعموه لخيولهم، حتى لم يبق بالشون شيئًا من الغلال، ونهبوا

القمح الذى كان بالطواحين واضطربت أحوال الناس قاطبة، ثم إن الأخبار ترادفت بأن السلطان طومان باى ظهر أنه بالصعيد عند أولاد ابن عمر، ومنع المراكب من الوصول إلى مصر بالغلال، فبموجب ذلك وقعت هذه التشحيطة (المجاعة) بمصر.

ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد، ولا جلس على التكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما وحكم بين الناس وينصف الظالم من المظلوم، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة، من قتل وأخذ أموال الناس بغير حق، وكان هذا على غير القياس، فإنه كان يشاع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ولا مشى سليم شاه فى مصر على قواعد السلاطين السالفة بمصر، ولم يكن له نظام يُعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه ولا عسكره، بل كانوا همجا لا يُعرف الغلام من الأستاذ.

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الخيول من الحوش إلى باب القلة إلى عند الإيوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة، وصار زبل الخيل هناك بالكيمان على الأرض، وأخرب غالب الأماكن التى بالقلعة وفك رخامها ونزل فى مراكب يتوجهون به إلى اسطنبول. ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرملة من باب القرافة إلى سوق الخيل.

ثم إن العثمانية نصبوا خيمة فى وسط الرملة وجعلوا فيها أدنان بوزة، وخيمة أخرى فيها جفن حشيش، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد يحارفون كعادتهم فى بلادهم.

استعداد طومان باى للحرب من جديد :

وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان بأى قويت شوكته والتف عليه جماعة كثيرة من العربان، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الغفير، وأشيع أن وصل إليه من ثغر الإسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود. فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الأشرف طومان باى، وصار على رءوس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى تلك الوقعة الى كانت فى الصليبة، فخشوا من مثل ذلك.

أذى عسكر ابن عثمان :

وفى هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر ابن عثمان، فكانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجهون إلى الضياع التى حول الخانكاه، فيحشون ما فيها من الزروع من البرسيم والفول، فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم، ثم صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم، حتى أبوابهم وخشب السقوف الذى هناك، حتى أخربوا غاب ضياع الشرقية وسواحل البحر، فلما يرجعون أواخر النهار يباتون فى الوطاق الذى فى الرملة، ثم صاروا يخطفون العمايم ويعرون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء، فرسم السلطان سليم شاه بعمل دروب فى كل حارة، وسدوا عدة طرق من الحارات. وكذلك عدة أبواب جعلوها خوخ، وكان المتولى عمل ذلك يحيى بن نُكار دوادار الوالى، فبلص الناس فى هذه الحركة وأخذ منهم جملة مال، ولم يُفد من عمل هذه الدروب شىء، وحصل للناس الضرر الشامل وجبوا الأموال من الحارات بسبب تلك الدروب. ولما أقام ابن عثمان بالقلعة نزل منها ودخل حمام خشقدم الزمام التى بالرملة، فأقام بها إلى بعد العصر، ثم عاد إلى القلعة.

وفى يوم الأربعاء رابع صفر وردت الأخبار بأن الأمير ألماس كاشف الغربية طوق أطراف جهات الجيزة على حين غفلة، وأخذ منها عدة خيول كانت هناك، وبعض جمال كانت هناك لخير بك نائب حلب، ثم أشيع أن ألماس قتل جماعة من العثمانية، فلما بلغ السلطان سليم شاه ذلك أرسل تجريدة[1] إلى جهة الجيزة وعين بها ألفى عثمانى ورماة بالبندق الرصاص، فلما عدوا إلى بر الجيزة لم يجسروا أن يتبعوا ألماس وقانصوه العدلى، ثم إن ابن عثمان نادى فى القاهرة بأن أبواب المدينة وأبواب الدروب تغلق وقت صلاة الجمعة، خوفا من المماليك الجراكسة أن لا يطوقوا المدينة على حين غفلة من أهلها.

التنكيل بالمماليك :

ثم إن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من المماليك الجراكسة الذين كانوا ظهروا بالأمان، وكانوا فى الترسيم فى الوكالة التى خلف مدرسة الغورى، وكان منهم جماعة فى سجن الديلم، وكان فيهم أمراء عشرات، فرسم بأن يُنفوا إلى اسطنبول، فأخرجوهم وهم فى قيود وأركبوهم على حمير، والأعيان منهم على جمال، ومنهم من هو ماش على أقدامه وهو فى زنجير، وكانوا نحو سبعمائة مملوك، وقيل أكثر من ذلك، فشقوا بهم القاهرة ثم توجهوا بهم إلى بولاق وأنزلوهم فى المراكب فلما استقروا فى المراكب خشبوا منهم جماعة بقرامى خشب فى أيديهم، ثم سافروا بهم فى البحر إلى ثغر الإسكندرية، ثم يتوجهون بهم من هناك إلى اسطنبول، فصار لنسائهم وأولادهم ضجيج وبكاء فى ساحل بولاق عندما ودعوهم.

---

(١) جملة عسكرية.

المفاوضات :

وفى هذا الشهر أشيع أن السطان طومان باى أرسل عدة مطالعات إلى المباشرين وأعيان الناس وإلى كاتب السر حتى إلى الخليفة، فأرسل يعتب عليهم ويقول لهم : يا سبحان الله إن كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم. وأرسل يعتب عليهم ويتحرش بهم، ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول إلى ابن عثمان : إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائبا عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله إليك فى كل سنة، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصون دماء المسلمين بيننا، ودا تدخل فى خطية أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا قينى فى بر الجيزة ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء منا.

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة، وأحضر جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باى، وكتب ابن عثمان خطه عليه، ووقع فى ذلك اليوم الاتفاق بالقلعة أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون إلى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم ، ثم إن ابن عثمان أخلع على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذهبا وقال لهم : انزلوا اعملوا يرقككم حتى تتوجهوا إلى طومان باى نحو الصعيد، فنزلوا من القلعة على ذلك، ثم إن الخليفة امتنع من التوجه إلى السلطان طومان باى، وقال : أنا أرسل دوادارى برد بك صحبة القضاة الأربعة. وأشيع أن المطالعة التى أرسلها السلطان طومان باى إلى ابن عثمان ذكر فى ذيل المطالعة : ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر

الصلح عن عجز، فإن معى ثلاثين أميراً ما بين مقدمين ألوف وأربعينات وعشرات، ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا، وما أنا بعاجز عن قتالك، ولكن الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين. ثم فى عقيب ذلك توجهت القضاة الأربعة وبرد بك دوادار الخليفة إلى عند السلطان طومان باى نحوالصعيد.

إشاعة الاستعداد للقتال :

وفى هذه الأيام قويت الإشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان ببر الجيزة، فكثر القيل والقال فى ذلك ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك.

عدوان الأعراب :

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية، وصاروا يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم.

ونهبوا بلاد عبد الدايم بن أبى الشوارب وأحرقوها، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية، منهم قليوب وقلقشندة وغير ذلك من البلاد، ووصلوا إلى شبرا المنية، وصاروا يعدون من شبرا إلى قنطرة الحاجب. فلما تزايد الأمر أرسل إليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى، وجعل باشهم جان بردى الغزالى، فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا إلى الشرقية فأقاموا بها أياما، فأخذت العربان من وجههم وصعدوا إلى الجبال فرجع ذلك العسكر من غير طائل من العربان.

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من بلاد الصعيد بأن القضاة الأربعة وبُرد بك دوادار الخليفة وقاصد ابن عثمان مُصلح الدين الذى كان أرسله معهم وجماعة من العثمانية، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان ومعهم جماعة من الأتراك فقتلوا العثمانية، وهرب برد بك دوادار الخليفة وعروه وأخذوا أثوابه وهرب حتى نجا من القتل، ونُهب جميع ما معه من القماش وغيره، وأشيع قتل قاضى البهنسا عبد السلام، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير.

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان. ثم إن ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش.

الاستعداد للحرب :

وفى يوم السبت حادى عشرين صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجم الغفير من العساكر وتوجه إلى الوطاق ببركة الحبش، وتوجهت المباشرون صحبته حتى القاضى كاتب السر. وفى هذه الأيام اختفت السقايين بجمالهم وضج الناس من العطش، وزعموا أن ابن عثمان طلب جميع السقايين بجمالهم وروايـاهم حتى يسافروا معه إلى الصعيد بسبب السلطان طومان باى إن كان يهرب منه إلى بلاد الزنج، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف، وقيل خمسة أنصاف.

وفى يوم السبت ثامن عشرين صفر أشيع أن أوائل عساكر السلطان طومان باى قد وصل إلى ترسة بالقرب من الجيزة، فمس ابن عثمان بغمل

وحسات على شاطئ البحر بطرا لأجل تعدية عسكره، وكذلك فى بر مصر العتيقة. وفى هذه الأيام امتنع الجالب من البضائع التى كانت تدخل إلى القاهرة من الأجبان والسمن والقشطة وغير ذلك من البضائع، التى كانت تجلب من الجيزة وقليوب والمنية وشبرا، واضطربت أحوال القاهر جدًا بسبب إقامة هذه الفتنة.

وفى ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء، فأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج إلى بلاد الشرقية كبس على عدة بلاد من الشرقية حتى وصل إلى التل والزمرونين وإلى زنكلون، فنهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج،

وأسر نساء الفلاحين وأولاده الصبيان والبنات، وصار يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان، كما فعل أقبردى الدوادار بالعرب الأحامدة وأولادهم، فاشترى بعض الناس منهم بنتا بأربعة أشرفية وأعتقها وأوهبها إلى أمها وقد رق لها من الأسف على ابنتها، وفعل فى الشرقية ما لا فعله البُخت نصر لما دخل إلى مصر. ثم إن يونس باشاه نادى فى القاهرة بأن كل من اشرى من نهب بلاد الشرقية شيئًا من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه، وكذلك أولاد الفلاحين، ولام جان بردى الغزالى فيما فعله فى الشرقية.

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا فى القلعة فى الترسيم، بأن يحضروا إلى بين يديه بالوطاق الذى ببركة الحبش، فنزلوا بهم من القلعة وهم على بغال وشىء على حمير وشىء مشاة، وهم جنازير وعليهم كبورة عنق وعلى رءوسهم كوافى بغير شاشات.

قتل جميع الأمراء عمدا وغدرا:

فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرًا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك، فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه وبخهم بالكلام ثم أمر بضرب أعناقهم أجمعين.

فضربت أعناقهم بالوطاق الذى ببركة الحبش، وذلك فى يوم السبت سادس ربيع الأول، وكانت هذه الكاينة من أعظم الكواين فى حق الأمراء، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان ثم غدرهم وقتلهم، فكان لا يثق أحد له بأمان وليس له قول ولا فعل.

قتل طومان باى :

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان سليم شاه إلى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى، وقد بلغه أنه قد وصل إلى المناوات ومعه من العربان والعسكر من المماليك الجراكسة الجم الغفير، فلما عدى إلى الجيزة أقام بها إلى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول، فتلاقى عسكر بن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان، وقيل على المناوات، فكان بين الفريقين وقعة لم يسمع بمثلها، أعظم من الوقعة التى كانت على الريدانية، وقيل كانت هذه الوقعة عند كوم الحمام، فكان بين الفريقين وقعة مهولة وانكسرت العثمانية غير ما مرة، وطردتهم الأتراك حتى ألقوا أنفسهم فى البحر، وكانت الكسرة عليهم أولا، وقتل منهم جماعة كثيرة. ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الأتراك وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص ، فهزموهم ووقعت الكسرة على الأتراك، وولى السطان طومان باى مهزوما، فتوجه إلى بلدة تسمى البوطة فى

أعلا تروجة. وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر، وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته، كل ما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس.

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر قطع رءوس المماليك من الجراكسة، وقطع رءوس جماعة كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى، فلما تكاملت قطع الرءوس رسم ابن عثمان بإحضار مراكب، فلما حضرت وضعوا فيها الرءوس الذى قتلوا، فلما عدوا إلى بر بولاق صنعوا مدارى خشب وعلقوا تلك الرءوس وحملها النواتية على أكتافها ولاقتهم الطبول والزمور، ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة، وشقوا بتلك الرءوس من باب البحر إلى باب القنطرة، وطلعوا بهم من على سوق مرجوش وشقوا بهم من القاهرة، وكان لهم يوم مشهود. وقيل كان عدة الرءوس الذى قتلوا فى هذه الوقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك.

انتصار السلطان سليم وزيارة الأهرام :

ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر، أقام فى بر الجيزة أياما، وسير هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها. ولما كثر الاضطراب بالقاهرة ضيقت الناس أبوابها الكبار وجعلوها خوخا صغارا، لا يدخل منها فرس ولا راكب. وفى يوم الأربعاء سابع عشرة نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق، وضربوا للناس فلوسا جدداً كل اثنين بدرهم ونصف، وعليهم اسم سليم شاه، فكانوا فى غاية الخفة، فتضرروا الناس منها إلى الغاية.

فرار طومان باى والخيانة :

ومن هنا نرجع إلى أخبار السلطان طومان باى، فإنه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات، وقيل بوردان، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك، فلما انكسر توج إلى نحو تروجة بالغربية فلاقاه حسن برى مرعى وابن أخيه شكر مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوطة، فعزم حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضياف، ثم إن السلطان طومان باى أحضر إلى حسن بن مرعى وابن أخيه شكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه أنهما لايخونانه ويغدرانه ولا يدلسان عليه بشىء من أسباب المسك،

فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك، فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان. فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه تفرقوا من حوله وتشتتوا فى البلاد، وتمت الحيلة على السلطان طومان باى، وخانة حسن بن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن إليه، وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب طومان باى، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الغورى، وأقام عنه بما عليه من المال، فلم يذكر له شيئًا من ذلك ولا أثمر فيه الخير.

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوارة زمط وعليه شاش وملوطة باكمام كبار، فلما وقعت عين ابن

عثمان عليه قام له ثم عتبه ببعض كلمات، فلما خرج من قدامه توجهوا به إلى خيمة فأقام بها وأحاطوا به الإنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به ، فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر إنبابة، فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق بذلك. فأقام السلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد إلى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة،

وكان ذلك اليوم يوم الخماسين، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر، فعدوا السلطان طومان باى من بر إنبابة إلى بولاق، فطلعوا به من هناك هو راكب على إكديش وهو فى الحديد، عليه ليس العرب الهوارة كما تقدم. وكان السلطان طومان باى لما قبضوا وعيه أقام ى الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما، وكان أشيع أن ابن عثمان يرسل طومان باى إلى مكة ولا يقلته، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره. وفى مدة إقامة ابن عثمان فى الوطاق فكانت العثمانية يطوفون فى المدينة نهارهم كله، ومن بعد العصر يرجعون إلى الوطاق يباتون به.

نهاية طومان باى :

فلما بلغ ابن عثمان أن الناس لا تصدق يمسك طومان باى فحنق من ذلك وعدى به، فلما طلع من بولاق شق من المقس وقدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به. فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال ووقفت حوله

العثمانية بالسيوف، فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة، قال للناس الذين حوله : اقرأوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات. فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك. فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس، وعلى جسده شاياه جوخ أحمر، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفى رجله لباس جوخ أزرق.

الشنق على باب زويلة :

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شابا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره، ووقع منه فى الحرب أمور ما لا تقع من الأبطال.

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة، وكانت الناس عنه راضية فى مدة غيبة السلطان، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك.

فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلطن عوضه أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ولا يقبل فى أحد من الناس مرافعة ولا صادر أحدا من المباشرين فى

مدة سلطنته، ولما وصل ابن عثمان إلى الشام وقصد أن يخرج إليه فشكى أن الخزائن خالية من الأموال، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين : افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر، وخذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة. فلم يسمع لهم شيئًا وأبى من ذلك، وقال : ما أجمل هذا أن يكون فى صحيفتى.

وكان ملكا حليما قليل الأذى كثير الخير، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما، فإنه تسلطن رابع عشر شهر رمضان، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة. وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البلدان، وآخر الأمر شنق على باب زويلة، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة، ومضت أخباره كأنه لم يكن.

تكوين الدولة العثمانية

تاريخ الأتراك :

يمكن تقسيم تاريخ الأتراك الحديث فى الشرق الأوسط إلى عدة مراحل تبدأ بتكوين الإمارة التركية العثمانية من أيام عثمان الأول حتى محمد الثانى فاتح القسطنطينية، وتبلغ هذه الدولة العثمانية ذروتها عندما تتسع من فيينا إلى عدن ومن العراق والخليج العربى إلى حدود مراكش (المغرب) وذلك زمن السلطانين سليم الأول وسليمان الأول (القانونى). وبعد ذلك تأتى فترة الضعف ابتاء من القرن السابع عشر وخلال الثامن عشر، ليأتى بعدها عهد الاصلاح والتغيير والتنظيمات، ذلك العهد الذى ملأ القرن التاسع عشر حتى صدور دستور ١٨٧٦ حتى حلت محله فترة كانت فيه نظرية الجامعة الإسلامية التى تعلق بها السلطان عبد الحميد الثانى تواجه مشروعات استعمارية أوربية منظمة بلغت ذروتها فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ واستمرت عملية تنفيذها طوال عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٨) . وقامت ثورة جمعية الاتحاد والترقى ١٩٠٨ ، وكانت ثورة تركية ذات اتجاهات قومية كانت الحرب العالمية الأولى – التى خاضتها تركيا إلى جانب المانيا والنمسا ـ الضربة القاضية لفكرة تزعم تركيا للدولة الإسلامية العامة وتحولت على يد مصطفى كمال أتاتورك إلى دولة تركية قومية علمانية تقوم على الإلحاد وفصل الدين عن الدولة .

الأتراك شعب من الشعوب الإسلامية ملأ التاريخ أحداثا، ومرت عليه الغالبية العظمى من مظاهر الحضارات طيبها وشرها، من البداوة إلى الامبراطورية.

وذاق وهو لا يزال قليل الشأن حلاوة الجهاد على أطراف امبراطورية عملاقة هى الإمبراطورية البيزنطية، وظل وراءها حتى أسقطها وحتى مد ذراعيه إلى قلب أوروبا وإلى المحيط الهندى لينقذ المياه الإسلامية من حملة صليبية بحرية يقوم بها البرتغاليون ، وخلال هذا وذاك سيطر على قلب العالم الإسلامى مكونا أكبر دولة إسلامية عاشت على الأرضين : الأرض الإسلامية والأرض المسيحية.

وكانت الدولة التركية العثمانية منذ نواتها الأولى فى الركن الشمالى الغربى من الأناضول فى أواخر القرن الثالث عشر حتى سقوطها فى نهاية الحرب العالمية الأولى أطول الدول الإسلامية تاريخا، عاشت ستة قرون ، ثلاثة منها فى أواخر العصور الوسطى المتأخرة وبداية العصر الحديث، وثلاثة منها فى العصر الحديث ولكن بتقاليد ومفاهيم وأساليب وإمكانيات العصور الوسطى المتأخرة تقريبا. وحاولت أن تجدد نفسها فى القرن التاسع عشر، ولكن حركة التجديد ساعدت على ظهور تركيا الحديثة القومية.

فى ذلك الأستبس المترامى الأطراف فى وسط آسيا كانت مواطن الأتراك الأولى . ومنها خرجت هجرات قوية فى مختلف الاتجاهات، إلا أن مستقبلهم العظيم كان فى الديار والمجالات الإسلامية. فللإسلام الفضل الأول فى فتح أبواب مستقبل باهر أمام الأتراك. كانوا من قبل وثنيين رعاة غلاظ القلوب، فلما أسلموا تهذبت طباعهم وأخلاقهم. وأصبحوا قوة لها مكانتها. فباعتناقهم الإسلام أصبحوا أعضاء مقبولين فى المجتمع الإسلامى، وفى أى جزء من العالم الإسلامى: أن المؤمنين أخوة.

ونظرا لتمرس الأتراك فى الأستبس على صنوف القتال وضراوته، ونظرا لأن الأتراك السلاجقة كانوا فى تركيا فى حرب ضروس ضد العملاق البيزنطى، توافدت الهجرات التركية من وسط أسيا إلى تركيا. وكانت فكرة الجهاد ضد بيزنطة واحدة من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالأتراك إلى هذه الهجرة إلى الأناضول، حتى أصبح تركيا كله ، وأخذت تظهر هناك الإمارات التركية. حقيقة كانت هذه الإمارات التركية وكأنها أقزام بجوار العملاق البيزنطى، إلا أنها كانت قادرة على رد العدوان البيزنطى عليها بشدة تماسكها، حتى خلال الفترة العصبية التى اجتاح فيها المغول العالم الإسلامى وقوضوا الدولة السلجوقية وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد ١٢٥٨م - ٦٥٦ هـ.

إن هذه الغزوة المغولية أدت كذلك إلى انتشار الإسلام بين المغول والتتار، وبالتالى فتح الإسلام أمامهم أبواب الهجرة إلى الديار الإسلامية ولهذا أقبل على الأناضول الكثير من الجماعات المغولية فضلا عن الجماعات التركية، لتسهم هذه الهجرات فى استكمال تتريك الأناضول حيث أن الأتراك والمغول من أصول واحدة. كانت الوثنية تجمعهم قبل الإسلام، وأصبح الإسلام يجمعهم منذ القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وستجمعهم القومية فى نظرات قومية انتشرت فى القرن العشرين.

وبينما قضى المغول على الدولة السلجوقية، وقضوا على الخلافة العباسية لم يستطيعوا السيطرة سيطرة مباشرة على أملاكهم الواسعة فى المشرق الإسلامى أو فى الأناضول، فلم تظهر على يدهم أو من بعدهم حكومة مركزية قوية فى الأناضول الأمر الذى أفسح المجال لنمو العديد من الدويلات التركية الصغيرة ومن بين هذه الدويلات "الإمارة العثمانية".

الفترة الأولى من تاريخ هذه الإمارة الصغيرة غامضة تحوطها الأساطير. وهذا يرجع إلى أن الإمارة أية إمارة لا تثير انتباه المؤرخين والكتاب ورجال السياسة إلا إذا أثبتت وجودها فى المعترك الدولى، وأصبحت ذات قدرات على توجيه الأمور بشكل ملفت للأنظار. عند هذا الوضع الجديد يبدأ المعنيون فى كتابة تاريخ نشأة هذه الإمارة وأصولها. ولكن تكون السنوات قد انقضت، وتكون الأحداث البسيطة قد تحولت إلى صور أقرب إلى الأساطير، حتى لتكاد الوقائع الحقيقية تضيع فى خضم خيالات الكتاب وتصوراتهم وهذا ما حدث بالنسبة لتاريخ النشأة الأولى للإمارة العثمانية.

"كان أرطغول ابو عثمان الذى تنتسب إليه الإمبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت على الأناضول فى عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيز خان واستقرت فى سكود فى شمال غرب الأناضول .... وكان عثمان وقبيلته أتراكا كفارا يزاولون الرعى، فلما عاشوا فى بيئة إسلامية دخلوا فى الإسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة ... ولم يكن تحت إمرة عثمان قبل دخوله فى الإسلام إلا أربعمائة محارب ... ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين سنتى ١٢٩٠و١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى قاربت حدود البزنطيين وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديدانتسب إلى رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى ، ولكنه كان جنسا جديدا مختلطا ناشئا عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والإغريق المسيحيون".

شاعت هذه النظرية حتى أصبحت أشبه بالحقيقة الثابتة لما كان يعرف عن جيبونز من علو كعب فى التاريخ التركى، ولأن عددا ليس بالقليل من مؤرخى أوربا قبل النظرية وأخذ بها فى مؤلفاتهم، حتى انبرى مؤرخ تركى لهذه النظرية

دارسا ثم ناقدا وأخيرا وضع الأمور فى نصابها محددا الظروف والطريقة التى لابست نشأة الإمارة التركية:

" أنه لمن الخطأ أن نعزو تأسيس الإمبراطورية العثمانية إلى قبيلة من أربعمائة خيمة كانت تقطن فى القرن الثالث عشر الحدود البزنطية السلجوقية فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول، دون أن نفكر ـ لشرح هذه الواقعة ـ فى الظروف التاريخية والاجتماعية للأناضول فى القرن الثالث عشر والرابع عشر".

لقد كان الأناضول (تركيا) فعلا ـ قبل أن تفد إليه قبيلة ـ قابى ـ وكان إسلاميا كذلك. ولكون قابى قبيلة مسلمة وتركية، كانت فرصتها واسعة للقدوم إلى الأناضول ولتكوين إمارة صغيرة ـ مجاهدة فى سبيل الإسلام ـ على الحدود السلجوقية ـ البيزنطية فى المنطقة المعروفة حول اسكى شهر. وكانت الدولة السلجوقية تعين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية وعن مناطق الحدود، وعرف هؤلاء باسم أمراء الحدود.

كان هؤلاء الأمراء يواجهون ظروفا صعبة للغاية، ومشكلات متجددة من وقت لآخر، ويضطرون إلى اتخاذ سياسات تحميهم، وكانوا خلال هذا يجدون أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ سياسات تختلف عن سياسة الحكومة الكبرى المسئولة عن الأناضول : الحكومة السلجوقية. وبطبيعة الحال أدى ذلك إلى أن يصبح ولاء هؤلاء الأمراء للدولة السلجوقية ـ المتدهورة ـ مجرد ولاء اسمى. وأن يصبحوا فى نفس الوقت أقدر على التصرف والتحرك بحرية كبيرة فى مواجهة العملاق البيزنطى.

وحيث أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بعمل بطولى إسلامي، كانت ثقتهم بأنفسهم وبعملهم عظيمة وكبيرة، وكانت ذكريات الحروب الصليبية لا تزال قريبة. وإلى جانب ذلك كانت هناك عدة عوامل ساعدت على هذا النمو الثابت المطرد للإمارة العثمانية.

فقد كان الأناضول خلال القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر قد أصبح أشبه بمنطقة فراغ سياسى وبشرى. كانت الحكومة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية تتناحران عليه، ولكن تلقت كل منهما وفى وقت متقارب ضربة قاصمة. انقضت أوروبا الغربية على هيئة حملة صليبية رابعة (١٢٠٤) على الإمبراطورية البيزنطية وليس على الدولة الإسلامية التى كانت هدف تلك الحملة فكان أن فرضت على القسطنطينية حكما كريها هدم الكثير من قيم أهاليها. فعندما سيطر الصليبيون الغربيون على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية أقدموا على أعمال وحشية إذ " استباح اللاتين المدينة طيلة ثلاثة أيام ودمرت القسطنطينية الجبارة وسلبت. واستهجن البابا انيوسنت الثالث ـ وهو على عرشه فى ايطاليه ـ ما قام به أتباعه الذين خرجوا على محاولات توطيد الصداقة بين الشرق والغرب، وقال البابا : إن الاتحاد أصبح الآن مستحيلا إلى الأبد.

حقيقة استطاع ميخائيل الثامن أن يعود إلى القسطنطينية إمبراطورا لبيزنطيا بعد أربعين عاما من تلك النكبة. ولكن تلك النكبة كانت قد هدت العاصمة والإمبراطورية وكانت بمثابة بداية النهاية بالنسبة لها. فكان ذلك فرصة ذهبية أمام هذه الإمارة الصغيرة الطموحة العثمانية. فقد ركزت الإمبراطورية البيزنطية أنظارها بسبب تلك النكبة اللاتينية على البلقان وما هو وراء البلقان أكثر من تركيزها على خطر الإمارات التركية النامية على حسابها فى الأناضول.

ويبدو أن السلطات الحاكمة فى القسطنطينية كانت قد تعودت فقد أجزاء من ممتلكاتها فى الأناضول، حتى فقدوا الأمل، ليس فقط فى استرداد الأناضول بل كذلك فى البقاء فيه خاصة بعد توالى وصول القبائل التركية فيه وتحويله إلى منطقة إسلامية تماما. فإذا ما حاولت بيزنطة استرداد الأناضول باسم المسيحية، ستجد أنها تعمل على أرض معادية لها: أرض إسلامية.

تولى أمر هذه الإمارة الصغيرة، بعد مؤسسها عثمان : ابنه أورخان. وكان رجلا على جانب عظيم من الحكمة والنشاط، سواء فى عهد أبيه، أو بعد أن تولى هو الحكم. فهو الذى فتح بروسه (١٣٢٦م). وجعلها عاصمته، وهو أول من عبر المضيق إلى غاليبولى لتصبح قاعدة التوسع العثمانى إلى البلقان.

وهناك عدة عوامل ساعدت أورخان على تأسيس دولة يحسب حسابها فى المنطقة ، وأهمها:

١- كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى من أمراض الشيخوخة. وأخطرها الحرب الأهلية والصراع حول العرش بين زعماء غير أكفاء لمواجهة الخطر الحقيقى الذى يواجه الامبراطورية، وكان وقود هذه الحرب شعب كاد يفقد الثقة فى نفسه وفى زعمائه سنة بعد أخرى. حتى لقد استعان الإمبراطور كانتا كوزيناس بأورخان، فتمكن الأول من أن ينفرد بالحكم ١٣٥٣ ، وعندما حاول كانت كوزيناس أن ينفض يده من الثمن الباهظ الذى كان عليه أن يدفعه لأورخان، توالت عليه النكبات والثورات حتى سقط عن عرشه ليلجلس عليه (باليولوجاس) (١٣٥٨) الذى لم يجد بدا من الاعتراف بالوجود العثمانى فى تراقيا.

٢- إن أورخان أدرك أن الأعباء الملقاة على إمارته أكبر من إمكانياتها خاصة بعد أن أصبحت السلطات البيزنطية تنظر إليها بعين المخاوف والأخطار الحقيقية، وهذا ما لم يكن متوفرا لتلك السلطات قبل عبور العثمانيين البحر إلى البلقان. ولهذا عنى بإعادة تنظيم الجيش. فقد كان الجيش العثمانى يعتمد على الفرسان إلا أن أورخان خلال معاركة أدرك حاجته الملحة إلى جيش من المشاة يستطيع أن يستولى على القلاع والأسوار الكبرى التى اشتهرت بها مدن البلقان. ولكن خبرات الأتراك السابقة كانت متركزة على الخيالة، وكان من العسير تحول التركى إلى جندى مشاة ومن هنا جاءت الفكرة بأن يستخدم أورخان عنصرا غير تركى فى تكوين جيش من المشاة، وانتهى الأمر بالأخذ بما عرف باسم الديو شرمه.

والديو شرمه هى ضريبة الدم، كان الصبية الصغار المسيحيون يؤخذون من البلاد المفتوحة حديثا. ليدخلوا فى الإسلام ويربوا تربية إسلامية عسكرية فكرية خاصة. وكانوا يعيشون فى ثكنات خاصة بهم لا يتزوجون ولا يختلطون بالمجتمع وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامى والملة والسلطان.

وهناك نقد أوربى شديد الوطأة على هذا النظام، يتهم الأتراك بالقسوة المتناهية إزاء البشرية. ومع ما فى هذا النظام من قسوة فإنه لا يمكن أن يقارن بما فعله الأسبان بمسلمى الأندلس الذين خيروهم بين التنصر والموت.

ونظرا للدور الكبير الذى لعبه الانكشارية فى توسيع الدولة العثمانية وفى سقوطها فى نهاية الأمر كتب تاريخ نشأة هؤلاء الانكشارية بشكل بعيد عن الحقيقة. فقد وردت فى الغالبية العظمى من المؤلفات التى تعرضت لهذا الموضوع أن الانكشارية هم الذين كانوا يكونون الجيش العثمانى، أو على الأقل

عموده الفقرى منذ البداية، والحقيقة هى أن نظام الفرسان ظل هو السائد فى الجيش العثمانى ولم يصبح الانكشارية أغلبية فى الجيش العثمانى إلا فى القرن السادس عشر والسابع عشر. وحيث أن تدهور هذا النظام كان أحد الأسباب الرئيسية لضعف الدولة العثمانية، كانت المؤلفات - التى تحدثت عنه فى الفترة المتأخرة من تاريخ الدولة العثمانية - تعتمد على الصورة السيئة الأخيرة دون إدراك حقيقى لقيمة هذا النظام فى الفترة المبكرة وأنه كان مقبولا حينذاك إذ أن الفرق لم يكن كبيرا بين نظام الانكشارية ونظام المماليك الذى كان شائعا فى العالم الإسلامى خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن النظامين اجتذبا أعين الأوربيين فكانوا أحيانا يدخلون أبناءهم إلى أى منهما حتى يصلوا إلى مرتبات من الحكم عالية.

إن قيمة أورخان هو أنه شهد أول استقرار إسلامى فى أوربا من جهة البلقان، وشهد ظهور نظام عسكرى جديد سيصبح رعب أوربا لمدة أربعة قرون متتالية على الأقل وشهد ظهور الإمارة العثمانية التى أصبحت تمتد من انقرة إلى تراقيا.

كذلك فى عهد أورخان كانت قد بدأت عملية الاقتباس من النظم الحضارية الأخرى تتم دون عقبات أو اعتراضات، وأخذت نظم الضرائب البيزنطية تدخل فى الإدارة العثمانية الناشئة وكذلك بعض نظم وفنون البناء والهندسة. كذلك نما الاقتباس من الآداب الفارسية فضلا عن العربية، وظهرت آداب تركية لها قيمتها.

فى ١٣٦٢ توفى أورخان، وخلفه ابنه مراد الأول ليواجه أعداء دولته فى اتجاهين متباعدين خطيرين:

١- فى الشرق كانت إمارة قرمان التركية تنظر بعين الخوف الشديد من نمو الإمارة العثمانية واستطاع أن يوجه ضربات إلى خصومه أقعدتهم عن التحرك ضده.

٢- فى أوربا كان الامبراطور البيزنطى يسعى إلى الانقضاض عليه ولكن مراد استولى على الدرنه ١٣٦٦ واتخذها عاصمة له الأمر الذى كان له صدى سيىء فى مختلف العواصم الأوروبية، وخاصة لدى البابا فى روما. وانطلقت مرة أخرى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة دون جدوى . بينما تابع العثمانيون توسعهم واستولوا على سالونيك.

كان هذا النمو فى الدولة العثمانية سببا فى قيام تحالف جديد من القوى المسيحية البلقانية لصد الغزو العثمانى. وأحرزت التحالفات البلقانية النصر فى الجولات الأولى، ولكن مراد الأول فى النهاية خاض ضد أعدائه معركة قوصوه الكبرى فى (١٥ حزيران - يونيو ١٣٨٩) سقط فيها مراد الأول شهيدا وأسر فيها ملك الصرب وأعدمه بايزيد الأول الذى تولى الإمارة من بعد أبيه. والذى أصبح - بعد ذلك التوغل العثمانى فى البلقان - وجها لوجه مع أكبر الشعوب البلقانية عداء للأتراك : البلغار والمجر.

كانت بلغاريا بين بايزيد الأول العثمانى وسجسموند ملك المجر. وكان الأخير يدرك أنه لايستطيع وحده انقاذ البلقان. وفى نفس الوقت كان ملوك أوربا يدركون أن الطريق أمام الأتراك إلى قلب أوربا سيصبح مفتوحا لو نزلت هزيمة كبيرة بالمجر. ولهذا كانت الدعوة إلى حملة صليبية جديدة صادرة عن ملك المجر ذات صدى قوى بالنسبة للدعوات السابقة عليها وشد أزرها البابا فى روما، وقدم ملك فرنسا وانجلترا والبندقية مساعدات عسكرية لملك المجر.

وفى ٢٧ ايلول - سبتمبر ١٣٩٦ دارت موقعة نيقية التى أحرز فيها بايزيد الأول الانتصار الذى جعل من الدولة العثمانية حقيقة كبرى فى البلقان، إذ أصبحت بلاد البلغار واليونان والبلقان الشمالى نفسه تحت السيطرة العثمانية.

ولكن فى نفس السنة التى أحرز فيها السلطان بايزيد الأول انتصاره الضخم هذا فى نيقية كان تيمور - أى تيمورلنك - قد جلس على العرش (١٣٦٩) وكان تيمور لنك فاتحا من ذلك الطراز المغولى الذى يستطيع فى سنوات معدودة أن يؤسس إمبراطورية كبرى مترامية الأطراف، ولقد استطاع فعلا أن يؤسس امبراطوريته من سهول آسيا وسمرقند إلى بلاد الأفغان والهند وايران، حتى جورجيا وأرمينية وكردستان وبذلك يكون قد جاور الدولة العثمانية الفتية ودولة المماليك فى مصر والشام والحجاز. والدولة العشائرية التركمانية الناشئة (القره قونيل) فى شرق الأناضول والجلائرية المتداعية فى العراق والقبيلة الذهبية فى حوض الفولجا الأدنى.

ولكن يلاحظ أن تيمور لنك استطاع أن يضرب العراق ومماليك مصر وبايزيد العثمانى كل على حدة. ويبدو أن انتهاز بايزيد الأول فرصة وفاة السلطان برقوق باحتلال ملطية قضت على إمكانية تحويل التحالف بين السلطان العثمانى بايزيد والسلطان المملوكى فرج ابن برقوق من الفكرة إلى التنفيذ. فانقض تيمور لنك على الشام ثم التفت إلى الدولة العثمانية.

إلى جانب الجوار وحدة الطبع المغولى كانت هناك أسباب كفيلة باثارة الحرب بين الدولتين المغولية والعثمانية:

١- كانت لإمارات شرق الأناضول خلال النصف الثانى من القرن صدى

عميق لدى السلطان المملوكى فى القاهرة والخليفة العباسى الذى كان يقيم فيها منذ سقوط بغداد فى يد المغول، ولهذا منح الخليفة لقب سلطان إلى بايزيد مكافأة له على تلك الجهود الكبرى من أجل الإسلام والمسلمين.

٢ـ كانت سيواس قد وقعت منذ وقت قليل فى يد بايزيد، وكانت فى نظر تيمور لنك مدينة ذات أهمية استراتيجية كبرى. حتى أنه استولى عليها واكتفى بهذا التقدم متحولا إلى العراق فأخذه ثم اتجه إلى الشام فبسط سيطرته فترة عليه.

٣ـ كانت القوى الأوربية الناقمة على الدولة العثمانية مستعدة لأن تمد يدها إلى أية قوة كبيرة قادرة عى هزيمة هذه الدولة العثمانية الفتية. ولذلك سعت جنوه وقشتاله إلى تيمور لنك، ولكن هذا لم يستمع إلى رسلهما بسبب تمسكه بالإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك ما يدل على أن مساعدات مجدية يمكن أن تقدمها كل من جنوه وقشتاله له. ولكن هذه الاتصالات شجعت تيمور لنك على العمل ضد الإمارة العثمانية.

كان العثمانيون قبل هذه الحرب ضد تيمور لنك يتوسعون وينقلون عاصمتهم من مكان لآخر مقتربين بها من أرض العدو، أما فى حربهم ضد تيمور لنك فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن قلب دولتهم غرب الأناضول. ومن هنا كانت المعركة المقبلة تضع الدولة العثمانية فى موقف حرج للغاية بسبب العداوة المريرة بين القوى البلقانية المسيحية وهذه الدولة العثمانية، وبسبب ضخامة الجيوش التى كان يقودها تيمورلنك الذى لم يهزم من قبل.

دارت معركة انقره فى ٢٠ يوليو ـ تموز ١٤٠٢ وإذا بالتتر والقوات التابعة

للإمارات التركية الخاضعة حديثا لبايزيد ينضمون إلى جيش تيمور لنك، بينما ثبت الانكشارية والقوات الصربية التى لبت نداء بايزيد، وكان ثباتها إلى حين بسبب التفوق الملحوظ لدى جيش تيمور لنك . وسقط بايزيد نفسه أسيرا فى يد تيمور لنك ومات فى الأسر فى (١٤٠٣)، وفر أولاده كل فى اتجاه، بينما أمعن الجيش التترى فى تخريب الأناضول ومدنه. حقيقة كانت الضربة قاسية جدا للدولة العثمانية، ولكن خفف منها أن تيمور لنك لم يكن يرغب فى الاستيلاء على الأناضول وإنما عاد إلى سمرقند ليعد حملة على الصين، ولم يلبث أن مات فى ١٤٠٥ تاركا الإمبراطورية تواجه التفكك السريع الذى اعتادته مثل هذه الإمبراطوريات المغولية فى أعقاب موت المؤسس لها.

كان عدم اكتراث تيمور لنك بالأناضول، أو باسقاط الدولة العثمانية عاملا جوهريا فى الإبقاء على هذه الدولة وفى قدرتها من بعد على الظهور قوية رغم المتاعب الداخلية الشديدة التى ألمت بها فى أعقاب تلك الهزيمة النكراء.

وعلل المؤرخ الكبير ارنولد توينبى على عدم سقوط الدولة العثمانية بعد تلك الضربة القاسية فى معركة أنقرة بأن هذه الضربة وقعت فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية لاتزال فى دور التكوين والفتوة، وهو دور يعطى للدولة الناشئة القدرة على تلقى الضربة وامتصاصها ثم معاودة النهوض، حتى فى مواجهة ظروف داخلية صعبة. فلا يكاد خطر التتر ينحسر عن الأناضول حتى تعرضت الدولة العثمانية لصراع أسرى مرير بين أبناء بايزيد الثلاثة : موسى وسليمان ومحمد.

وخلال هذا الصراع بين الأخوة ظهر خطر تمزق الدولة فقد كان هناك مطالب بالعرش معتمدا على الأناضول، وآخر فى البر الأوربى مطالبا كذلك

بالعرش. فعلى هذه الصورة كان الصراع بين محمد فى آسيا، وموسى فى البلقان. وكان كل منهما يعانى من خصوم له فى منطقته، كان الصرب يعادون موسى وكذلك الامبراطور البيزنطى نفسه. وكان أميرى أزمير وانقره شوكة فى جنب محمد، إلا أن محمداً كان أقدر من أخيه موسى فى تصفية المشكلات التى كانت تواجهه. ولعل هذا يرجع إلى طبيعة الخصم فى كل جانب. كانت الخصومات دينية سياسية فى البلقان، بينما كانت بالنسبة لمحمد خصومات سياسية فقط. ولهذا كان من اليسير على محمد أن يحصل على تحالفات فى البلقان يستخدمها ضد أخيه، وكان الصرب والإمبراطور البيزنطى مستعدين للحالف معه، ولهذا كان النصر حليف محمد فى سهل جامورلى على أخيه، ليصبح السلطان الأوحد (١٤١٣).

كان الخطر الداخلى الكبير الثانى يتمثل فى ثورة عقائدية صوفية ذات أبعاد اقتصادية وتنطوى على محاولة للتقريب بين الإسلام والمسيحية. تلك كانت حركة بدر الدين الصماونوى وتابعه بوركلوجه مصطفى.

وكانت هذه الثورة تنادى بأن المسلمين والمسيحين متساوون فى الإيمان بالله وأن الناس متساوون فى الإفادة من أرزاق الأرض فكان طبيعياأن تلقى مثل هذه الدعوة قبولا لدى الفلاحين فى آسيا بسبب الإرهاق الشديد الذين كانوا يعانون منه على يد كبار الاقطاعيين ولأن هؤلاء الفلاحين كانوا - فى غالبيتهم - حديثى عهد بالإسلام. ولكن مثل هذه الدعوات لا يكتب لها النجاح فى عصر كان فيه الفكر الدينى هو المسيطر على الأذهان ويحدد العدو من الصديق فى غالبية الحالات، وكان الفكر الاقطاعى هو السائد حينذاك، واستطاع محمد أن يقضى على هذه الحركة، ولكن بعد جهد كبير (١٤١٨).

واجه محمد ثورة أخرى لها خطورتها تزعمها مطالب بالعرش ادعى أنه مصطفى بن بايزيد، ولكن لم يستطع مصطفى هذا أن يثبت طويلا أمام خصمه القوى.

وكان نجاح محمد فى إعادة السيطرة على الدولة العثمانيّة، وقضائه على الثورات الداخلية هو المهد الحقيقى لنمو قوة الدولة على يد خليفتيه أبنه مراد وحفيده محمد الفاتح محمد الثانى، فمراد استطاع أن يعيد تكوين وتثبيت الدولة وأثبت محمد الفاتح أن الدولة العثمانية أصبحت الوريث الواقعى للدولة البيزنطية فى البلقان بفتحه القسطينينية فى ١٤٥٣.

بعد وفاة محمد المفاجئة تولى ابنه مراد العرش فى ١٤٢١. وإذا كان عهد محمد الأول هو عهد إعادة الدولة إلى ما كانت عليه قبل نكبة انقره (١٤٠٢) ، فإن عهد مراد هو إعداد للدولة للمهام الكبرى التى كانت مسئولة عنها قبل تلك النكبة. ولهذا كان مراد معنيا بإعداد جيش قوى واقتصاد متين لدولته وحدود منيعة فى وجه أوربا المتوثبة ضده، وخاصة لصد قوة المجر المتصاعدة. إذ كان يتولى الدفاع عنها، واتخاذها قاعدة ضد الدولة العثمانية قائد صلب العود هو النبيل المجرى حنا هونيادى. فمع أن مراد استطاع أن يستولى عى سالونيك إلا أن هونيادى كان يوجه ضربات قاسية للجيوش العثمانية، حتى لقد شاع أن الرب هو الذى قيد له المسيح أن يخرج الأتراك من أوربا، وأن حملة صليبية جديدة، تسهم فيها أوربا، يمكن أن تحقق هذا الهدف المرحلى.

وحينذاك كانت الدعوة قوية فى الدوائر الدينية والسياسية الأوربية نحو اتحاد بين الكنائس الشرقية والغربية، ولهذا اتجهت الأفكار نحو عقد مجمع أساقفه فى فلورنسا فى ١٤٣٩، وفيه ووفق على مبدأ ارسال حملة صليبية

جديدة لاخراج الأتراك من الأرض الأوربية وتخليص القسطنطينية من الخطر المباشر الذى أصبح يهددها منذ ذلك التوغل العميق التركى فى البلقان.

ودعا البابا يوجين الرابع ملوك أوربا إلى المساهمة فى هذه الحملة الصليبية الجديدة. وفى أعقاب ذلك كانت قوات كبيرة تحتشد تحت قيادة فيلاديسلاف - ملك المجر وبولنده، وانضم إليها جورج برانكوفتش - أمير الصرب. كما شاركت قوات من الافلاق، وجماعات من الألمان، ومن الثوار البلقانيين ضد العثمانيين.

وفى موقعة نيش أحرزت الجيوش الصليبية انتصارا (نوفمبر تشرين الثانى ١٤٤٣) إلا أن المنتصرين لم يجنوا ثمار انتصارهم، فلم يتقدموا جنوبا صوب القسطنطنية ، وذلك بسبب صعوبة اجتياز البلقان فى الشتاء، كما يبدو أن تعدد القيادات فى الجيش الصليبى كان يوحى بالتروى عند اتخاذ قرارات خطيرة ضد الأتراك العثمانيين.

كانت هذه الهزيمة. والأخطار التى تهدد الدولة العثمانية على يد أمير قرمان دافعا لمراد كى يهدىء إحدى الجبهتين ليتفرغ لواحدة فقط. ولهذا عرض الصلح على القوى الأوربية بشروط مغرية، فوافق فيلاديسلاف على عروض مراد الثانى، ووقع الصلح لمدة عشر سنوات، واقسم هذا على القرآن، وذاك على الإنجيل بألا يحنث بالعهد.

شعر السلطان أن الأعباء عليه كبيرة، وأن الأجدى هو أن يتنازل عن العرش لابنه ليستريح هو فى مغنيسيا. ولكن الظروف كانت لا تعطى لا للسلطان ولا للدولة فرصة لراحة، وذلك لأن الزعامات المسيحية المسئولة عن شن الحرب

الصليبية عادت ونظرت إلى الموقف بعين المصلحة الخاصة بغض النظر عن تلك المعاهدة التى عقدت بين فلاديسلاف والسلطان محمد. وتزعم هذه الحركة الكاردينالسيزاريني.

كان الاعتقاد السائد فى الدوائر المعادية للعثمانيين أن موقف هؤلاء أصبح حرجا للغاية وأن دولتهم أضحت منهكة وأن أطرافها كلها معرضة للاقتطاع، وفوق هذا وذاك كانت توجد قوات كبيرة أوربية معسكرة فى البلقان يتعذر جمعها مرة أخرى، فضلا عن أن استمرار العمليات العسكرية الصليبية يجعل من الممكن تحريك ملوك أوربا نحو تقديم مساهمات جديدة وجدية للحرب الصليبية.

أدى كل هذا إلى أن يتنكر زعماء وملوك أوربا، بل والبابا نفسه لتلك المعاهدة التى وقعها فلاديسلاف وحللوا هذا النكث بالعهود بأن الاتفاق مع الكفار! لا قيمة لها وإنما المصلحة العليا المسيحية هى التى يجب أن توضع فوق أية اعتبارات أخلاقية.

اقتنعت الزعامات المسيحية المعسكرة فى البلقان بهذا التفسير وتحركت مشاعر ملك انجلترا وملك فرنسا، وكذلك تحركت حكومات البندقية وجنوه وفلورنسا - رغم ما بينها من منازعات - للمساهمة فى الحرب الصليبية الجديدة.

وبينما تزايد عدد المشتركين فى هذه الحملة الصليبية الجديدة، إلا أن عناصر لها شأنها من داخل المنطقة نفسها أبت المشاركة فى هذه الجولة. فقد رفض جورج برانكوفيتش المشاركة فى هذه الحرب الجديدة، وعلى منواله سار عدد من الزعماء المحليين فى البلقان.

كانت العمليات العسكرية الصليبية الأولى تشير إلى نجاح كبير متوقع لهذا الحلف الأوربى الكبير، خاصة وأن السفن التابعة للبندقية وجنوه تمكنت من السيطرة على المضايق مانعة بذلك الجيوش العثمانية العاملة ضد إمارة (قرمان) والمعسكرة فى آسيا من العبور إلى البلقان للمشاركة فى صد هذه الغزوة الصليبيةالكبيرة.

كان محمد الثانى قد تولى العرش، وكان لا يزال فى الرابعة عشر من عمره، وكان الخطر أكبر من قدراته. وكان وزراؤه يدركون عن حق أن المعركة القادمة معركة مصير. حقيقة لن تؤدى الهزيمة إلا إلى تراجع عن كثير من الأراضى البلقانية، ولكن الأناضول نفسه كذلك كان يعانى من ضغوط الإمارة التركية المنافسة قرمان .

فذهب الوزراء إلى مراد فى عزلته فى مغنيسيا، وسألوه أن يعود إلى الحكم وإلى القيادة انقاذا للدولة من خطر كبير محدق. ولبى الرجل الدعوة، وتولى زمام الأمور فكان هذا واحدا من الأسباب التى أعطت الجيش العثمانى الثقة فى النصر. وشكل السلطان مراد جيشا كبيرا، ضخم الأعداء، ولكن مما لا شك فيه أن الجيش الذى زحف تحت قيادة السلطان محمد كان أكبر مما توقعه قواد الحملة الصليبية، خاصة أنه قد اتضح قبيل المعركة أن الجيوش الصليبية أقل من تقديرات المسئولين عنها.

وكان من المفهوم أن الجيش الصليبى وهو يزحف صوب الجنوب سيجد نفسه بين أرض مسالمة وشعب يرحب بهم ولكن هذا الجيش الصليبى هو الذى قضى على هذه الميزة عندما أنزل العقاب بقسوة متناهية ببعض القرى المسيحية التى قاومته، وعندما استمرأ النهب والحرق وهو فى طريقه جنوبا. وهذا يرجع

إى أنه إذا كان المسلمون - فى نظر الكاردينال سيزارينى - كفرة، فمسيحيو البلقان الأرثوذكس هراطقة.

وإلى جانب هذا، كانت الخلافات بين قيادات الجيوش الصليبية تزداد عمقا مرحلة بعد مرحلة. وكانت تظهر خلافات جوهرية بين هذه القيادات حول الخطة التى يجب أن تنفذ ضد العثمانيين. كان هونيادى يدعو إلى شن حرب هجومية جسورة، وبينما كان قائد آخر يدعى فلاد دراكيل يفت فى عضد المقاتلين الأوربيين، ودعا إلى تأجيل الحملة إلى السنة القادمة حتى يمكن اعداد حملة ضخمة متماسكة، إلا أن وجهة نظر هونيادى هى التى تفوقت. ولكن كان هناك من يحسد هونيادى على ما حصل عليه من شهرة، ويسعى إلى أن يحل محله فى زعامة الحركة الصليبية الجديدة، ومن هؤلاء فلاديسلاف الذى كان يصر - بأى شكل - على أن يكون النصر باسمه، بعدم الخروج عليها.

وأخيرا وقعت المعركة فى ١٠ نوفمبر - تشرين ثانى ١٤٤٤ فى فارنا (ورنه)، فتهور فلاديسلاف فى هجومه دون ترو فسقط صريعا، وقطعت رأسه وعلقت على حربة مرتفعة وإلى جوارها حربة أخرى مرتفعة كان مثبتا على أعلاها نصا لمعاهدة الصلح التى أقسم فلاديسلاف على الإنجيل أن يحترمها.

أدى مصرع فلاديسلاف إلى اضطراب جيشه الذى فتك العثمانيون به، وبالتالى شاعت الفوضى فى القوات الصليبية كلها، وكان النجاح الصليبى فى هذه المعركة قاصرا على قيام هونيادى بجمع شتات بعض الجند ليفر بهم عبر الدانوب. واستطاع بعد عدة سنوات أن يعاود الهجوم على العثمانيين ولكن دارت عليه الدوائر فى معركة (كوسوفو) (١٧ اكتوبر ١٤٤٨) ولم يلبث أن مات بعد ذلك بسنوات قليلة.

كانت معركة فارنا (ورنه) آخر محاولة صليبية جماعية ضد الأتراك العثمانيين. وكانت أنباء النكبة - التى منيت بها القوات الصليبية - من العوامل الرئيسية التى جعلت الحكام الأوربيين يعتقدون أن فكرة الحرب الصليبية الأوربية غير مجدية، وبالتالى لم يعد هناك أمل أمام امبراطور القسطنطينية إلا أن يعتمد على نفسه وقوته للتصدى للعثمانيين عندما يهاجمونه. وحيث أن لا وجه للمقارنة بين قوة الامبراطور وقوة السلطان كان سقوط القسطنطينية بعد معركة (ورنة) أمرا متوقعا. وسيتولى هذه المهمة محمد الفاتح الذى سيستولى على القسطنطينية من يد قسطنطين باليولوج.

كان المدافعون عن القسطنطينية تحت قيادة امبراطورها قسطنطين باليولوج متعددى الجنسيات، وإن كانت الغالبية العظمى من هؤلاء المدافعين من سكان المدينة نفسها. كان فيها جنويون وبنادقة، يضعون مصلحتهم الخاصة التجارية فوق أية مصلحة، وبدا فى فترة من الفترات العصيبة - التى شدد فيها الأتراك حصارهم على العاصمة - انهم تناسوا ما بينهم من خلافات وأحقاد مريرة كانت تؤدى غالبا إلى اقتتال البنادقة والجنويين أينما التقوا. ولكن عمق هذه الأحقاد كان يدفع بالطرفين إلى أن يضرب بعضهم بعضا فى أدق المراحل وأشد الظروف خطورة حتى لقد كان الامبراطور نفسه ينزل إلى الشارع ليفصل بين الطرفين.

وكان هناك من بين المدافعين كاتالونيون وكاثوليك وارثوذكس ومن أتباع الكنيسة الاتحادية، ومفكرون احرار وانسانيون، وأراخنة بيزنطيون وقواد ايطاليون لجند من المرتزقة، كلهم اجتمعوا تحت لواء الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، وفى قلوبهم أحقاد فيما بينهم.

وكانت أشد مظاهر الحقد وضوحا تلك التى كانت بين الارثوذكس والكاثوليك، أو بمعنى آخر بين اليونان وفرنجة الغرب، أو بمعنى ثالث بين حضارة الشرق المسيحية وحضارة الغرب المسيحية.

كان الامبراطور يدرك عن حق أن العاصمة فى حاجة ماسة إلى نجدة عسكرية من الغرب ، وأدرك أن ذلك الصراع الطويل المذهبى الذى كان يتشدق به أباطرة القسطنطينية وبابوات روما وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة، دفعت الامبراطورية البيزنطية ثمنه غاليا وها هى تدفع حياتها كلها ثمنا له.

اقنعت المحنة قسطنطين باليولوج أن الأخوة والتعاون الأرثوذكسى - الكاثوليكى هو أحد الوسائل الجوهرية لانقاذ العاصمة من خاتمة مروعة. ولم يكن الرجل خياليا مثل رعيته التى استمعت بنوع من التصديق اللاشعورى إلى كلمات القساوسة وهى تؤكد قرب وقوع معجزة من السماء، على هيئة ملائكة، سيهبطون إلى الأرض لإبادة الأتراك إن وطئت أقدامهم أرض العاصمة.

كان قسطنطين واقعيا ويدرك أن الأسوار والسلسلة الطويلة التى أغلقت مدخل القرن الذهبى وعزيمة الرجال وحملة انقاذ من أوربا الغربية الكاثوليكية هى التى يمكن أن تدفع الأتراك بعيدا عن أسوار العاصمة. وهذا كان صادقا مع نفسه عندما تلقى البركة من يد الكاردينال الكاثوليكى (ايزيدور) ليقنع الناس أجمعين أن الأزمة فوق الخلافات المذهبية.

ولكن كان صدى هذه الحادثة سيئا للغاية بين صفوف العامة من رعية الإمبراطور فقد قيل أن نوتاروس - الدوق الأكبر وأعلى النبلاء مركزا بعد الإمبراطور صرح :

"إنى أفضل عمامة المسلم على قبعة الكاردينال الحمراء" وفى الشوارع تعالت احتجاجات الناس وعلى لسانهم كلمة الخيانة. فما كان للشعب أن ينسى تلك الأهوال والنكبات التى تحملها على يد الكاثوليك الغربيين، ولا تلك القرون الطويلة من العداء بين بيزنطة وروما. وإن كانت قسوة المحنة تنسى الشعب إلى حين تلك النكبات، وكانت أحيانا تذكره بها خاصة وأن ما جاء من الغرب كمساعدة للعاصمة القسطنطينية لا يتجاوز الخمسين رجلا.

أما فى الجانب الأقوى، وهو الجانب العثمانى فكان محمد الثانى شابا فتيا عندما اعتلى العرش. وبدا فى السنة الأولى من حكمه وكأنه سلطان مسالم يود التعايش مع القوى العديدة التى كانت تعادى الدولة العثمانية من قبل. فلقد تصالح مع هونيادى ومع صاحب صربيا ومع أمير ولاشيا ومع جنوه وفرسان رودس ومع راجوسا، ومع صاحب بولنده ومع صاحب البلوبونيز ومع أمير قرمانى، وإلى جانب هذا وذاك تصالح مع الإمبراطور قسطنطين باليولوج.

ولكن كان محمد الثانى حين أقدم على هذه الدبلوماسية الهادئة كان قد وضع نصب عينيه هدفا آل على نفسه أن يحققه ألا وهو فتح القسطنطينية نفسها. لقد كانت السنوات التى سبقت هجومه الأخير عليها سنوات إعداد وتنظيم وتجهيز لهذه الحملة الكبرى.

فتح القسطنطينية :

وكان الجيش الذى أعده محمد الفاتح لهذه المهمة كبيرا يصل إلى أضعاف أضعاف القوة المدافعة. وكان يستخدم كل جديد من فنون الحرب، وخاصة المدفعية، وآلات الحصار الضخمة، ولكن حقيقة القوة العثمانية كانت فى

الجند سواء الفرسان أو المشاة الانكشارية. كانوا مؤمنين بالإسلام عن عقيدة وبهدفهم وسلطانهم، كانوا يتطلعون إلى الشهادة فى تواضع. القائد لا يتورع عن اصلاح حدوة حصانه إن اختلت.

والانكشارى يرى جنات ربه وهو يتلوى محترقا تحت سيل من الزيت المغلى تصبه القوات المدافعة عن الأسوار. وإذا انفتحت ثغرة فى تلك الأسوار كان التكبير يتردد فى المعسكر التركى وكأنه زلزال الحشر، وبروح فدائية حقة كانت القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة فى آن واحد، تحثها استصراخات رجال الدين وسيرة المجاهدين من صحابة وآلاف المؤمنين الذين سقطوا من قبل تحت أسوار هذه العاصمة المنيعة.

كان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها وبالمهمة التى أعدوا لها. السيف سلاحهم والإسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وسيدهم. مثقفون متدينون. كانوا قبل المعركة، يستعدون للشهادة فيتطهرون ويسجدون لربهم فى صلاة خاشعة ويذكرونه فى إيمان بسيط وبنفوس صافية.

كانت هناك استعدادات يقوم بها محمد الثانى لتحقيق هدفه. ولكن دون أن يثير المخاوف الحقيقية المباشرة لدى الإمبراطور قسطنطين باليولوج وحاشيته، حتى انتهى إلى اتخاذ الخطوة قبل النهائية لضرب الحصار على العاصمة، وكانت هذه عبارة عن إنشاء قلعة "روملى حصار" إلى جوار القسطنطينية نفسها، وفى موقع جعلها المسيطر مباشرة على المضيق بحيث تجعل السفن الآتية من البحر الأسود تحت رحمتها، فإن هى دفعت الضرائب الجمركية والمكوس فيها، وإن هى رفضت أغرقتها مدفعية القلعة. وبذلك يكون محمد الثانى قد كسب موقعا استراتيجيا واقتصاديا فى آن واحد.

كان هذا العمل بمثابة النقطة الحرجة التى وصلت إليها العلاقات السلمية الحذرة بين الطرفين. كان محمد الثانى يرى فى هذه القلعة مقدمة لاسقاط المدينة فى يده، وكان الإمبراطور قسطنطين باليولوج يدرك هذا كذلك. وقرر الإمبراطور أن يوقف العمل فى هذه القلعة، فحذره بعض رجال بلاطه أن هذا لا يعنى سوى الإسراع بإعلان حرب غير متكافئة. وكان الإمبراطور يدرك هذا ولكنه كان يعتقد بحق أن لا قيمة لتأجيل الحرب، وفعلا أدى اعتراض الإمبراطور على أعمال بناء القلعة إلى الحرب، فكانت بداية النهاية.

كانت المدفعية سلاح حاسم فى الحصار إذ أخذت فى قصف أبواب وأسوار وأبراج المدينة ، ولكن الخطوة الحاسمة جاءت على يد البحرية العثمانية التى نقلت برا إلى القرن الذهبى خلف السلسلة العظيمة، وبذلك أصبحت العاصمة مهددة من كافة الجوانب. وكانت الكارثة كبيرة لأن الأسوار فى هذه الناحية البحرية كانت رديئة ولم يكن يعتمد عليها، لأنه كان من المستبعد جدا أن يهبط أسطول معاد القرن الذهبى وهكذا أصبحت العاصمة لأول مرة مهددة من البر والبحر على السواء.

توالى القصف والهجمات وتداعت الأسوار فى أكثر من مكان ومنعا لمزيد من سفك الدماء بين المهاجمين والمدافعين على السواء بعث السلطان محمد الثانى رسولا إلى الإمبراطور قسطنطين باليولوج يدعوه إلى تسليم العاصمة بالشروط التالية :

١- أن يخرج منها الإمبراطور وبلاطه بكل الأموال ويذهب إلى المورة ويحكمها تحت سيادة السلطان.

٢- أن لا يصاب سكان العاصمة - بعد دخول الأتراك إليها - بأى أذى.

ولكن الإمبراطور رفض إلا الدفاع عن عاصمته أو الموت فيها. فكان أن وقع الهجوم النهائى بعد ٥٣ يوما من الحصار، وفى هذا الهجوم تجلت فيه شجاعة وقدرات الانكشارية واستولى الجيش العثمانى عنوة على العاصمة وسقط امبراطورها قتيلا فانتهت بذلك سلسلة الأباطرة من آل باليولوج مع تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، لتصبح القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية (٢٩ مايو - أيار ١٩٥٣) لمدة خمسة قرون تقريبا حتى اتخذ كمال أتاتورك من أنقره عاصمة لتركيا فى مطلع العشرينات من القرن العشرين.

وتتحدث المصادر بكثرة عن تلك الحملة الصليبية التى أعدتها البابوية والبندقية لانقاذ القسطنطينية، والتى كانت مؤلفة من ثلاثين سفينة محملة بالجند والذخائر. وكانت هذه الحملة فى طريقها إلى القسطنطينية عندما ضيق محمد الثانى الحصار عليها، ويقال أن رياحا معاكسة عطلت سيرها وأخرت وصولها حتى بلغتها الأنباء - على يد الفارين من القرن الذهبى - بسقوط القسطنطينية.

كان محمد الفاتح قد عزم منذ البداية على أن يجعل من القسطنطينية عاصمة لدولته، ولهذا عنى بأن تعود إليها الحياة بسرعة، وأن تفيد من كافة المزايا العسكرية والاقتصادية التى كانت، بل ومن المزايا الجديدة التى هيئت لها. وكان يدرك أن رعيته المسيحية بها تشكل جانبا نشطا من جوانب المدينة ويجب الاحتفاظ به وإعطائه دفعة جديدة لمتابعة العمل والنشاط حتى تصبح العاصمة الإسلامية الكبرى قاعدة الحكم والثروة فى آن واحد. ولهذا أقدم على عدة خطوات ساهمت عى سرعة انتعاش العاصمة ورقيها.

١- كانت مسئوليات العاصمة كبيرة، ولا يمكن أن يقوم بها شعب قليل العدد تبقى بها بعد ذلك الحصار الدموى المخرب، وكان كثير من الجماعات الإسلامية تدرك قيمة الانتقال إلى هذه العاصمة الجديدة للإفادة من قيمة موقعها التجارى من جهة. ومن الفرص العديدة التى تسنح من الوجود بالقرب من الحكومة المركزية. واستمرت هذه الهجرات الإسلامية إلى العاصمة حتى أصبحت عاصمة إسلامية تماما. ومع هذا لم يهمل محمد الفاتح أمر سكانها اليونان الأصليين الذين سبق أن فروا منها خلال ذلك الحصار المدمر أو أولئك الذين بقوا فيها عند الفتح. فقد شجع هؤلاء وهؤلاء على العودة إليها والاستمرار فى البقاء بها والعودة إلى مزاولة نشاطهم بل وبدرجة أكثر عن ذى قبل.

٢- كان فى حى غلطه - أحد أحياء القسطنطينية الرئيسية - جالية جنوية كان لها الدور الكبير فى تنمية تجارة المدينة، ولهذا عمل على أن يبقى الجنويون فى حيهم، فأبقى ما كان لهم من امتيازات وزاد عليها فكانوا بذلك أداة لتنمو ثروة العاصمة وفى نفس الوقت كانوا أداته للاتصال بالدول الأوربية. وهناك من يرى أن هذه المعاملة اللينة التى نعم بها الجنويون ليست سوى نتيجة موقفهم الخائن - أو على الأقل - المحايد خلال الحصار العثمانى للعاصمة.

ولقد سار محمد الفاتح على أسس سياسة دينية رائعة، أساسها التسامح وأن لا إكراه فى الدين، حتى يقلل من نفقات الاحتلال العثمانى للبلقان إلى أقل درجة ممكنة، وحتى يمكن الإفادة من هذه العناصر التى أصبحت تكون رعية السلطان المسئولة عن استثمار البلاد اليونانية والبلغارية. ولهذا أبقى المسئوليات الدينية لليونانيين فى يد الكنيسة وعلى رأسها بطريرك الروم، بل وأضاف إليها سلطات مدنية. لقد كانت سياسة محمد الفاتح الدينية السمحة لا مثيل لها فى بقية مناطق الصدام بين المسلمين والنصارى.

كان لسقوط القسطنطينية دوى كبير سواء فى الشرق أو فى الغرب. فقد طربت القاهرة عندما أتتها هذه الأنباء، واتخذت زينتها. وكان هذا فى حقيقة الأمر اعدادا للأذهان لتقبل الزعامة التركية الإسلامية الناشئة. فمنذ سنوات طويلة لم تحرز أية دولة إسلامية انتصارا مدويا كهذا.

وكان سقوطها كذلك سببا فى أن يضطر بعض أمراء البلقان - مثل برانكوفتش أمير الصرب - إلى إعلان الخضوع للسلطان. وإن كان مستعدا لأن ينفض هذه التبعية إذا ما وجد مشجعا له على ذلك.

وكان جورج كاستريوتا (اسكندر) فى البانيا على نفس المستوى من التفكير الذى كان لدى برانكوفتش.

أما أمراء ولاشيا وملدافيا (الافلاق والبغداد) فقد قبلوا السيادة العثمانية غير المباشرة نكاية فى خصمهم التقليدى : المجر، ولكن كانوا كذلك لا يتورعون عن استخدام المجر وبولنده ضد الدولة العثمانية كلما سنحت الفرصة.

وقبل شقيقا الإمبراطور قسطنطين باليولوج - اللذان كانا فى المورة - أن يكونا تابعين للسلطان كما فضل حكام خيوس ولسبوس - وكانوا جنيويين - دفع الجزية السنوية له.

وتابع محمد الثانى سياسته السلمية وتحركاته الدبلوماسية فى البلاطات المعادية للدولة العثمانية أو الحاقدة الناقمة عليها. فقد عقد مع جنوه معاهدة فى ١٤٥٤ كذلك عقد محمد الثانى اتفاقية سلمية مع دوق ناكسوس.

وهكذا كانت سياسة الأتراك فى البلاد البلقانية التى وقعت تحت سيطرتهم تنم عن بعد نظر ورغبة فى جعل هذه البلاد أرضا مسالمة لا خاضعة فقط. وكما

يقول توينبى كانت سيطرتهم على البلقان بطريقة جعلت شعوب البلقان المسيحية متعلقة بالسلام العثمانى على نسق السلام الرومانى . هذا السلام لم يكن قائما على أساس الدبلوماسية، وإنما كان سلاما مفروضا يمنع قوى البلقان من أن تصبح شوكة فى جانب الدولة العثمانية.

أدى هذا الاتساع والنمو فى مكانة الدولة العثمانية إلى أن تشعر بعض الدول بأن الخطر العثمانى قد أصبح داهما ونعنى بذلك الصرب والمجر والبندقية. وكانت الأخيرة صاحبة النفوذ الأكبر على سواحل البلقان عسكريا واقتصاديا. وإلى جانب هذه الدول كان يوجد جيب صغير فى (طرابيزون) التى كانت لا تزال تحت حكم أسرة (كومنين).

وبجانب هذه القوى المسيحية المناهضة للدولة العثمانية، كانت توجد دولة فتية ولكن عشائرية تركمانية قد اتسعت فى الشرق من الأناضول، وهى دولة الآق قوينلو بزعامة أوزون حسن (أى حسن الطويل). وكان أوزون حسن على دراية بمشاكل محمد الثانى مع عدد من القوى المسيحية. وكان فى نفس الوقت واسع الآمال طموحا.

هذه هى القوى التى وجد محمد الثانى نفسه مضطرا لقتالها بعد فتحه القسطنطينية. وكانت أسباب الصدام متوفرة مع أى منها. ولكن الذى مكنه من إحراز النصر بعد النصر أو منع العدو من الحصول على مكاسب واسعة من وراء أى انتصار يحرزه، الذى مكنه من ذلك تباعد مراكز أعدائه، وعدم القدرة لديهم عى حشد جيوشهم فى مكان واحد، وعدم قدرتهم على الارتفاع إلى مستوى تنسيق عملياتهم العسكرية، رغم وجود فكرة التحالف بين هذه القوى أو بعضها لمواجهة هذا العملاق الفتى العثمانى.

فالصرب كانت تقع بين ممتلكات محمد الفاتح (محمد الثانى) والدولة الصليبية العنيفة المجر تحت قيادة المقاتل العنيد هو نيادى. وأصر محمد الفاتح على أن تكون له وحده السيادة على الصرب على اعتبار أن أى أمير مسيحى على هذه البلاد لن يتوانى عن التعاون مع القوى المسيحية التى تتحالف فى هجوم ضد الدولة العثمانية. ولهذا شرع محمد افاتح فى فرض سيادة كاملة على الصرب بينما التجأ برانكوفتش إلى هونيادى وتعاونا فى مقاومة ناجحة فى أول الأمر ضد الجيوش العثمانية وكان لديهما أمل فى وصول إمدادات صليبية من أوربا الغربية. ولكن أصبح الحديث عن حملات صليبية مجرد استهلاك محلى فى مختلف بلاطات أوربا، بينما كان محمد الثانى يستعد لمعركة كبيرة ضد الصرب والمجر وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه بسبب وفاة خصميه الكبيرين هونيادى وبرانكوفيتش فى سنة واحدة، ودبت الفوضى فى حكومة بلغراد بسبب تنازع ورثة برانكوفيتش فيما بينهم على التركة الأمر الذى مكن السلطان محمد الفاتح من أن يضع يده على بلاد الصرب فيما عدا بلغراد التى ظلت تحت يد المجر وظلت بعيدة عن متناول العثمانيين زهاء ستين سنة.

وفى ١٤٦٣ وقعت البوسنة (بلاد البشناق) فى يد السلطان محمد الفاتح بسهولة وذلك لوجود جماعة مليه عرفت باسم بوجميل كانت قد تعرضت لاضطهاد شديد من جانب رجال الدين الكاثوليك والأرثوذكس على السواء، حتى أصبحت هذه الجماعة شديدة البغض للمسيحين متطلعة إلى الأتراك العثمانيين ليس فقط لأن الأتراك يستطيعون انزال القصاص بخصومهم بل لأن مبادئ هذه الجماعة كانت تلتقى مع الإسلام فى أشياء كثيرة. ويلاحظ أنه بعد أن سيطر العثمانيون على البوسنة دخلت هذه الجماعة، وأعداد كبيرة من الشعب فى الدين

الإسلامى، وإلى جانب هذا دخل عدد كبير جدا من النبلاء - يتبعهم أتباعهم فى الإسلام حتى يحتفظوا بامتيازاتهم وأملاكهم.

أما بقية البوسنة فظل مسيحيا ولكن موزعا بين المذهبين المتنازعين : الأرثوذكس والكاثوليك، ولا تزال البوسنة على هذا الحال حتى النصف الثانى من القرن العشرين.

وكانت البانيا فى موقف مشابه لموقف الصرب، كانت بين الدولة العثمانية والبندقية. وكانت العداوة شديدة بين البندقية والدولة العثمانية حيث كان التوسع العثمانى فى البلقان يعنى اغلاق مجالات حيوية تعمل فيها البندقية. وقد بذل العثمانيون جهودا كبيرة من أجل القضاء على اسكندر بك، ولكن لم يستطع العثمانيون فرض سيطرتهم على ألبانيا إلا بعد موت هذا الرجل العنيد (١٤٦٧م). ومثلما حدث فى البوسنة دخل العديد من النبلاء الألبانيين وأفراد الشعب فى الدين الإسلامى. ويلاحظ أن عددا ليس بالقليل من موظفى الدولة العثمانية ومن الصدور العظام وكبار القواد كان من هؤلاء الألبانيين، كذلك ستكون ألبانيا من أكثر مناطق الدولة العثمانية شغبا وتمردا على الحكومة العثمانية.

خسرت البندقية بوفاة اسكندر بك حليفا شديد الوطأة على الأتراك، ولكنها وجدت فى أوزون حسن - زعيم تركمان الآق قوينلو - حليفا قويا يهدد الأناضول من الشرق. وفعلا كان الصراع بين أوزون حسن والسلطان العثمانى طويلا ومريرا، ورغم الانتصار الذى أحرزه السلطان على أوزون حسن فى ١٤٧٣ إلا أن دولة الآق قوينلو ظلت شوكة فى جنب الدولة العثمانية. حتى قدم القدر خدمة جليلة بموت أوزون حسن (١٤٧٨) وتفككت دولته من بعده.

ولهذا كان من مصلحة البنادقة أن يعقدوا صلحا مع السلطان وتم ذلك فى ٢٦ يناير - كانون الثانى ١٤٧٩، وهو الصلح الذى جعل اليد العليا للعثمانيين فى البانيا والمورة، ودفعت البندقية مبلغا كبيرا من المال فى مقابل حقها فى المتاجرة فى الليفانت وفى إقامة قنصل لها فى غلطة ضاحية القسطنطينية.

كان هذا الصلح اطلاقا للجيش العثمانى للعمل فى المورة. فاستولى على زنته وسان مورى ، وحاولت قوات عثمانية النزول إلى الساحل الايطالى عند اوترانت ، ولكن كان ذلك مجرد هجوم عاصف غير مستقر.

كانت مصالح الجنويين قد تعرضت هى الأخرى للمخاطر بسبب ذلك النمو فى الدولة العثمانية، إذ استصرخ زعماء المسلمين فى القرم السلطان العثمانى - الذى أصبح قبلة الزعامات الإسلامية المستضعفة - ضد الجنويين المسيطرين على اقتصاديات المنطقة بواسطة الميناء (كافا) فرد السلطان بالاستيلاء على هذا الميناء، وقضى نهائيا على الوجود الجنيوى فيه.

ولكن ظل الاتصال غير مباشر بين الممتلكات العثمانية فى البلقان وخانية القرم حتى تمكن بايزيد الثانى - خليفة محمد الفاتح - من التوسع على حساب (ملدافيا) - بالتعاون مع خان القرم، وأمكن بذلك الاستيلاء على أكرمان فى (١٤٨٤م) التى ربطت بين الحليفين، والتى مكنت العثمانيين بعد ذلك من ارسال الحملات ضد بولندة.

كما أدى هذا التوسع العثمانى فى اتجاه القرم إلى أن تحتك الدولة العثمانية بالدويلة الناشئة الروسية. وأخذ التجار والسفراء الروس يأتون إلى الأستانة للحصول على تسهيلات جارية .

إنجازات محمد الثانى :

١- لقد صفى محمد الثانى الكثير من الجيوب التى كانت بمثابة شوكات فى جنب دولته.

٢- وصلت حدود الدولة العثمانية إلى مسافات عميقة للغاية فى شرق أوربا فضلا عن سيادة أسمية فى ولاشيا وملدافيا وفى القرم.

٣- كانت الدول التى واجهت الدولة العثمانية وتريد صدها عن البلقان تواجه مشكلات معقدة. فالبندقية - أشد القوى عداوة لها -لا تستطيع أن تنزل جيشا ضخما بريا وإنما كانت تسعى إلى حليف على الأرض البلقانية مثل المجر أو أوزون حسن. أما الآق قونيلو فتلاشت بوفاة هذا الرجل، أما المجر فحملت عبء المقاومة ومسئولية أوربا فى شن الحروب الصليبية ودفع ثمنها. وكان الثمن غاليا. ولهذا ستستمر الحروب بين الدولتين العثمانية والمجرية. وقد أراد بايزيد الثانى - خليفة محمد الفاتح أن ينتهز فرصة وفاة ملك المجر ميناس كورفون فى ١٤٩٢ وليستولى عليها، ولكن الحرب الجديدة كانت أقرب إلى المذابح المتبادلة بين الطرفين. كما كانت الحملات المتبادلة بين الدولة العثمانية والبندقية على هذا النحو.

٤- أن فتوحات محمد الفاتح - رغم أنها كانت فى أرض معادية غير إسلامية، ورغم أن البلقان ظل مسيحيا فى غالبيته العظمى بعكس الأناضول ، فإنها ظلت تحت الحكم العثمانى حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨.

٥- لقد أدت تلك المكانة الرفيعة التى حصلت عليها الدولة العثمانية بعد سقوط القسطنطينية، والصدى المدوى فى أوربا لهذا الحدث إلى أن تتخذ الدول

الأوربية سياسات معينة إزاء الأتراك : أما صداقة مبطنة بالمؤامرات أو عداوة عنيفة. ومن النوع الأول البابوية وفلورنـة وبيزا ونابلى وفرنسا بل والإمبراطورية الرومانية المقدسة فى بعض الأحيان على أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت - بسبب طبيعة تكوينها وموقعها - تشعر بأنها هى المسئولة عن طرد الأتراك من أوربا على الأقل.

٦- كانت جهود محمد الفاتح . ومن هم قبله من سلاطين الأتراك. مركزه على الجهاد ضد الفرنجة فى البلقان، وكذلك كان خليفته بايزيد الثانى. بينما كانت أراجون وقشتاله بزعامة فردينان وايزابيلا تشن حربا لتصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس وعندما توالت الاستنجادات على بايزيد لم يفعل سوى ارسال اسطوله يروع السواحل الأسبانية. دون أن يحول ذلك دون سقوط غرناطة بشكل مأساوى مشابه لذلك الذى حدث للقسطنطينية قبلها.

٧- كانت صفة الجهاد فى سبيل الله التى ارتبطت بتاريخ الأتراك العثمانيين وأعطتهم السمعة العظيمة فى مختلف البلاطات الإسلامية تقابل بكل ترحيب من تلك البلاطات حتى سقوط القسطنطينية. فقد رحبت القاهرة وباركت مكة المكرمة هذا النصر، ولكن بمرور السنين، بدت هذه الدولة العثمانية قوة كبيرة تحسدها الدول الإسلامية الأخرى وخاصة دولة المماليك فى مصر والشام.

حقيقة لم يقع الصدام بين السلطان محمد الفاتح ومماليك مصر، ولكن وقعت الحرب بين بايزيد الثانى والسلطان المملوكى بسبب استيلاء الأخير على أراض فى كيليكيا وعلى مدن واقعة تحت نفوذ السلطان العثمانى. وبدا واضحا أن الطرفان وإن سعيا إلى الحرب إلا أنهما كانا يريدان ايقافها فى أقرب

فرصة. فبعد معركتين متتابعتين فى ١٤٨٩و١٤٩٠ لغير صالح الأتراك العثمانيين عقد الصلح بين الدولتين حقنا لدماء المسلمين، وكان هذا بداية للعلاقات العنيفة بين العثمانيين والمماليك.

كذلك يلاحظ أن محمد الفاتح لم يكن سلطانا محاربا فقط، بل كان معنيا بالقانون والتشريع، على اعتبار أنهما مسئولان عن تسيير عجلة الدولة بانتظام ويحول دون تطور أمورها إلى فوضى واضطراب. حقيقة هناك غموض فيما جاء فى مؤلفات المؤرخين بشأن قيام محمد الفاتح بترتيب القانون العثمانى (قانون نامه)، وأن هناك جمهرة من المؤرخين يسندون ذلك العمل الجليل إلى سليمان الأول الذى وصف بأنه سليمان (القانونى). ولكن مما لاشك فيه أن النظم التى وضعها محمد الفاتح لإدارة دولته ظلت سارية المفعول وكانت من أسباب قيام الدولة من بعده بمجهودات كبيرة جعلتها أكبر دولة إسلامية وأعظمها زمن سليمان القانونى.

وإذا كان هناك بعض الشك فى ذلك العمل القانونى الجليل فإن الأعمال المعمارية الرائعة التى تمت فى عهد محمد الفاتح تثبت ـ بما لا يدعو للشك ـ أن هذا السلطان ـ وكذلك خليفته بايزيد الثانى ـ على فكر حضارى راق. فتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد على أسس معمارية إسلامية راقية، وبنائه العديد من المساجد والتحف الفنية المعمارية، وفتح المدارس والمكتبات والحمامات والمستشفيات بكثرة لم تشهدها العاصمة القسطنطينية من قبل، وقصره الرائع بها، وقلعة الأبراج السبعة الرهيبة وأحواض بناء السفن ودور الصناعة، كل هذا يدل عى مقدرة تركية فذة للأخذ بالحضارات والاقتباس منها وادخال التحسينات عليها.

هناك دراسات عديدة وضعت لتفسير طول عمر هذه الإمبراطورية العثمانية التى قامت على أكتاف رعاة وفدوا من سهول آسيا.

ويرى توينبى أن إمبراطوريات - ومنها الدولة العثمانية - ليست سوى إمبراطوريات طفيلية سرعان ما تنتهى وتنقرض إما عن طريق ذوبان الرعاة فى البيئة الحضرية الزراعية التى يتسلطون عليها أو عن طريق طردهم منها مثلما حدث لإمبراطوريات الهكسوس فى مصر والمغول فى ايران والعراق والهون أيام أتيلا. أما الأمر بالنسبة للعثمانيين فيختلف حيث أن عمر إمبراطوريتهم كان طويلا. وبحث توينبى عن السبب فى اختلاف المصير هذا. وتوصل إلى أن السبب فى طول بقاء الدولة العثمانية تلك القرون العديدة، هو اكتشاف العثمانيين طريقة مبتكرة لم يهتد إليها غيرهم من بناة إمبراطوريات الرعاة ألا وهو ابتداعهم نظام الانكشارية.

وكان هؤلاء الانكشارية فى وجهة نظر توينبى مجرد (كلاب للحراسة) وحفظه للدولة العثمانية من أعدائها من خارجها أو من داخلها. حقيقة كان هؤلاء الانكشارية، وكذلك الفرنسان السباهية الأتراك الذين يتكون منهم القسم الثانى فى الجيش العثمانى، درعا عويا للإمبراطورية. ولكن ليسوا كل شىء فيها أو السبب الحقيقى بقائها مدة طويلة. فهم من ناحية لا يمثلون إلا قسما من أقسام الجيش العثمانى، وإن كانوا أكثر تطورا وأعلى مستوى فى الحركة العسكرية، وأقوى تسليحا من حيث الأسلحة النارية الصغيرة والكبيرة. ومع هذا فقد تدهور نظام الانكشارية تدهورا شديدا منذ القرن السابع عشر وأصبح من بعد ذلك أداة هدم وضعف فى الدولة ومع هذا عاشت الإمبراطورية العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى.

والواقع أن هناك أسبابا رئيسية أخرى لعبت الأدوار القوية فى نمو وطول عمر الدولة العثمانية. وأولى هذه الأسباب أن هذه الإمبراطورية ليست إمبراطورية رعاة. وإنما وقع المؤرخون فى لبس بين الإمارة العثمانة الأولى فى شمال الأناضول فى القرن الرابع عشر وما تطورت إليه هذه الإمارة بسرعة إلى دولة لا تمت إلى الصفة الرعوية بشىء.

فلقد فقدت الإمارة العثمانية صفتها العشائرية بسرعة، ولم تعد إمارة رعوية وتحولت إلى إمارة محاربين مقاتلين غزاة مجاهدين فى سبيل الله. وأخذت هذه الإمارة تعتمد على الهجرات التركية الجديدة الوافدة عيها، وعلى اقتصاديات الزراعة فى منطقتها، تلك الاقتصاديات التى تختلف اختلافا واضحا عن الاقتصاديات الرعوية فى سهول آسيا.

فأسلوب الرعى والزراعة فى وديان الأناضول تختلف اختلافا ضخما عن أسلوب الرعى فى تلك السهول. ومجرد التأقلم مع البيئة الأناضولية الجديدة كان كافيا لأن يجعل الأتراك العثمانيين يتركون الكثير من تقاليدهم الرعوية وأن ينخرطوا فى نظم حضارية أكثر فائدة لهم فى بيئتهم الجديدة الأناضولية التى كانت موطن حضارات مختلفة متعاقبة معلمة. فكثير من النظم التى أخذ بها العثمانيون فى حكم وإدارة إمارتهم كانت مستمدة من النظام السلجوقى أساسا وبعض الأنظمة البيزنطية.

ثم إن دخول الأتراك فى الإسلام ، وقيامهم بدور المجاهد الأول فى سبيل الله أمام الإمبراطورية البيزنطية لمدة طويلة أكسب هذه الدولة العثمانية أصالة فى الإسلام ومكانة فى النفوس جعلت انهيارها ملازما فى بعض الأحيان لانهيار المسلمين قاطبة. فكانت هذه الدولة قوة روحية كبيرة أصيلة تستطيع أن

تعتمد على هذه المكانة الروحية من وقت لآخر لإعادة تنظيم نفسها والوقوف على أقدامها كلما تعرضت لنكسة شديدة.

ثم إن الإسلام نفسه وحضارته طورا الفكر التركى ونماه حضاريا واقتلع منه جذور البداوة وغرس فيه روح التنظيم والتدبر وأسس السياسات العليا التى يجب أن يهتدى بها كل مسئول عن الرعية الإسلامية، وبالذات الدفاع عن الإسلام ضد الصليبيين وضد المنحرفين عن الطريق المستقيم. ومثل هذه الأهداف السامية كفيلة بأن تبعد الناس، حكاما وشعوبا، عن روح البداوة إلى روح الحضارة والتطور.

ولقد كان العثمانيون فى قرونهم الأولى بالذات مقبلين على الاقتباس والتطوير لمواجهة متطلبات دولتهم النامية. فكانوا يقدرون قيمة الاقتباس من الحضارات الأخرى الشرقية والغربية على حد سواء. ومن ذلك أنهم أخذوا عن الإمبراطورية البيزنطية بعض النظم الضرائبية وبعض فنون هندسة البناء . وكانت ثقافة العثمانيين الأدبية مليئة بالفكر الفارسى والعربى ويكتبون بالفارسية والعربية والتركية أشعارا ودواوين لا تزال خالدة. بل لقد أسرف البعض فى هذا حين قال أن العثمانيين تاثروا بحركة النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر.

الفتوحات العثمانية

فى البلاد العربية

هناك اتجاه شائع فى المؤلفات يركز على وصف بايزيد الثانى بأنه سلطان مسالم، أراد أن يهدىء المنطقة من تيار الحروب الجارف الذى لفها خلال القرن الخامس عشر. ومع أن بايزيد الثانى كان مستعدا لشن الحرب إذا تصور أنها مجدية، مثلما فعل مع المجر ومع بولنده وضد ايطاليا ومماليك مصر. فلا شك أن بايزيد الثانى كان ينظر إلى الأمور بعين تختلف عن عين أبيه محمد الفاتح، كان محمد الفاتح مضطرا لتصفية الجيوب العديدة المعادية فى دولته أو حولها وهذا ما كان ليتم الا بضرب القوى المتحالفة مع تلك الجيوب أيضا. أما وقد توصلت الدولة إلى حدود ثابتة مترامية فالأجدى أن تبذل الجهود لصيانتها وتقويتها حتى لا يصبح هذا الاتساع عبئا على الدولة نفسها. ولعل هذا هو الذي جعله يسعى إلي التفاهم وديا مع القوى العديدة المجاورة له.

فقد زوج واحدة من بناته لوريث عرش فارس. كما زوج بنت أخيه إلي سلطان مصر. وتبادل السفارات الودية مع الدول المسيحية المجاورة.

وقد نجح بايزيد الثانى فى تحقيق هدفه من وراء هذا السلم الحذر، خاصة من حيث نمو علاقاته الدبلوماسية مع الدول المجاورة والكبيرة. كما كان السلم الطويل نسبيا فرصة لتركيز بعض العناية على المشروعات المعمارية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية على نفس الخطة التى سار عليها أبوه محمد الفاتح. ولكن هذه السياسة السلمية - فى نفس الوقت كانت فرصة يمكن أن يستغلها خصوم الدولة العثمانية وبوجه خاص الزعيم الجديد القوى الداعية إلى المذهب الشيعى

الاثنى عشرى "الشاه إسماعيل الصفوى " مؤسس الدولة الصفوية فى إيران، الذي دفع بدعاته بنشاط إلى الأناضول فحصلوا على أنصار عديدين هناك الأمر الذى يُهدد الدولة العثمانية فى عقر دارها : (الأناضول).

وهذه السياسة السلمية وهذه الانتهازية من جانب الشاه إسماعيل الصفوى. وضعف شخصية بايزيد الثانى أمام أولاده المتنافسين على العرش فى حياته وورطه فى حرب أسرية كان النصر النهائى فيها لابنه سليم، القوى الشكيمة الذي أيدته قطعات الانكشارية ورفعته إلى العرش فى ١٥١٢.

وبتولى سليم الأول العرش، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية تتحول فيها من دولة إسلامية تركية - بلقانية إلى دولة إسلامية عامة تمتد من شمال البلقان حتى البحر العربى من حدود فارس حتى مراكش.

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول - الذي عرف بياوز - هى الخطر الذى كانت تشكله الدولة الفتية الشيعية فى فارس بزعامة الشاه إسماعيل الصفوى، فما أن سيطر الشاه على فارس حتى تطلع إلى العراق الذي كان لا يزال بيد (مراد بن يعقوب ميرزا) أحد أولاد أوزون حسن، وكانت تطلعات الشاه للعراق نتيجة لمجموعة من الدوافع المذهبية والسياسية والاقتصادية.

فمن حيث الدوافع المذهبية كانت حركة الشاه إسماعيل تعتمد على الدعاية الشيعية الاثنى عشرية. ومن ثم كانت سيطرته على كل من كربلاء (مرقد الإمام الحسين) وعلى النجف (مرقد الإمام على) تعطى لحركته دفعة قوية من النشاط، فضلا عن أن السيطرة على العتبات المقدسة في العراق تحقق أملا مذهبيا كبيرا يخفى وراءه أهدافا اقتصادية أكبر فالعراق الخصب الزراعى يمكن أن يسد

الكثير من حاجات سكان الهضبة الايرانية الفقيرة وفوق هذا وذاك فإن الاستحواذ على بغداد ـ قلب العالم الإسلامى ـ يعطى للشاه إسماعيل الصفوى مكانة رفيعة لدى المسلمين.

وكان مراد بن يعقوب يدرك تماما أنه أعجز من أن يقف وحده أمام أطماع الشاه. ولذلك استنجد بإمارة ذى القدر ـ الواقعة في جنوب غرب الأناضول بين ايران والشام. ولكن إمارة ذى القدر كانت فى سنوات شيخوختها وأعجز من أن تقدم مساعدتها لبغداد.

فاتجه مراد بن يعقوب ـ آخر حكام بغداد من الآق قوينلو ـ إلي السلطان قانصوه الغورى الذى يعيش الخليفة العباسى فى كنفه والذى يتربع على سلطنة مصر وصاحب الشام وحامى حمى الحرمين الشريفين وأمل المسلمين فى كفاح الفرنجة.

ولقد كان قانصوه الغورى يدرك خطورة استيلاء الشاه إسماعيل الصفوى السريع على ايران وأنه أمام زعيم شديد المراس سينافسه في منطقة المشرق العربى فاتخذ بعض الإجراءات التمهيدية لاعداد حملة ضد الشاه وفرضوا الأموال على أهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التى ستعسكر فى حلب استعدادا لخض شوكة "إسماعيل شاه الصوفى".

ولكن هل كان السلطان قانصوه الغورى مستعدا لنجدة مراد بن يعقوب وانقاذ العراق من "الصوفى"؟

والواقع أن الظروف العامة التى كان يواجهها الغورى حينذاك كانت لا تسمح له إلا بمناورات عسكرية فقط دون أن تورطه فى حرب حقيقية ضد الشاه

فقبل ذلك بوقت قصير كان "فاسكوا دا جاما" قد نجح فى الوصول إلى الهند بطريق رأس الرجاء الصالح.

وسرعان ما ضرب الأسطول البرتغالى حصارا حول السواحل العربية وأغلق مداخل البحر الأحمر والخليج العربى وأخذ كل سفينة عربية وإسلامية غصبا وحول التجارة الشرقية عن طريق مصر إلي طريق رأس الرجاء الصالح - أوربا. ولذلك انشغل السلطان قانصوه الغورى باتمام التجهيزات الحربية لارسال الحملات البحرية الكبرى ضد الأسطول البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية، ولتقوية الدفاع عن الأراضى المقدسة الحجازية وعن مفاتيح البحر الأحمر فى اليمن. كل هذا جعل السلطان الغورى يفضل الا يفتح على نفسه جبهة جديدة غير مستعد لها وترك صاحب العراق يدبر أموره بنفسه. ولذلك لم تكن مهمة الشاه صعبة خلال عملياته العسكرية التى انتهت بالاستيلاء على العراق فى ١٥٠٨م.

وذهب الشاه إسماعيل بنفسه إلي العراق متفقدا حاجا إلى العتبات المقدسة الشيعية فشق قناة للمياه إلي النجف عرفت باسم نهر الشاه، وعمر مراقد الأئمة الشيعة وانقلب على علماء المذهب السنى هادما مقابرهم سافكا دماءهم، عاملا على أن يصبغ العراق بالصبغة الشيعية بكل ما أوتى من أساليب وإمكانيات.

وانتفخت أوداج الشاه بعد أن وجد نفسه سيد بغداد والعراق دون أن تتحرك ضده أى من الدولتين الكبيرتين السنيتين اللتين أصبحتا تطلان على دولته من شمال ومن غرب وهما :

١ـ الدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان.

٢ـ الدولة المملوكية فى الشام والحجاز ومصر.

ولذلك مد الشاه أبصاره إلى ما وراء العراق لعله يستطيع أن يحقق آمال الشيعة البعيدة فى إقامة دولة شيعية كبرى فى المنطقة.

فمن قواعده فى العراق وضع الشاه إسماعيل الصفوى سياسته التوسعية على أساسين :

١ـ التحالف مع القوى المعادية للدولة العثمانية وللدولة المملوكية.

٢ـ نشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى ، فلقد بعث برسله إلى أوربا مفاوضا بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونا على سلطان مصر وأنهم (يجيئون) من البحر ويجيء هو من البر فى حركة كماشة تؤدى إلى سقوط الدولة المملوكية ليقتسمها الشاه مع ملوك الفرنج بأن تكون مصر من نصيبهم بينما يستحوذ هو على الشام مطالا بذلك على البحر المتوسط كما أنه بذل مجهودات كبيرة جدا لنشر المذهب الشيعى الاثنى عشرى فى الأناضول التركى ليجتث بذلك الدولة العثمانية السنية من أصولها حيث أن الأناضول هو البيئة التى نمت فيها وتعتمد عليها الدولة العثمانية.

ولا شك أن وجود السلطان بايزيدالثانى (١٤٨١ـ١٥١٢) اللين العريكة على العرش العثمانى أطمع الشاه إسماعيل فى مضاعفة جهوده فى تحويل الأناضول إلى المذهب الشيعى، خاصة وأن تلك الجهود كانت تلقى نجاحا متتاليا.

وبينما لم يقدر بايزيد الثانى خطورة هذا التحول نحو المذهب الشيعى كان ابنه سليم - حاكم طرابزون - شديد الحساسية لهذا التحول حتى أنه لم يتوان عن شن الهجمات ضد الفرس ليخض شوكتهم. فأصبح بذلك أمل القيادات العسكرية العليا الانكشارية فى وقف الخطر الشيعى. فكان أن تهيأ بذلك فرصة القيام بانقلاب عسكرى وتم بنجاح فى ١٥١٢ وتسلم سليم الأول العرش من أبيه ليبدأ سياسة عثمانية جديدة إزاء المشرق العربى.

والحق أن قوى المشرق بدت لسليم الأول وكأنها قوى عدوانية تدبر للدولة العثمانية حتفها حيث لم يكن سلوك الشاه فقط هو المعادى وإنما كان سلوك قانصوه الغورى نحوه معاديا أيضا.

فبينما كان الأول ينشر المذهب الشيعى فى الأناضول كان الغورى يستقبل فى بلاطه الثائرين والفارين من وجه سليم وخاصة اخوته المطالبين بالعرش العثمانى ومن ثم كان لابد وأن يقع الصدام بين سليم الأول من جهة والشاه إسماعيل أو الغورى من جهة أخرى. وكان من الطبيعى أن يبدأ سليم الأول بالشاه إسماعيل حيث أنه كان يمثل الخطر المباشر على الدولة العثمانية، وكان الأتراك بصفة عامة يفخرون بأنهم حماة المذهب السنى من الشيعة. فلا غرو أن بدأ السلطان سليم الأول بتطهير الأناضول من المتحولين إلى المذهب الشيعى، ودبر لهم مذبحة مروعة لم تقم لهم بعدها قائمة.

ثم التفت إلى أصل الداء ونقل الحرب إلى بلاد خصمه فى وادى جالديران (١٥١٤) ودارت المعركة بين قزلباش الشاه وانكشارية وسباهية السلطان، وانتصر الأخير انتصارا كبيرا.

حقيقة كانت الضربة قاسية على الشاه ولكنها لم تكن القاضية حيث استطاع أن يستعيد قوته وأن يعيد بناء جيشه ودولته، بينما اكتفى السلطان العثمانى بمكاسبه في شمال العراق حيث سيطر على ديار بكر وارفه وماردين وحصن كيف ، أو بمعنى آخر لقد أصبحت مفاتيح العراق الشمالية فى يد العثمانيين بل لقد أصبح سليم الأول سلطان العراقين عندما أعلن صاحب بغداد الولاء له. بتلك الحرب الناجحة ضد الشاه إسماعيل الصفوى أصبح السلطان سليم الأول من أصحاب الكلمة فى مصير بلدان المشرق العربى.

ولقد كان ذلك الصدام بين الشاه والسلطان وكذلك تلك النتيجة التى خرج بها سليم الأول من معركة جالديران على غير هوى السلطان قانصوه الغورى، الذى كان يود أن يلعب دور الوسيط بينهما ليوقف الحرب وليوجه السياسات العامة فى المنطقة لمصلحة الحكم المملوكى فى مصر والشام والحجاز واليمن ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

فلقد كان قانصوه الغورى يدرك تماما أن المنتصر من الجانبين فى جالديران سيعمل على تصفية الموقف فى المشرق العربى بالاصطدام العنيف بالمماليك، بل كان يعتقد أن المنتصر " منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا".

ومن ثم كان على قانصوه الغورى أن يتخذ سياسة ما إزاء هذه التطورات السريعة بما يفيده ويبقى عليه كصاحب الكلمة الأولى فى المشرق العربى. فكان عليه أن يتبع واحدة من ثلاث سياسات كانت أمامه:

١- أن يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

٢ـ أن يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين.

٣ـ أن يقف على الحياد بين الطرفين.

وأخذ قانصوه الغورى يقلب هذه السياسات أمامه. فوجد أنه إذا وقف إلى جانب السلطان العثمانى سليم الأول ضد الشاه إسماعيل فإنه بذلك يعطى العثمانيين قوة على قوة. ويجعل جهود العثمانيين فى القضاء على الصفويين غير شاقة. وبالتالى إذا ما توترت الأمور بين المماليك والعثمانيين يكون هؤلاء مستعدين دون إرهاق لخوض المعارك ضد المماليك. أو بمعنى آخر أن انضمام المماليك إلى جانب العثمانى كان سيخل التوازن اخلالا شديدا لصالح العثمانيين بالذات.

أما إذا أخذ السلطان قانصوه الغورى جانب الشاه إسماعيل الصفوى، فكان عليه أن يقنع جمهرة المماليك بذلك، ولقد كان من المستبعد أن ينجح فى اقناعهم لعدة أسباب :

أولا: لقد كانت العلاقات الصفوية المملوكية غير طيبة. ولا تشجع على قيام تحالف على جناح السرعة.

ثانيا: كان مماليك مصر سنيين متحمسين لمذهبهم لا يقبلون التعاون مع الشاه الصفوى الشيعى ضد السلطنة العثمانية السنية المجاهدة ضد الفرنجة منذ أكثر من قرنين من الزمان.

ثالثا : لقد أثبت العثمانيون أنهم أكثر غيرة على الإسلام من الصفويين، حيث لبى السلطان العثمانى بايزيد الثانى طلبات الغورى بشأن امداده بالأخشاب والفنيين لاعداد أسطول كبير لخض شوكة الأسطول البرتغالى الذى أخذ كل سفينة إسلامية غصبا فى المياه الإسلامية الجنوبية.

ولهذا فضل قانصوه الغورى أن يقف على الحياد . واكتفى بارسال قوة من مماليك الجلبان إلى حلب لمراقبة تطورات الأمور ولحماية الأراضى والإمارات الواقعة تحت نفوذ المماليك من الجيش العثمانى الزاحف من الأناضول إلى أذربيجانالفارسية.

ولكن ارسال هذه القوة وقيامها يمنع الجيش العثمانى من المسير عبر طرق تمر بأراضى واقعة تحت النفوذ المملوكى أدى إلى تدهور العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى بعد أن خرج الأول منتصرا فى موقعة جالديران على الشاه إسماعيل الصفوى.

وبدا واضحا أن سليم الأول عاد من جالديران وهو يضمر شن حرب على السلطان الغورى لأنه كان يخشى من وجود دولتين كبيرتين معاديتين له تشرفان على حدوده الجنوبية.

وكان من أبرز هذه الاتجاهات أن السلطان سليم بعد عودته من جالديران أسرع إلى الإنفراد بالنفوذ فى إمارة ذى القدر الفاصلة بينه وبين المماليك، فقتل أميرها الحاكم علاء الدولة ووضع مكانه على ابن شاه سوار.

ولقد كان ذلك الإجراء لطمة شبه مباشرة للسلطان الغورى الذى عزم على أن يستعيد هيبته فى المنطقة بأن أمر بالاستعداد للحرب إن لزم الأمر إن لم يرفع السلطان سليم الأول يده عن إمارة ذى القدر.

ولكن الغورى فى حقيقة الأمر كان يود من صميم قلبه أن لا تتطور الأمور إلى حرب وأن تظهر الوسيلة التى تؤدى إلى تسوية بينه وبين السلطان سليم الأول تحت شعار حقن دماء المسلمين وهو يعرف تماما أن مماليك مصر

محملون بأعباء ثقيلة إزاء القوى المناهضة لهم فى شبه الجزيرة العربية وضد البرتغاليين فى المياه الإسلامية والمحيط الهندى. كما كان يدرك أن المماليك غير مستعدين من وجوه عديدة لخوض غمار حرب كبيرة ضد جيش السلطان العثمانى.

إن المقارنة بين ذلك السلطان العثمانى الجرىء سليم الأول ـ الذى ينقل الحرب فى المشرق إلى أرض خصومه ويفرض عليهم خوض المعارك ـ وقانصوه الغورى ـ الذى يسعى إلى تجنب الحرب بطريقة أو بأخرى ـ يعكس حقيقة أن مماليك مصر كانوا فى أحوال سياسية واقتصادية وعسكرية بل واجتماعية يرثى لها. والمماليك أنفسهم مسئولون عن كثير من أسباب هذا التدهور الذى أصاب البلاد الواقعة تحت حكمهم (الشام والحجاز ومصر) .

ولكن يجب أن نقدر هنا أن مسئولية تردى أحوال الشام ترجع أساسا إلى أيام الحروب الصليبية والاجتياحات المغولية والتترية للشام وإلى أن المماليك ـ بعد انحسار هذه الموجات التخريبية ـ لم يعيدوا بناء اقتصاد البلاد الشامية، بل لقد كانت سياستهم الاقتصادية تسير على أسس خاطئة للغاية وأبرز مثال على ذلك موقفهم من التجارة الشرقية حيث تركوا سفن البنادقة تتولى نقل هذه التجارة دون أن يعملوا على انشاء أسطول ليتولى ذلك.

فلا هم قاموا بهذا الواجب الكبير، ولا أعطوا الشعب فرصة المشاركة فى هذه التجارة العظيمة بل كانوا كلما أعوزتهم الأموال لشئونهم الاستهلاكية زادوا من الضرائب المفروضة على التجارة الشرقية حتى لقد فكر البنادقة فى قطع علاقاتهم بالمماليك.

ولعل اتجاه المماليك إلى مضاعفة الضرائب على التجارة الشرقية يرجع أساسا إلى فساد نظام الاقطاعات العسكرية الذى كان متبعا حينذاك. حيث كان على كل مملوك أن يعيش على موارده من اقطاعه وأن يسلح نفسه ورجاله وهو مكلف بهم من أرزاقه من هذا الإقطاع. ولكن الذى حدث هو أن المماليك والأجناد كانوا يبيعون اقطاعاتهم أو يتنازلون عنها حتى لقد اشترى أصحاب الحرف والصناعات كثيرا من هذه الاقطاعات فأصبحوا بسبب ذلك ضمن الأجناد وهم لا يعرفون فى أمور الحرب والقتال شيئا.

وزاد من تدهور البلاد اقتصاديا أن المماليك مدوا أيديهم بقسوة إلى دخل الفلاحين الذى لا يسد رمقهم. حيث ضاعفوا الضرائب عليهم واشتطوا فى فرض الغرامات حتى جعلوهم عاجزين حتى على المحافظة على مستواهم المتدنى.

وحيث أن أهل المدن - مثل الفلاحين - هم الذين كانوا فى متناول الحكام المماليك، فقد عانوا من (الرمى على الحارات) بدعوى تمويل الحملات العسكرية أو الحملات اللازمة لانقاذ قافلة الحجاج من تعدى العربان عليهم أو لاعداد القوات اللازمة لحماية المدن العربية من الهجمات القاسية التى كانت تشنها العشائر العربية. كما لجأ المماليك إلى مصادرة أموال الأثرياء وإلى تغيير سعر العملة من وقت لآخر ليحصلوا على دخل كبير من الفرق بين السعرين القديم والجديد.

ولم يكن هناك من رادع لمظالم المماليك وقسوتهم فى مصادرة ونهب أموال الناس سوى :

١- العصيان المدنى بزعامة الشيوخ «والأكابر».

٢- ثورة زعماء العصبيات وخاصة العشائر.

وكان أصحاب المتاجر وأهل الأسواق كثيرا ما يغلقون محلاتهم ويشكون لكبار رجال البلد، فيذهب هؤلاء إلي الحكام المماليك ويرفعون الشكاوى إليهم أحيانا بقوة وأحيانا أخرى بضعف. وكان المماليك يستمعون إلى ما يقوله «الأكابر» و «يجبرون بخاطرهم » ولكن لم يكن مطردا. فيحدثنا ابن طولون عن أن المجتمع الدمشقى يئس من أعيانه والأكابر فيه لأنهم لم يتكلموا دفاعا عن الشعب الأمر الذى يسهل لانقلاب الشعب بقسوة على المماليك عندما تحين الفرصة ويهب الأهالى ضد الأعيان والقضاة والتجار ثائرين على أوضاعهم المتدنية وكأنها محاولة من الطبقة الشعبية المهضومة الحقوق لفرض هذه الحقوق على الحكومة والرأسمالية المتحكمة فيهم وعلى القوى المتعاونة مع هاتين السلطتين وخاصة السلطة القضائية.

لقد بذل المماليك ما بذلوه من جهد فى سبيل الاحتفاظ بمستواهم السياسى والاجتماعى بتعويض النقص فى خزائنهم بطريقة أو بأخرى ومع هذا كله ظلت خزانة السلطان فارغة. ولم تعد تلك الخزانة التى تسد حاجات الجيش المملوكى أو الحكومة المملوكية. ويتجلى ذلك عندما قارن الناس بين الأموال الكثيرة التى كان ينفقها السلطان المملوكى على جيشه عندما زحف لقتال السلطان بايزيد الثانى العثمانى (والد سليم) والأموال القليلة التى كان ينفقها قانصوه الغورى على جيشه قبيل الزحف إلى الشام لقتال السلطان سليم العثمانى. وهذا فى الحقيقة تأكيد صادق لتدهور اقتصاديات الحكومة والبلاد المصرية فى زمن الغورى عنها فى أى زمن مضى. فكان طبيعيا أن تتزايد

مظالم المماليك وتتضاعف الضرائب على الشعب فتوالت المظام حتى «ضاق الأمر» وكثر «وقف الحال» وكان على المماليك أن يعالجوا هذا التدهور الاقتصادى الخطير، ولكنهم ظلوا متمسكين بتقاليدهم ولم يحاولوا إعادة النظر فى أساليب الحكم، أو فى أساليب الإنتاج الاقتصادى أو فى فتح مجالات اقتصادية جديدة مريحة بل أنهم ظوا على اسرافهم فى المظاهر الاجتماعية حتى خلال الاستعدادات العسكرية ضد السلطان سليم الأول وهى الاستعدادات التى كشفت للجميع أن إمكانيات البلاد الاقتصادية أصبحت مرهقة غير قادرة على تمويل أطماع المماليك وحاجاتهم العسكرية فى أن واحد.

وأحوال الحجاز فى أيام الغورى كانت هى الأخرى تعانى من تدهور اقتصادى واضطرابات خطيرة فى الداخل، فقد كان تحول التجارة الشرقية على يد البرتغاليين إلى طريق رأس الرجاء الصالح ضربة اقتصادية قاصمة لجدة.

كما أن الأشراف الذين كانوا يحكمون الحجاز في إطار الدولة المملوكية انحدروا إلى صراعات حول الحكم لم يتورع بعضهم خالها عن الانقضاض على قافلة الحجاج كاللصوص.

وفي مطلع القرن السادس عشر، كان الصراع على أشده بين أخوين شريفين هما بركات والجازانى في الوقت اذى كان فيه البرتغاليون يتوعدون الأراضى الحجازية بضربها بأسطولهم.

وهكذا أصبحت مشكلة الصراع بين الأشراف مرتبطة بالخطر البرتغالى واستطاع الغورى بالقوة أن يثبت بركات فى الحكم ليتابع جهوده فى اليمن والبحر الأحمر والمحيط الهندى ضد البرتغاليين.

أما فى مصر مركز الحكم المملوكى فقد كانت عناصر التدهور تظهر تباعا حيث أصبح المماليك يواجهون دولا من طراز جديد تقوم إما على أساس الفكر المذهبى مثل فارس الصفوية الشيعية أو على أساس الجهاد الدينى مثل الدولة العثمانية، فى الأناضول والبلقان. أو الحرب الصليبية الاقتصادية مثل البرتغاليين أما المماليك فكانوا عقائديا قد فقدوا أسس احتكارهم للحكم والحرب فلقد قبلهم الشعب فى مصر والشام وتحمل مظالمهم، وضحى برفاهيته وبكثير من مصالحه لمجرد أن هؤلاء المماليك كانوا يقومون بعمل جد عظيم وهو الدفاع عن الإسلام ومجاهدة الصليبيين.

وأنه لارتفاع رائع إلى مستوى التضحية الواجبة من جانب الشعب العربى فى مصر والشام حين تحمل كل ما تحمله من أجل تلك الأهداف السامية.

أما وقد انتهى الصليبيون وخرجوا من الشام، وارتد المغول عن المشرق لم تعد هناك حاجة إلي استمرار تلك التضحيات من جانب الشعب، ولكن استمر المماليك يعيشون على ذكريات تلك الانتصارات الرائعة، ويبتزون أموال الناس باسم الأعمال المجيدة التى قاموا بها رغم مرور أكثر من قرنين من الزمن عليها. دون أن يجددوا شباب قوتهم أو قوة البلاد التى يحكومها اتقاء شر مستطير يأتى إلي البلاد الإسلامية من أوربا مرة أخرى.

ولهذا عندما فوجىء المماليك بالأسطول البرتغالى وقد فرض سيطرته على المياه الجنوبية الإسلامية ثم جيش السلطان سليم الأول يستعد لفرض حرب مصيرية على المماليك لم يكن لدي المماليك القدرة على الارتفاع بسرعة إلى أساليب ومستويات التفوق العسكرى حينذاك سواء فى البر أو فى البحر.

فقد كان الجيش المملوكى يتكون من أقسام رئيسية

١- المماليك السلطانية من قرانصة وجلبان.

٢- المماليك الأمراء. حيث كان لكل مملوك قوته التابعة له وتدين له بالولاء والطاعة.

وكان دخلهم الرئيسى من الاقطاعات التى يمنحونها فى مقابل كل مملوك لسد حاجاته المعيشية وتسليح نفسه، وتلبية النفير العام عندما يطلبهم السلطان للحرب. ولكن الممايك استخدموا دخلهم فى المشاركة فى مؤامرات التسابق على المناصب العليا بدلا من الاستعداد للحروب التى يجب أن يخوضوها للدفاع عن دولتهم. فقد غادر المماليك اقطاعاتهم وسكنوا المدن بل كانوا يبيعون اقطاعاتهم لأصحاب الحرف الذين أدرجت أسماؤهم ضمن قوائم الأجناد وهم لا يعرفون من الفنون العسكرية شيئا.

وكان المماليك يعتمدون فى تجديد شباب جيشهم على شراء اعداد كبيرة من القوقاز لتدريبها ورفعها من مراتب العسكر إلي القيادات.

وكان شراء المماليك الجدد يتم بأعداد كبيرة ، ولكن هؤلاء المماليك الجدد فى القرن الخامس عشر كانوا على صفات أدنى بكثير من أولئك المماليك الذين كانوا يجلبون إلى مصر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

فيحدثنا المؤرخ ابن طولون عن الفوضى التى كان يثيرها هؤلاء المماليك الجدد خلال سفرهم عبر الشام إلى مصر. ومع أن هؤلاء كانوا شرسين، غير مطيعين مرهقين للسلطان، إلا أنه لم يكن قادرا على الاستغناء عنهم . حيث أن المسئوليات التى القيت على كاهل جيش مصر تضخمت فجأة وبشكل مذهل إذا

امتدت جبهات العمل العسكرى أمامهم من مرعش وشمال العراق إلى طرابلس الغرب وعدن والحبشة والسواحل الهندية، وبالتالى أصبح السلطان الغورى فى حاجة لأعداد متزايدة من المماليك الجدد،

ولكن كان لابد وأن يشعر الغورى ، وغيره من كبار رجال المماليك فى مصر أن القوقاز - وهى المصدرة للماليك الجدد لمصر عبر الأراضى العثمانية والشام - لن يظل مفتوحا أمامهم باستمرار وعندما توترت العلاقات بين السلطان سليم الأول والسلطان الغورى عمل الأخير إلى منع مرور المماليك الجدد عبر أرضه فيكون بذلك قد جمد نمو الجيش المملوكى.

ومع أن هذا التجميد لا تظهر آثاره إلا بعد وقت طويل نسبيا إلا أن آثاره النفسية ليست بالقليلة على المماليك فى مصر الذين كانوا مجرد أقلية حاكمة تعيش فى خضم عربى كبير يمكن أن يبتلعهم فى يوم ما إذا لم تستمر عملية التجديد والإضافة عن طريق الشراء وتعويض النقص فى الجيش المملوكى وأقبل الغورى على شراء المماليك حتى «تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترواته» وكان لابد من استمرار عملية الشراء هذه سنة بعد أخرى لتعويض النقص حيث أن أعدادا كبيرة من المماليك كانت تذهب ضحية الأوبئة والمؤامرات.

وقد دب العناء فى كل صفوف المماليك. فالقراصنة كانوا ضد الجلبان وكل صنف منهما كان يستكثر من الأموال ويتجنب المشاركة فى الحروب خوفا على النفس من الموت وعلى الأموال من الضياع وللاستمرار فى حركة المؤامرات الدائبة فى القاهرة بين كبراء المماليك سعيا إلى المناصب العليا.

فالقراصنة يرفضون الذهاب لحماية العقبة والاسكندرية ويصرون على أن يعسكروا فى رشيد ودمياط دون غيرها والجلبان لا يقيمون وزنا للسلطان الغورى نفسه فكانوا «يدخلون إلى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين وصار الناس فى غاية الضنك والقهر».

وحاول الغورى أن يصلح بعض أمور المماليك، وأن يعيد الوئام بين كل أصناف المماليك ولكنه كان يرمى فرقة بأخرى وهذا أسلوب لا يؤدى إلى توحيد الصفوف ومجابهة العدو بقلب واحد.

ولكن تغلبت روح المؤامرات على الرغبة فى تصفية الخلافات وتوحيد الصفوف وانشغل المماليك أكثر بمؤامراتهم، وفى رفع هذا المملوك أو ذاك إلى المناصب العليا.

لقد أصبح البطل لدى المماليك هو الذى يدبر مؤامرة ناجحة لا ذلك الذى يكسب معركة حامية. ومما عمق هذا الاتجاه الخطر فى نفوسهم هو أنهم لم يشتبكوا فى حرب خارجية لعدة سنوات طويلة. باستثناء تلك الحرب القصيرة التى وقعت بين المماليك والعثمانيين فى أواخر القرن الخامس عشر.

وكان عدم الاحتكاك العسكرى بالقوى الأخرى عاملا رئيسيا أدي إلى تحويل نشاط المماليك من قوى قادرة على نقل الحرب إلي أرض العدو وخارج مصر إلي قوى متأخرة تجد العزة فى الاستبداد بأهل البلاد.

وغرق المماليك فى مؤامراتهم الداخلية، ولم يعنوا بما كان يدور خارج البلاد فطاشت أراؤهم حول قوة جيرانهم ولم يدركوا أن أساليب الحرب والقتال التى كانت تنتقل من عصر الفروسية والسيف إلى عصر المشاة والمدفعية البرية

والسفن البحرية المزودة الواحدة منها بأكثر من أربعين مدفع كفيلة بأن تسوى بالأرض أى ميناء من الموانىء المصرية أو الشامية أو الحجازية حينذاك.

وأنه لقصور جد غريب حيث أنه لم ينشأ عدم إدراك أو معرفة لقيمة هذه الأسلحة النارية إذ أن المماليك كانوا يعرفون أمرها وحاولوا استخدامها بل أدخولها فعلا فى نظامهم الدفاعى ولكن بأسلوب لا يفيد فى رفع مستوى الجيش المملوكى إلى مستوى القرن السادس عشر فلقد كانت لديهم بعض المدافع ولكنهم أبوا أن يتولوا أمرها وإنما اسندوا تشغيلها إلى البنادقة.

بل عندما أدرك بعض القواد المماليك أنه لابد من استحداث فرقة من المشاة من رماة البنادق لجأوا إلى تدريب عناصر من غير المماليك. وكان اختيارهم لهذه العناصر سيئا للغاية حيث أنهم كونوا هذه الفرقة من «زعر» دمشق، وهم أشبه بفتوات بولاق والحسينية فى القاهرة وبشقاوات بغداد.

ولقد حاول الغورى أن يعيد النظر فى تشكيل جيش المماليك وتجديده، وأعد فعلا قوة من رماة البنادق عنى بتدريبها الأمر الذي أدى إلى فتنة كبيرة فى ١٥١٤ـ ٩٢٠ هـ. إذ اتهمه أمراء المماليك بأنه أنفق على هؤلاء الجند ما كان يجب أن ينفقه عليهم. وأنه لن يلبث أن يستغنى عنهم عندما يكمل أعداد جيشه الجديد.

وهكذا كان الغورى فى ورطة معقدة، فهو لا يستطيع أن ينشىء جيشا جديدا، ولا هو بقادر عى تطوير المماليك بما يتناسب مع حروب القرن السادس عشر. فى الوقت الذى كان فيه المماليك يواجهون جيوشا من نوع جديد لا من حيث التسليح فقط بل كذلك من حيث أنها جيوش عقائدية.

فلقد كان البحار البرتغالى يستميت من أجل الهدف الصليبى الاقتصادى الذى يسعى إلى تحقيقه. والجهاد فى سبيل الله والسنة المحمدية وتلبية أوامر السلطان العثمانى كانت نصب عين رجالات الانكشارية وسباهية الجيش العثمانى. وكان قزلباش إسماعيل الصفوى يبذلون دماءهم من أجل الشاه وعقيدتهم.

أما السلطان الغورى فكان له من جيش المماليك صيته الماضى الذى ملأ الأسماع بانتصاراته فى القرن الثالث عشر والذى لم يصبح كفئا للمعارك الحاسمة العالمية فى القرن السادس عشر. ومع هذا كان الغورى مضطرا لخوض حروب ضد العثمانيين والبرتغاليين فكل منهما كان يهدده تهديدا مباشرا، وكل منهما نال من مكانته وكرامته بشكل لا يمكن السكوت عليه.

فالبرتغاليون هزوا ثقة المسلمين فى المماليك كحماة للإسلام والمسلمين عندما فشل الغورى فى ابعادهم عن المياه الجنوبية الإسلامية. والسلطان سليم الأول كان يحتقره هو والمماليك بصفة عامة لأنهم كانوا مجرد مماليك عبيد اغتصبوا الحكم، إذ خاطب سليم الأول الغورى بقوله :

«إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصح لك ولاية ملك ، وأنا ملك إلى عشرين جدا وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة ».

وأصر السلطان سليم على أن يكون السيف هو الحكم إن لم يعلن الغورى خضوعه له . فكان هذا ذروة الاستهانة به.

ونحن لا نستبعد أن يكون السلطان سليم صادقا كل الصدق في أن يكف يده عن حرب الغورى لو قبل الأخير الدخول في طاعته، فلقد اكتفى السلطان

سليم باعلان حاكم بغداد الخضوع له بعد جالديران ١٥١٤ ولكن هل كان في استطاعة الغورى أن يعترف بالتبعية للسلطان سليم حقنا لدماء المسلمين؟

لقد كان ذلك أمرا لا يمكن أن يقدم عليه الغورى، كيف يكون ذلك، وهو الذى كان يجلس فى حضرته أمير المؤمنين الخليفة العباسى؟وهو الذي يلعب بحامى الحرمين الشريفين ؟ وهو الذي يتولى حكم مصر باسم المماليك الذين تولوا أمرها وأمر الشام منذ قرنين من الزمان ونصف القرن. ثم كيف يخضع بمثل هذه السهولة وهو الذي أصبح يرسل التجاريد لحماية ديار المسلمين من الخطر الصليبى البرتغالى وأصبح أمل حكام الهند المسلمين فى تكوين جبهة إسلامة ضد العدوان البرتغالى ؟

وحيث أن الغورى كان يدرك أن جيشه لا يستطيع وحده الصمود أمام الجيش العثمانى، فقد حاول أن يدفع الشاه إسماعيل الصفوى إلى التحالف معه ضد العدو المشترك. ولعل مما شجع الغورى إلى ذلك أن الشاه إسماعيل كان مصرا- بعد جالديران - على متابعة العمل ضد السلطان سليم الأول. ولكن الكراهية التى كان يكنها الشاه للغورى لم تكن تقل عن كراهيته للسلطان سليم. هذا فضلا عن أن الشاه كان منذ جالديران لا يفكر فى خوض معركة مع العثمانيين واكتفى بتثبيت حكمه فى ايران وما هو وراءها شرقا فى اتجاه الأزبك لا فى اتجاه الشام.

ولهذا لم تسفر مجهودات الغورى لدى الشاه إسماعيل الصفوى عن شيء إيجابى، بل لقد أدت مكاتباته للشاه الصفوى إلي تعميق الهوة بين الغورى وسليم. فلقد سقطت تلك المكاتبات التى بعث بها الغورى إلى الشاه إسماعيل فى يد رجال السلطان سليم الأول. وكان الشاه إسماعيل عدوا غير عادى بالنسبة

للسلطان سليم والشاه إسماعيل لا يتورع عن طعن الدولة العثمانية من خلف، بل لقد كان الشاه إسماعيل يفاوض فعلا البوكرك ـ الادميرال البرتغالى فى المياه الهندية ـ على عقد تحالف ضد السلطان العثمانى.

أما وقد أصبحت الحرب لا محالة واقعة بين العثمانيين والمماليك لجأ كل من الطرفين إلى كل أسلوب يمكن أن يوهن قوى الطرف الآخر ـ وكان الاتهام بخيانة كرة الجهاد ضد أوروبا الصليبية من أقوى أساليب الدعاية، ولقد استخدمها الغورى فعلا إذ أذاع الغورى على الناس أن السلطان العثمانى « قد جهز عساكر كثيرة من النصارى والأرمن وغيرهم » ليضرب بهم جند الله المجاهدين ضد البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة الذين هددوا بتدمير الأراضى المقدسة الإسلامية الحجازية.

ولكن يبدو أن هذا الأسلوب في الدعاية لم يلق نجاحا يذكر بين أهل دمشق ويرجع هذا إلى أن الاتهام لا يستند إلى أى دليل مادى واضح بل الذى كان شائعا هو أن العثمانيين منذ قرون مضت عاشوا مجاهدين ضد الفرنجة ولم يتأخروا عن امداد المماليك أنفسهم بالمواد والفنيين الازمين لقتال البرتغاليين.

وكان من أسلوب الطرفين المتقاتلين أن يكسب كل منهما أعوانا له من بين رجالات الآخر. وكان ذلك من الأمور التى تحدث عندما تقع الحرب بين الدولتين الإسلاميتين. هذا فضلا عن أن الحكومتين العثمانية والمملوكية تركيتان والخلاف من حيث درجة الأصالة فقط. ومن ثم كان الانتقال من المعسكر التركى إلى المعسكر المملوكى أو العكس من الأمور اليسيرة. وهذا ما حدث فعلا فقد استقبل معسكر كل طرف الفارين من الطرف الآخر واندمجوا فيه بسهولة وبسرعة.

وكان من أخوة سليم من لجأ إلى الغورى فاكرمه وأبقاه ليستعمله فى الوقت المناسب. وكان بعض كبار المماليك قد فروا من مصر إلى حمى السلطان العثمانى سليم ومنهم خوشقدم. ولكن كانت إفادة السطان العثمانى من اللاجئين إليه من المماليك أكثر من إفادة الغورى من اللاجئين إليه من العثمانيين. حيث أن التفكك الداخلى فى الدولة المملوكية كان يعطى فرصا واسعة للسلطان سليم للإفادة المثمرة بعكس الجبهة الداخلية العثمانية الصلبة التى كان يسيطر عليها السلطان سليم الأول بمحبة جنده وخوفهم منه لما عرف عنه من قسوة بالغة فى معاملة المتمردين عليه.

وإذا قارنا بين الطرفين فى هذا الصدد لوجدنا أن اللاجئين العثمانيين إلى بلاد الغورى كانوا يمنحونه قوة معنوية ودعائية بينما الذين استطاع العثمانيون جذبهم إلى صفهم من رجالات المماليك كانوا ذوى المناصب العليا وكبار القادة من أمثال نائب عيتاب وخاير بك نائب حلب التى هى بمثابة خط الدفاع الأول عن الشام ومصر.

ولقد كانت رائحة الخيانة قوية وأصابع الاتهام مصبوبة نحو خاير بك بالذات لدرجة أن سيباى (أحد كبار المماليك) أمسك بتلابيب خاير بك وحذر الغورى منه مؤكدا له أنه إذا أراد أن يكسب المعركة المصيرية المقبلة فعليه أن يتخلص من رأس الخيانة خاير بك ولكن الغورى لم يأخذ بهذا التحذير واستمر فى استعداداته للمعركة، ولعل الغورى لم يأخذ هذه الاتهامات بمحمل الجد والخطورة لأنه كان يستبعد مثل هذه الخيانة من خاير بك نفسه، فضلا عن أنه كان مقبلا على المعركة بعد قليل فاذا ما أشيع فى المعركة أن هناك خيانات بين الأمراء المماليك تفكك الجيش وأصبح الأمل فى النصر بعيدا للغاية.

وعلى أى حال أعد السلطان الغورى جيشه وغادر به القاهرة إلى دمشق فدخلها فى جمادى الأول ٩٢٢ هـ سنة ١٥١٦م. وكان يحيط نفسه بمظاهر البذخ والفخامة التى دأب عليها أسلافه، فنشر الأموال يمينا ويسارا ومن حوله الخليفة العباسى، وكبار رجال الدين من المذاهب الأربعة الشافعية والمالكية، والحنبلية، والحنفية، وأولاد محمد بن بركات شريف مكة وخليفة أحمد البدوى وخليفة إبراهيم الدسوقى وكانت تسير فى ركابه كذلك محفات لزوجة الغورى، ومغنون وغير ذلك من تلك المظاهر التى دأب المماليك على التمسك بها منذ توطد نظامهم فى مصر والشام كذلك لم يتغير جيش المماليك من سلوكه إزاء أهالى المدن التى كان ينزل فيها فلقد أخرج العسكر الأهالى من بيوتهم ونهبوا أموالهم وتعرضوا للأعراض الأمر الذى أساء إلى المماليك كل الإساءة وكان له عواقب وخيمة بالنسبة لهم.

هذا هو الجيش المملوكى الذى زحف ليقاتل الجيش العثمانى فى مرج دابق بالقرب من حلب (١٥١٦). أما الطرف الآخر العثمانى فكانت مصادر قوته العسكرية فى نمو طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر. حيث أن الجيش العثمانى كان مكونا من انكشارية وسباهية (فرسان) مخلصين بقوة للسلطان العثمانى.

وكان هذا الجيش بصفة عامة من أحسن جيوش العالم حينذاك وزحف به السلطان سليم الأول حتى هبط على قوته من حلب (١٥١٦) وأصبح على مقربة من معسكر جيش المماليك بقيادة الغورى نفسه.

وهناك تبادل مع السلطان سليم الرسائل، وبدا كان هناك مشروعات التفاوض وحقن الدماء وهو ما كان يريده الغورى والحقيقة هى أن السلطان

سليم كان لا يضمر إلا شن المعركة بينهما. ولقد أفاد السلطان سليم من هذه الفترة القصيرة التى سبقت وقوع المعركة فى تحريض المماليك على الغورى وعندما وقعت المعركة فى مرج دابق ظهرت إمكانيات المماليك على حقيقتها.

فلقد قاتل بعض المماليك كفرسان قتال الأبطال وخاض القراصنة المعركة ومنوا فى بدايتها بهزيمة قوية، فلماعاينوا عدم اشتراك الجلبان فى المعركة بأمر من السلطان الغورى تقاعسوا هم أيضا على اعتقاد منهم بأن الغورى يريد أن يكسب بهم المعركة وأن يجعلهم فى نفس الوقت طعمة لنيران هذه المعركة ليتمتع هو والجلبان بثمارالنصر. ونفذ خاير بك مؤامرته ضد الغورى فانحاز إلى جانب السلطان سليم وانكشف جناح الجيش الملوكى وحصد رصاص وقنابل مدفعية العثمانيين الكثيرين من المقاتلين المماليك، فحلت الهزيمة فى جميع أجزاء الجيش المموكى وسقط الغورى صريعا ولم يعثر له بعد ذلك على أثر.

ويتجلى العامل العسكرى كسبب رئيسى فى الهزيمة فى حديث دار بين كرتباى أحد القواد المماليك والسلطان سليم بعد معركة مرج دابق فقد ظل كرتباى متمسكا بالتقاليد العسكرية الملوكية حتى بعد تلك المعركة وقال :

إن منا فرسان المنايا ... وإذا لم تصدق فجرب...

... فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط ... وانظر بعينك كيف (نفعل) ... إن الملك لايصلح إلا لمن يكون من الأبطال المخبورين، كما كان عليه السلف الصالح ... أما أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا .. وجئت بهذه الحيلة التى تحيلت بها الأفرنج لما أن عجزوا عن ملاقاة العساكر الإسلامية وهذه البندق التى لو رمت بها امرأة لمنعت كذا وكذا إنسانا، ونحن لو اخترنا

الرمى بها ما سبقتنا إليها، ولكن نحن قوم لا تترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الجهاد فى سبيل الله بالسيف والعود.

ولكن يجب أن نؤكد أنه ليس التنظيم العسكرى العثمانى هو وحده السبب فى انتصارات العثمانيين على الجيش الفارسى فى جالديران ثم على المماليك فى مرج دابق والريدانية، وإنما كان التنظيم الإدارى من العوامل الرئيسية التى هيأت الظروف أمام جيش السلطان سليم لكى يخوض المعركة بعد المعركة ومعظم حاجات الجند والضباط متوفرة أو على الأقل كافية لمواجهة متطلبات الحرب.

موقف أهالى الشام:

ماذا كان موقف أهالى الشام من حوادث الحرب بين السلطان العثمانى والسلطان الغورى؟

لقد كان الشعب فى الشام يعانى المعاناة من مظالم المماليك ومن النكبات الاقتصادية المتتالية التى كانت تتعرض لها البلاد دون أن تجد فى الحكومة المملوكية منقذا للبلاد من شر ما أبتليت به، بل تعرضت مدن شامية، مثل دمشق وحلب، لمظالم لا حد لها سبق الإشارة إليها، وبالتالى كانت الحرب بين السلطانين تثير الكثير من انتباه الناس بعضهم يود لو أذاق الله كأس الهزيمة للمماليك الظلمة وبعضهم يستعيد ذكريات جهاد المماليك ضد قوى العدوان الصليبى فيدعو لهم بالنصر ولكن الأغلبية كانت تكره المماليك، وترى فى نفس الوقت فى انتصار العثمانيين على المماليك مجرد استبدال الأتراك بأتراك آخرين.

وبعد أن انجلت المعركة، وعرف الناس أن المماليك هزموا شر هزيمة

انقض الناس على فلولهم لينتقموا من أولئك الذين عتوا وتجبروا دون داع. فأصاب المماليك أثناء انسحابهم من الشام أهوال وعذاب شديد. وكانت المدن الشامية تفتح أبوابها دون أية مقاومة للسلطان العثمانى.

وكانت بعض القوى المحلية الحاكمة فى الشام تقف موقف المتردد من هذه الحرب بين سليم والغورى، ومعظمها مثل آل معن فضل أن يقف موقف المتفرج ليتخذ بعد انتهاء المعركة الموقف الذى يتناسب مع مصالحه. ولكن لم يعدم المماليك وقوف بعض القوى إلى جانبهم مث بنى بحتر، وترتب على مثل هذه المواقف أن هبطت مكانة بنى بحتر، وارتفعت مكانة آل معن.

بعد انتصار سليم الأول انتصارا كبيرا فى مرج دابق وبعد أن تيقن أن السلطان الغورى أصبح أثرا بعد عين، اكتفى بهذا النصر، وأراد أن يوقف الحرب، وألا يستمر فى زحفه إلى مصر، فعرض على طومان باى - الذى تولى السلطنة بعد الغورى - أن يعلن خضوعه للسلطنة العثمانية فى مقابل أن يسند إليه السلطان سليم حكم مصر.

ولكن طومان باى لم يقبل، وكان يعتقد أن انتصار سليم الأول ليس إلا ومضة من ومضات الحظ القصيرة. والحقيقة هو أن عمر الدولة المملوكية هو الذى أصبح يعد بالأيام، واضطر السلطان سليم إلى أن ينقل الحرب إلى مصر ذاتها وأن يشن حربا شعواء فى وجه مقاومة جد عنيفة من المماليك وقوى الشعب المصرى المؤيد لهم وانتهت معركة الريدانية ومعارك الشوارع فى القاهرة بانتصار السلطان العثمانى انتصارا حاسما جعل مصر ضمن الدولة العثمانية وانقضت أيام الدولة الموكية المستقلة.

نتائج معركة مرج دابق :

لقد تلقى المماليك الضربة العثمانية فى سنة ١٥١٦/١٥١٧ وهم فى شيخوخة دولتهم وفى آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة إسلامية كبرى سواء فى الشرق الأوسط أو فى العالم. كانوا قد فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التى كانت تحت حكمهم للسلطان العثمانى.

فلقد أدت معركة دابق إلى وقوع الشام فى يد السلطان سليم وأدت الريدانية إلى وقوع كل من مصر والحجاز وجزء من اليمن تحت الحكم العثمانى. فقد أعلن الشريف بركات خضوعه للسلطان سليم، كما أن المماليك فى اليمن انقسموا على أنفسهم وأعلن كثير منهم الخضوع للسلطان العثمانى مثلما فعل صاحب بغداد بعد جالديران ولهذا يمكن أن نقول أن فتح العثمانيين للمشرق العربى كان سهلا وسريعا بعكس الفتوحات العثمانية الدموية المكلفة فى بلاد البلقان وفارس، بل أنه وجد فى القوى الحاكمة فى المشرق العربى عناصر مستعدة للتعاون معها وفى تحمل مسؤولية الحكم تحت اطار الدولة العثمانية من أمثال خاير بك الذى أسند إليه سليم الأول حكم مصر. وجان بردى الغزالى الذى تولى حكم دمشق، والشريف بركات الذى استمر فى منصبه فى مكة، والاسكندر- القائد المملوكى فى اليمن.

ولم يرث العثمانيون ملك المماليك فقط وإنما ورثوا كذلك المشاكل التى كانت تواجههم سواء فى المشرق العربى ، أو فى المياه الجنوبية والهندية، هذا كله بالإضافة إلى الأعباء العسكرية الكبرى التى كانت ملقاة على كاهلهم وأصبحت الجبهات التى يجب أن يحارب فيها السلطان سليم الأول متعددة

وشديدة الاتساع ، بل أن مجالات الصدام بين الفرنجة كانت تمتد من قلب أوروبا اشرقية إلى شمال افريقية وإلى مداخل البحر الأحمر وشرق افريقية وإلى العراق والخليج العربى حتى الهند. بل أن الخطر الفارسى الصفوى على المشرق العربى كان يتزايد، حيث أن الشاه إسماعيل الصفوى استطاع أن يستعيد قوته بسرعة بعد نكبته فى «جالديران» ١٥١٤، وعندما وقعت الحرب بين السلطان سليم والسلطان الغورى رأى فيها الشاه الصفوى فرصته لاستعادة بعض ما فقده أثناء انشغاله فى تلك الحرب المصيرية. ولقد هدد الشاه إسماعيل فعلا مناطق شمال الشام وشرقى الأناضول خلال تلك الحرب الأمر الذى جعل السلطان سليم يصمم على تصفية الموقف فى مصر بأقصى سرعة ممكنة للعودة إلى الأناضول حتى لا تتسع الفرصة أمام الشاه ولردعه مرة أخرى إذا لزم الأمر.

بل لقد كان شاه فارس إسماعيل الصفوى مستعدا كل الاستعداد للتفاهم مع البرتغاليين للوصول إلى تعاون واسع النطاق ضد العثمانيين وبدا كأن العثمانيين أصبحوا بين أطراف شديدة العداء لهم : فارس فى الشرق ومراكش فى الغرب وعمان واليمن فى الجنوب والفرنجة يطوقون العالم الإسلامى من الشمال والغرب والجنوب.

ومما كان يزيد من متاعب العثمانيين فى هذه الفترة المبكرة من توسعاتهم أن الأساطيل الأوروبية كانت تضرب بيروت سنة ٩٢٦ هـ - ١٥١٩م ويستولون على السفن الإسلامية بين بيروت ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى يهدد بضرب جدة. ومما يزيد خطورة تلك القوى المعادية أنها كانت قوى عقائدية صعبة المراس ولكن كان الخطر البرتغالى هو أشدها الحاحا

التوسع العثماني في الحجاز

كان طبيعيا أن يكون الحجاز من آمال السلطان سليم الأول. وكان يرى في السيطرة عليه تقوية لمكانته في العالم الإسلامي، خاصة بعد أن أصبحت دمشق تحت حكمه، والقاهرة في قبضته وخطب باسمه على منابر بغداد. وأغلب الظن أن الأشراف - حكام مكة - كانوا يرون أن من يحكم في القاهرة مقر الخلافة العباسية في أعقاب استيلاء المغول على بغداد والعراق - هو صاحب الدولة العامة الإسلامية التي يجب أن يعمل كل المسلمين تحت رايتها. فكان طبيعيا أن يتطلع شريف مكة (أبو البركات) إلى موافقة صريحة من السلطان سليم الأول عليه تعيينه شريفا حاكما في مكة وملحقاتها. فأعلن الشريف ولاءه للسلطان سليم الأول وبعث بابنه إلى القاهرة لتقديم فروض الولاء والطاعة للسطان الجديد، لعل لدى هذا المنتصر الفتى علاجا لانقاذ الحجاز من تدهوره الاقتصادي، وحتى تظل أفواج الحجاج، وخاصة من الشام ومصر والعراق، تفد إلى مكة والمدينة سنويا لما يحصل عليه الحجاز من وراء ذلك من انتعاش اقتصادي كبير.

ومن ناحية أخرى، كان من المتعذر عسكريا أن يبقى شريف مكة غير معني بالتطورات الجوهرية في الشام ومصر واليمن. فقد كان عليه أن يحدد موقفه إزاء هذه التطورات الكبرى التي تدق أبواب الحجاز من شمال ومن جنوب. فلم يكن إشراف مكة سوى حكام تحت السيطرة المملوكية. خاصة في أيام الغوري. وامتناعهم عن الخضوع للسلطان سليم الأول، بعد استيلائه على الشام ومصر سيفت أنظار هذا السلطان إن أجلا أو عاجلا، خاصة وأنه كانت توجد في الحجاز حامية مملوكية في جدة، من بقايا القوات المملوكية التي بعث

بها الغورى لتقوية قبضة الحكم المملوكى فى وجه التمردات الداخلية هناك وفى وجه الخطر البرتغالى المهدد للأراضى المقدسة الإسلامية.

كما أن سيطرة سليم الأول على مصر ستجعله بلا شك ينظر بعين الحذر إلى تلك القوى المملوكية المتناثرة على شواطئ البحر الأحمر الشرقية من جدة إلى اليمن، فإن الاستيلاء على شواطئ البحر الأحمر الغربية من جانب العثمانيين تحثهم إلى التطلع إلى سيطرة ثابتة على شواطئه الشرقية. وهى سياسة مصرية عامة تستهدف جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية آمنة من أية أخطار تهدد الأراضى المقدسة أو تهدد نمو التجارة بين الشرق الأقصى والبلاد الإسلامية وأوروبا نموا يعود على حكومات اليمن والحجاز ومصر بثراء نعمت به تلك الحكومات طوال القرون الماضية حتى جاء البرتغاليون بأساطيلهم مهددين الأراضى المقدسة الإسلامية فارضين حصارا بحريا عسكريا على التجارة العربية والإسلامية . ساعين إلى تعاون صليبى مع الحبشة ضد القوى الإسلامية فى المنطقة حتى لا يصبح البحر الأحمر - على الأقل - بحيرة إسلامية، وهو الذى متع بهذا السلام الإسلامى المطلق طوال القرون العشرة السابقة على مقدم البرتغاليين. ومما لا شك فيه أنه كان من أهداف شريف مكة فى اعلان الخضوع للسلطان سليم الأول، ومن أهداف هذا الأخير من سيطرته على الحجاز عدم السماح للقوى الصليبية بالتوغل فى البحر الأحمر والإبقاء على هذا البحر بحيرة إسلامية خالصة.

لقد تلاقت أهداف أبو البركات - شريف مكة - مع تطلعات سليم الأول التى فرضتها عليه ظروف انتصاراته فى مرج دابق والريدانية، والأخطار الصليبية التى تهدد العالم الإسلامى بصفة عامة والبحر الأحمر والأراضى

المقدسة بصفة خاصة. ولذلك كان دخول أبو البركات فى طاعة السلطان سليم، وانقضاضه السريع على القوات المملوكية فى جدة وقتله لحسين الكردى - قائدها المملوكى - تنفيذا للفكر السياسى المستنير من جانب أبو البركات.

وقد كسب الحجاز كثيرا من وراء ذلك الارتباط السريع بالدولة العثمانية، فقد كانت حملات البرتغاليين على البحر الأحمر متتالية وموجهة فى ١٥١٧ إلى جدة بالذات، فقام البرتغاليون بهجمات عليها ، ورد العثمانيون على ذلك بارسال قوات إليها حمتها من تكرار هذا العدوان.

ومن ناحية أخرى كان ارسال العثمانيين حملاتهم إلى اليمن ومساعداتهم لإمارة عدل الإسلامية ضد الحلف البرتغالى الحبشى، كان كل هذا يحول دون تحول الحجاز إلى ميدان قتال بين البرتغاليين والعثمانيين، وابعد الخطر الصليبى عن الأراضى المقدسة الإسلامية.

ولكن إدارة الإشراف للأراضى المقدسة الحجازية لم تكن تهدف إلى رفع المستوى العسكرى والاقتصادى لمواجهة تحديات العصر حينذاك فظلت البلاد الحجازية تعانى من الصراعات القبلية المرهقة.

الفتح العثمانى لليمن

وكانت أحوال اليمن مضطربة مثل أحوال الحجاز. ولكن مما يجعل أمر اليمن على أهمية كبرى أنه كان على خط المواجهة المباشرة ضد العدوان البرتغالى،

وتعرض اليمن فعلا لقصف مدفعية الأسطول البرتغالى . وأدرك مرارة الحصار البحرى، وإغراق السفن العربية الإسلامية وإحراقها. ولكن اليمن كان

يعانى من تعدد القوى المحلية المتصارعة عليه فالإمامة الزيدية فيه كانت ذات نفوذ قوى بين قبائل المرتفعات ولا تستطيع إن توحد البلاد بسبب ظهور دولة قوية بزعامة آل طاهر الشوافع الذين استولوا على صنعاء، وخاضوا معارك دموية ضد قوات الإمامة الزيدية دون أن تتمكن من توحيد البلاد كلها تحت حكمها. ومع أن البرتغاليين قصفوا بعنف عدن فى ١٥١٣ إلا أن أنظار آل طاهر - بزعامة عامر بن عبد الوهاب - كانت تتطلع إى الاستيلاء على صعده بعد أن استولوا على صنعاء. فتبادلوا مع الإمام الزيدى يحيى شرف الدين الهجمات دون الوصول إلى نصر حاسم.

ولكن لم تكن الصورة قاتمة كلها. فلقد كانت هناك جهود محلية نحو وقف المذابح الأصلية وتحويل الجهود ضد البرتغاليين فقد شعر هؤلاء المتناحرين أن الخطر البرتغالى ليس بالخطر العادى، وأنه يجب على المتافسين المسلمين أن يتناسوا خلافاتهم وأن يوحدوا قواهم لمواجهة هذا العدوان الصليبى الجديد، وأن يتعاونوا لدرء هذا الخطر مع القوى الأخرى الإسلامية كمماليك مصر الذين دخلوا فعلا ميدان الصراع ضد البرتغاليين. ومن ذلك أن عامر بن عبد اوهاب عقد صلحا مع محمد بن الحسين البهال حتى يتفرغ هذا الأخير لاعداد حملة توجه بها إلى الهند للمشاركة فى حرب الافرنج ،

كما كاتب عامر بن عبد الوهاب السلطان الغورى وعقد معه علاقات طيبة. ولا شك أن المماليك كانوا يدركون أن هذا الانقسام الخطير فى الجبهة اليمنية يفتح الأبواب الجنوبية على مصراعيها أمام البرتغاليين. فاليمن - بلا شك - هى مفتاح مصر الجنوبى. وكان لابد من تصفية الموقف هناك بما يفيد ويسهل الجهود العسكرية ضد البرتغاليين. فبعث الغورى بحملة بقيادة حسين الكردى.

وقد وجد حسين الكردى - القائد المملوكى - إن كلا من الإمام المطهر وعامر بن عبد الوهاب يريد استخدامه لأغراضه الخاصة. وكان حسين الكردى نفسه يريد الإفادة من هذه الأطراف المتنازعة بما يفيد السيطرة المملوكية على اليمن. وكان طبيعيا أن يبدأ حسين الكردى بالقضاء على دولة بنى طاهر أنها هى التى كانت تسيطر على السواحل الجنوبية لليمن وخاصة عدن التى تعتبر حجر الزاوية فى المخططات الدفاعية المملوكية ضد الأسطول البرتغالى، بل لقد كانت «عدن» هدفا يتسابق عليه البرتغاليون والمماليك إذ حاول البرتغاليون الاستيلاء عليها دون جدوى. ولقد حاول المماليك كذلك الاستيلاء عليها ولكنهم فشلوا رغم أن الإمام المطهر قدم مساعداته لحسين الكردى.

وفى هذا الصدام بين القوتين بدا واضحا أن آل طاهر سيخسرون المعركة وذلك لأن المماليك كسبوا بسهولة تحالف الإمام شمس الدين، الذى كان يتحرق شوقا على رؤية نهاية آل طاهر. ومن ناحية أخرى كان لدى الحملة المملوكية بعض الأسلحة النارية التى لم يسبق أن عاينها أهل اليمن إلا بعد القصف البرتغالى لموانى الساحل.

فكانت تلك الأسلحة النارية قاسية شديدة المفعول يرهبها أهل المدن أشد الرهبة، ومن ناحية ثالثة كانت اقتصاديات آل طاهر قد تلقت ضربات مباشرة على يد الأسطول البرتغالى بسبب الدمار الذى حاق بعدن وغيرها من الموانى ولأن الأسطول البرتغالى أغرق ما كان لعامر بن عبد الوهاب من سفن تعمل بين الهند واليمن. فجفت موارد عامر بن عبد الوهاب الاقتصادية وأصبح عليه أن يحارب ضد حملة مملوكية ذات أهداف بعيدة بإمكانيات غير متوفرة له.

كان طبيعيا إذا أن يتفوق الجيش المملوكى على الطاهريين. فاستولى «حسين الكردى» على زبيد فى (٩٢١ هـ/١٥١٥م) ، وحاول عامر ابن عبد الوهاب الصمود فى تعز فاستولت عيها القوات المملوكية فى أواخر محرم (٩٢٣هـ/١٥١٧م). ثم استولت على المقرانة ولقى عامر بن عبد الوهاب مصرعه لتنزوى قوة آل طاهر من بعده فى عدن، بينما تابع المماليك فتوحاتهم فدخلوا مدينة صنعا (١٥١٧م). ويحدثنا المؤرخ اليمنى المشهور يحيى بن الحسين بن القاسم عن نكبة المماليك لصنعاء بقوله :

« وجرى على أهل صنعاء ما جرى على أهل بغداد من التتار».

ورغم أن سلوك الجند المملوكى كان سيئا إزاء أهل صنعاء. فليس هذا هو السبب الوحيد الذى شحذ همم الإمامة الزيدية لإنقاذ صنعاء من يد المماليك، ومواجهة المماليك عسكريا. فلقد ثبت أن فظائع الأئمة الزيديين فى معاملة المدن اليمنية نفسها التى وقعت فى قبضتهم لا تقل عما اقترفه المماليك فى صنعاء من قسوة. والحقيقة هى أنه بعد أن قضى المماليك على الدولة الطاهرية - ولم تعد هذه الدولة سوى قوة منزوية فى عدن - أصبح المماليك وجها لوجه أمام الإمامة الزيدية. وأصبح على الإمامة الزيدية أن تنفذ سياستها التقليدية القديمة. وهى مقاتلة أية قوة غيرها تعمل على توحيد البلاد دونها.

وكانت ظروف الإمام شمس الدين مواتية لشن حرب شاملة شعواء على المماليك فى اليمن. حيث لم تلبث أنباء مصرع الغورى وسقوط الشام ثم مصر فى يد العثمانيين إن جاءت إلى اليمن، فأوقعت المماليك هناك فى ارتباك عظيم وجعلتهم فى حيرة من أمرهم.

ويقال أنه «لما خشى الأمير الاسكندر بن محمد» - وهو أكبر القواد الذين خلفوا حسين الكردى فى اليمن - أن يظهر لأهل صنعاء ما جرى على مليكه صاحب مصر، فيثوروا عليه - تظاهر بالاعتذار إلى سلطان الروم، والموالاة له، وخطب باسمه على منبر صنعاء.

والواقع أن ما سار عليه الأمير اسكندر من سياسة الاعتراف بالأمر الواقع باعلانه الخضوع للسلطان سليم الأول خففت كثيرا من حدة التدهور الذى أصاب معنويات المماليك، عندما جاءتهم أنباء مصرع الغورى. فاعلانه الخضوع للسلطان جعله صاحب كيان واضح وأصبح له الحق فى أن يدافع عن دولة اليمن الكبيرة وأصبح من حقه أن يطلب مساعدة الدولة العثمانية ضد القوة المعادية له. أما إذا امتنع عن اعلان الخضوع للسلطان الجديد فى القاهرة فإنه هو ومن معه من المماليك يصبحون كمن لا دولة لهم، وأنهم مجرد جماعة لا سيد لها وتعتمد على سيفها فقط فى أن تحكم أرضا لم تكن لها من قبل. أما وقد خضع لسلطان القاهرة الجديد فهو يعمل باسمه وله ولأهداف ثابتة يتبعها سلاطين مصر فى كل زمان وهى أهداف منبثقة عن طبيعة الدولة الإسلامية الواحدة ومن أن اليمن كان خلال عصور التاريخ - بغض النظر عن نوع الحكومة القائمة فى مصر - تحت إشراف حكومة القاهرة أو على الأقل يسير فى نفس اتجاه السياسة المصرية. أو بمعنى آخر لقد أصبح للمماليك فى اليمن - بعد أن أعلنوا خضوعهم لسليم الأول - حق فى أن يبقوا فيه وأن يتابعوا سياستهم السابقة حتى تنجلى الأمور سواء فى مصر أو فى اليمن.

وبعث العثمانيون بقوة عسكرية إلى اليمن بقيادة حسين الرومى، وحاول أن يفرض سيطرته الكاملة - أو بمعنى آخر السيطرة العثمانية - على اسكندر وعلى

القوى المحلية المناوئة لهذه السيطرة الجديدة، ولكنه اصطدم بمقاومة عنيفة سواء من جانب اسكندر أو من جانب القوى المحلية.

ويبدو أن حملة حسين الرومى هذه لم يكن الهدف منها استفتاح اليمن بقوة الجيش وبحد السيف. وأغلب الظن أن المسئولين العثمانيين كانوا يعتقدون أن مجرد ظهور قوة مناسبة عثمانية فى اليمن كفيلة بأن تنقل سلطات الحكم إلى يد العثمانيين دون إراقة دماء كثيرة.

حقيقة كان باعلان الاسكندر ولاءه للسلطان العثمانى سليم الأول - امتد نفوذ هذا السلطان ولو اسميا على كل المشرق العربى : إلى الحجاز وإلى اليمن والعراق، وهى البلاد التى أعلن حكامها من أنفسهم خضوعهم للدولة العثمانية دون حرب.

ولكن كان اليمن يعانى من تزايد القوى المتحكمة فى مصيره. فقد أضيف النفوذ العثمانى إلى جانب المماليك والإمام وفلول آل طاهر فى عدن والبرتغاليين كقوى تتحكم فى مصير اليمن. وزاد عدد القوى المتصارعة هناك بسبب تدهور أمور اليمن الداخلية وعدم القدرة على خلق حكومة مركزية تتفوق على هذه القوى.

فقد تقاتل المماليك فيما بينهم، وتقاتل العثمانيون مع المماليك، وتقاتل أبناء الإمام شمس الدين فيما بينهم وظهر مدع للإمامة فى بلاد الخيمة منذ (١٥١٩م)، وتطلع حكام عدن إلى تعاون مع البرتغاليين يكفيهم شر الخطر الماثل أمامهم، وكان طبيعيا أن يعمل العثمانيون على انقاذ اليمن من هذه الفوضى الضاربة أطنابها حتى لا تكون بابا مفتوحا على مصراعيه أمام البرتغاليين.

وتعتبر حملة سليمان الخادم ١٥٣٨ هى الحملة العثمانية الأولى التى هدفت إلى السيطرة على اليمن سيطرة عثمانية واضحة وإلى تصفية الموقف هناك لصالح الحكم العثمانى. ومع أن القوة العثمانية التى صاحبت سليمان الخادم إلى اليمن كانت مناسبة إلا أن ظروف اليمن كانت قد تغيرت بسرعة خلال السنوات العشرين الماضية. فمع استمرار ذلك التفكك الذى أصاب اليمن كانت القوى المحلية على وشك اكتشاف شخصية ملكية يمنية زيدية قادرة على أن تجمع قوى عشائرية كبيرة حولها لتقاتل بها القوات العثمانية وغير العثمانية دون كل، ونعنى بذلك ارتفاع نجم المطهر بن الإمام يحيى شرف الدين الذى التجأ إلى استخدام الأسلحة النارية الأمر الذى جعل مهمة القوات العثمانية عسيرة شاقة.

ومن ناحية أخرى، كان سليمان باشا الخادم قائدا يعمل من أجل تحقيق أهدافه بأية وسيلة كانت . ولذلك كان سريع الالتجاء إلى الغدر للتخلص من القوى المناهضة له. فقد دعا عامر بن داود الطاهرى إلى وليمة حتى إذا ما استكان إليه الرجل قبض عليه ثم شنقه واستولى على عدن غدرا وقضى نهائيا على دولة بنى طاهر. كذلك فعل بالمماليك إذ استولى على زبيد التى كانت معقلهم الكبير و«انقطعت ولاية هذه الطائفة الشركسية من الجزيرة اليمنية» تماما. ثم ترك سليمان باشا قواته فى اليمن وعاد إلى القاهرة وتولى مصطفى باشا مهمة الاستيلاء على تعز ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى. فقد كان معروفا حينذاك أنه لا قيمة لزبيد أو عدن إلا بامتلاك «تعز وما يليها من البلاد». وزحفت القوات العثمانية شمالا. واصطدمت بمقاومة عنيفة تولاها المطهر بن الإمام مرتكزا على قاعدته الحصينة فى تعز.

وحانت للعثمانيين فرصة ذهبية عندما وقع الشقاق بين أولاد الإمام فى أعقاب توزيعه ما تحت يده من مناطق على أولاده يحكم كل منها قطعة منها. فدب الخلاف بين الأبناء ويصور لنا المؤرخ يحيى بن الحسين هذه التطورات بقوله:

«فيها ظهر النقص على صفحات دولة الإمام شرف الدين، وإنحلال عقد ملكه المكين، واقبال الدولة العثمانية على الجزيرة اليمنية. وكان السبب القوى فى استيلاء الجند السلطانى على القطر اليمنى، هو ما حدث بين الإمام وأولاده من التنازع والاختلاف، والتفرق بعد الائتلاف، والاشتغال بمن هم فيه، عن تدارك الأمر وتلافيه، حتى عظم الحادث، وتفاقم الخطب والكارث، وجعلت جنود السلطان تسرى فى اليمن سرى النار فى الهشيم، وتعلق فى أطرافها تعلق الحرباء فى الجذع القديم».

ونتيجة لذلك تمكن أويس باشا العثمانى من أن يعيد السيطرة العثمانية على تعز، واستولى العثمانيون من بعد على « أكثر اليمن الأسفل» وحرضهم بعض أهل اليمن فى «النهوض إلى اليمن الأعلى» (٩٥٤ هـ/١٥٤٧م). فتحركت فعلا القوات العثمانية نحو الشمال الوعر الصعب المسالك الذى تتربص فيه القبائل الزيدية بالقوات العثمانية على طول طرقه الضيقة بين الجبال الشاهقة. وكان الهدف من هذا الزحف هو الاستيلاء على صنعاء ولكن القيادة العثمانية كانت أمورها مضطربة الأمر الذى أدى إلى مصرع أويس باشا نفسه وتولى العمليات من بعده ازدمر باشا وضرب الحصار على صنعاء حتى استولى عليها. فكان «يوما عصيبا، قتل فيه من أهل صنعاء أحد عشر ومائة إنسان، ونهبت البيوت، وهتكت المحارم وبيعت النساء فى الأسواق، ومنهم من زال عقلها، ومنهم من قتلت نفسها وفقد من أعيان صنعاء عدة، والوت بهم الشدة».

وكانت الأمور توحى بأن أمر المقاومة الزيدية على وشك الانتهاء، خاصة وأن أبناء الإمام كانوا فى صراع دموى محتدم فيما بينهم. وكان بعض أبناء الإمام يحارب فى وقت واحد القوات العثمانية وقوات محلية ثائرة.

وحاول ازدمر أن ينهى مقاومة المطهر فدعاه إلى الاستسلام ولكن الأخير كان يدرك أنه يستطيع أن يعيد تشكيل قواته المرة بعد المرة. فاستمر القتال حتى وقع تطور جديد بمقدم باشا جديد هو مصطفى النشار الذى بعث به السلطان العثمانى لانقاذ نواحى الحبشة من البرتغاليين ولذلك عمل مصطفى باشا النشار على الوصول إلى تفاهم مع المطهر (٩٥٩ هـ/١٥٥١م) ليتفرغ لقتال الافرنج قائلا له :

«ان السلطان أمره أن يدفع جميع من فى اليمن من الأروام لقتال الافرنج المتغلبين على الحبشة» ولكن لم تكلل المفاوضات بالنجاح وعاد القتال إلى الطرفين. وحاول العثمانيون الاستيلاء عى حصن «ثلا» - معقل المطهر- ولكن دون جدوى حتى اضطر الطرفان إلى عقد الصلح، أبقى للمطهر ما تحت يده والعثمانيين ماكان تحت يدهم (١٥٥١). وحاول محمود باشا (١٥٦٠م/٩٦٨هـ) أن يحول هذا الصلح إلى صلح دائم ولكن لم يفلح فى مسعاه.

ويبدو أن وفاة الإمام يحيى شرف الدين (٩٦٥ هـ/١٥٥٧م) وارتقاء المطهر الإمامة دون منافسة قوية من اخوته حث فيه روح القتال وشن حربا شاملة ضد العثمانيين لينفرد هو بالحكم فدار صراع مرهق بين المطهر والعثمانيين. واستطاع المطهر أن ينزل هزائم قاسية بالعثمانيين وأن يحاصر ويستولى على صنعاء فى ٩٧٥هـ/١٥٦٧م وعلى عدن حتى أنه لم يبق فى يد

الباشا العثمانى «من البلاد غير زبيد». وكان لابد من أن يعزز العثمانيون قواتهم فى اليمن ليستعيدوا هيبتهم هناك. وتحملت مصر أعباء امداد اليمن بالقوات والمؤن والأموال. فأرسل العثمانيون حملة جديدة بقيادة والى مصر سنان باشا ٩٧٧هـ/١٥٦٩م.

تعتبر حملة سنان باشا الفتح الثانى لليمن وتمكن العثمانيون خلالها من استرداد تعز وفرضوا سيطرتهم على اليمن الأسفل وذمار وكوكبان. وتبادل المطهر والعثمانيون النصر والهزيمة. ولكن كفة العثمانيين عند وفارة المطهر كانت هى الراجحة (١٥٧٢).

وزادت رجحانا خلال الفتن الجامحة التى اجتاحت اليمن بسبب اقتتال أبناء المطهر فيما بينهم. حتى لقد قال المؤرخ يحيى بن القاسم «وقل المعارض للباشا حسن» الذى تولى باشوية اليمن واستطاع أن يخضع معظم أراضى اليمن فى مطلع القرن السابع عشر.

ومع هذا كانت شواهد الأمور تؤكد يوما بعد يوم أن اليمن لا يمكن أن يصفو خالصا لقوة واحدة فقط، وأن الإرهاق قد اشتد بالمقاتلين. فاتجهوا إلى عقد صلح ولو مؤقت. وتم ذلك فى ١٦١٨م/١٠٢٨هـ. وكانت مدة الصلح عشر سنوات ولكن وقعت تطورات سريعة فقد توفى الإمام المنصور بالله القاسم فى ١٠٢٩هـ. وخلفه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، وسرعان ما عاد القتال بين الإمام الجديد وحيدر باشا العثمانى. ويبدو أن العثمانيين كانوا عاجزين باستمرار عن استرداد أى أرض يخسرونها فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تواجه غزوا فارسيا خطيرا للعراق منذ ١٦٢٣ على يد الشاه عباس الثانى، وثورة كبيرة فى لبنان بزعامة فخر الدين المعنى الثانى

ورجحت كفة الإمامة الزيدية، وفقد العثمانيون معظم أراضى اليمن حتى لقد أصبح الصلح خيرا لهم واستطاعوا الحصول عليه ولكن لفترة قصيرة (١٠٤٤ هـ/١٦٣٤م) إذ لم يلبث الإمام - وكان يشعر بأن التطورات تجرى لصالحهم أن ضرب الحصار على زبيد وطرد منها العثمانيين ومن اليمن كلها فى ١٦٣٥م/١٠٤٥هـ. ولم يعد إليه العثمانيون إلا فى أعقاب انسحاب القوات المصرية من تهامه فى الأربعينات من القرن التاسع عشر.

خروج العثمانيين من اليمن:

الدولة العثمانية كان قد أصابها شىء من الضعف فى أواخر القرن السادس عشر حتى تسلم أمورها مراد الرابع الذى يطلق عيه لقب «آخر السلاطين العظام». فقد أعاد روح النشاط القوية إلى أجهزة الدولة وخاصة العسكرية وحقق انتصارات كبيرة فقد أخمد ثورة لبنان بأن قضى على فخر الدين المعنى الثانى (١٦٣٥).

وبعد ذلك بأربع سنوات شن حربا شاملة ضد الدولة الفارسية واسترد منها العراق الذى عاش تحت سيطرتها زهاء خمسة عشر سنة (١٦٢٣ـ١٦٣٨). ولكن إذا كانت الدولة العثمانية على هذا النحو من التفوق والمقدرة العسكرية فلماذا تركت أمور اليمن تتطور على تلك الصورة التى أدت إلى طرد القوات العثمانيةمنه.

يبدو أن اليمن لم يعد من وجهة النظر العثمانية بالمنطقة الحساسة التى تتطلب من الدولة اتخاذ إجراءات سريعة مضادة ضد القوى المعادية للحكم العثمانى هناك. فلقد زال عنه الخطر البرتغالى منذ هزيمة البرتغاليين أمام

التحالف الفارسى الإنجليزى فى ١٦٢٢ وطردهم من معقلهم الحصين هزمر، ومنذ أن ضعفت قدرات البرتغال العسكرية فى أعقاب انضوائها تحت الحكم الأسبانى فى ١٥٨٠ وما تلى ذلك من انتصار بريطانى كبير على الأرماد الأسبانية فى ١٥٨٨. أو بمعنى آخر لم تعد هناك مسئولية على العثمانيين لاتخاذ اليمن قاعدة لصد العدوان البرتغالى. بل أن القوى البحرية الأوربية الكبرى التى جاءت على طريق الهند بعد ضعف البرتغاليين وتدهورهم كانت لا تعنى كثيرا بأمر الصراع الصليبى ضد المسلمين،

ولا تفكر - كما فكر البرتغاليون - فى الاعتداء على الأراضى الحجازية المقدسة. هذا إلى أن هذه القوى البحرية الأوربية كانت تعنى بالدرجة الأولى بأمر التجارة خاصة أن النشاط البحرى الهولندى والإنجليزى والفرنسى كان قائما على أساس شركات كبرى تجارية تسعى وراء الربح لا وراء التعصب الدينى الذى تميز به رجال شبه جزيرة ايبيريا.

أما وقد أصبح اليمن فى مأمن ولا خطر عليه فإن أمر استمرار الحكم العثمانى فيه أو عدم بقائه قد أصبح رهن مكاسب الدولة العثمانية منه. وحيث أن اليمن كان قد أبدى مقاومة متطاولة دموية كلفت الدولة العثمانية الكثير من الجهد والمال والدماء فلماذا يستمر هذا التورط الذى لا طائل من ورائه. وكان من فلسفة الحكم العثمانى أن يترك البلاد تحت حكم القوى المحلية التى أعلنت الولاء للسلطان العثمانى.

إذ كانت تفضل الحكم غير المباشر خاصة فى تلك الأقاليم النائية التى تتحكم فيها عصبيات محلية قوية. وحيث أن بقاء القوات العثمانية أصبح متعذرا

ومكلفا وبدون هدف واضح فلا ضير من أن يترك اليمن لأهله. ولا شك أن بعد المسافة بين مركز الدولة الأستانة واتساع نطاق الدولة العثمانية من قلب أوروبا الشرقية إلى العراق ومصر والجزائر كان يخفف من وقع خروج القوات العثمانية من اليمن ولا يظهرها وكأنها خسرت إقليما جوهريا.

وكما يمكن أن يلام العثمانيون - ساسيين وعسكريين - من حيث أنهم فشلوا فى تجميع قلوب أهل اليمن حول الحكم العثمانى، فان اللوم كذلك ينصب على الأئمة أنفسهم من حيث أنهم فشلوا فى الارتفاع إلى مستوى العصر وإدراك أن القوات المملوكية فى ١٥١٦/١٥١٧ والقوات العثمانية - من بعدها - لم تأت إلى اليمن ابتغاء الكسب المادى منه وإنما إبتغاء الدفاع عن بلاد المسلمين عامة واليمن بصفة خاصة، وأن وقت التضحية بالمصالح الشخصية - بل بالمصالح الإقليمية والمذهبية من أجل تحقيق أهداف أسمى وأبعد مدى.

الفتح العثمانى للعراق

خلال الحرب الفارسية ـ التركية وفى أعقاب انتصار الجيش العثمانى فى موقعة جالديران ١٥١٤ أعلن حاكم بغداد ـ ذو الفقار ـ انفصاله عن الدولة الفارسية، وأعلن ولاءه للسلطان سليم وخطب باسمه على المنابر فى بغداد. واكتفى السلطان العثمانى بضم المنطقة الشمالية والموصل إلى دولته والتفت إلى قتال المماليك . وانشغل العثمانيون من بعد ذلك عن أمور العراق . فكانت فرصة طيبة انتهزها الفرس إعادة سيطرتهم على العراق مرة أخرى.

ومع ما بذله ، ذو الفقار ـ حاكم بغداد ـ من ارسال بعوث إلى الأستانة والخطبة باسم السلطان سليم الأول على المنابر، وضرب السكة باسمه فلم يتلق منه مساعدات عسكرية ما فى الوقت الذى كان فيه الشاه طهماسب ـ خليفة إسماعيل الصفوى ـ قد أتم استعداداته للزحف على بغداد (٩٣٦ هـ/١٥٣٠م).

ومع هذا صمم ذو الفقار على أن يستمر فى الحكم، وأن يدافع بما لديه من قوات ضد الغزوة الفارسية التى كانت متفوقة من كافة النواحى. ولم تأت ضربة قاضية لذى الفقار من الخارج، وإنما جاءته من سيوف اخوته محمد بك وأحمد بك اللذين تآمرا عليه طلبا للحكم فى ظل الشاه الفارسى. وكانت الضربة الحاسمة وسريعة وضعت العراق مرة أخرى تحت حكم الشاه طهماسب الذى كافأ المتآمرين ووزع حكم بغداد والمدن الكبرى والأقاليم العراقية على عدد من الشخصيات الفارسية وعاد من بعد ذلك إلى ايران (١٥٣٠).

وكان سقوط بغداد وعودة العراق إلى الحكم الفارسى مثيرا كافيا لأن يلفت أنظار السلطان سليمان الأول (القانونى) إلى خطورة هذا التطور الذى

يهدد ظهر الدولة العثمانية فى وقت كانت فيه منصرفة إلى قتال الامبراطورية الرومانية المقدسة فى أوروبا الشرقية بل وفى البحر المتوسط وشمال افريقية. وكانت استصراخات سنة العراق بالسلطان العثمانى لا تنقطع. ولهذا كان لابد من أن يؤدى هذا التطور الجديد إلى حرب بين الدولتين الفارسية والعثمانية. فأعد السلطان سليمان حملة كبرى بقيادة إبراهيم باشا زحف بها إلى حلب ثم نقل المعركة إلى قلب الدولة الفارسية واستولى على العاصمة تبريز نفسها وبعد أن أصبحت اذربيجان تحت سيطرة العثمانيين زحف الجيش فى اتجاه بغداد.

وكان على حكم بغداد حينذاك حاكم يدعى محمد التكه لى من الأكراد. وقد وجد أنه فى موقف جد عصيب فماذا يفعل هو لمواجهة الجيش العثمانى الضخم بعد أن ثبت أن الجيش الفارسى الرئيسى لم يجرؤ على خوض معركة لوقف تقدمه فى قلب ايران نفسها. ولذلك عزم منذ البداية على مغادرة المدينة وفر منها إلى البصرة لينضم إلى الجيش الفارسى بينما سقطت بغداد بسهولة فى يد السلطان العثمانى سليمان القانونى (١٥٣٤). وأخذ السلطان يمد حكمه إلى مختلف أرجاء البلاد العراقية. واكتفى بقبول خضوع راشد بن مغامس - حاكم البصرة - وابنه.

ولا تكاد تمر سوى سنوات قليلة حتى قرر السلطان العثمانى أن يمد سيطرته المباشرة على البصرة والجزائر والساحل الغربى للخليج العربى (القطيف، البحرين ، مسقط). فهل كان هذا الاتجاه نحو استكمال السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربى وليد خطة توسعية عثمانية فقط ؟ أم أنه كان تنفيذا لمخطط عام ينسق بين أوجه النشاط العسكرى العثمانى المنطلقة من قواعدها الشمالية صوب المياه الجنوبية الإسلامية والهندية عبر البلاد العربية

وكل من العراق ومصر واليمن ضد العدوان البرتغالى على ديار المسلمين وتجاراتهم؟

لا شك أنه كانت التجارب العديدة والخبرات العسكرية البحرية خلال الحملات البحرية العثمانية ضد العدوان البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية أكدت أن مثل هذه الحملات الخارجية من ميناء السويس صوب المياه الهندية والخليج العربى تحتاج إلى حد كبير إلى أن تكون شواطئ الخليج العربى تحت يد عثمانية أو وطنية وكانت معاقل البرتغاليين فى مسقط والبحرين تهدد النشاط العثمانى فى تلك الجهات،

كما أكدت أن الأسطول العثمانى فى حاجة إلى ميناء كبير يمكن أن يلعب الدورين الضروريين لنجاح الحملات البحرية ضد البرتغاليين فى المياه الهندية هما :

(١) قاعدة بحرية هجومية تنطلق منها الأساطيل فى حملات مباشرة ضد القواعد البرتغالية فى الخيج العربى ، وضد الوجود العدوانى البرتغالى فى المياه الهندية.

(٢) أن يكون الميناء ملجأ للأساطيل العثمانية المنطلقة من السويس إلى المياه الهندية ترسو فيها ما بين الحملات لتستريح القطع المقاتلة ورجالها، لترمم ما عطب منها ولتستعد لحملات جديدة.

لقد كانت السويس هى ميناء انطلاق الحملات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين ولكن كان لابد من قاعدة عثمانية فى المياه العربية القريبة من المحيط الهندى. ومن هنا برزت قيمة البصرة استراتيجيا للمجهود البحرى العثمانى.

وسبقت الإشارة إلى أن السياسة العثمانية عزمت على أن تفرض سيطرتها بقوة على البحر الأحمر وعلى اليمن حتى تطهره من العدوان البرتغالي، وحتى يستمر على ما كان عليه فيما مضى «بحيرة إسلامية» صرفة مفتوحة للتجارة العالمية السلمية ولذلك فبعد الاستيلاء العثماني على العراق (١٥٣٤) ركزت القوات العثمانية جهودها في السيطرة على اليمن واستولت على عدن في ١٥٣٨. وبعد ذلك بسنوات قليلة اتجهت القوات لتضعها تحت الحكم المباشر العثماني. وتم ذلك فعلا في ١٥٤٦ بعد انتصار الحملة العثمانية على راشد بن مغامس، وأصبحت البصرة من بعد قاعدة عثمانية بحرية هامة في المنطقة. وبعد فتح البصرة اتجهت الحكومة العثمانية إلى بسط سيطرتها على المناطق المحيطة بالبصرة عن مشرق وغرب وجنوب. أو بمعنى آخر في اتجاه عربستان والحويزة والجزائر شرقا، وغربا في اتجاه عشائر ما بين البصرة والاحساء، وفي اتجاه الاحساء (القطيف) والبحرين ومسقط. وكلما كانت المنطقة بعيدة عن الخطر البرتغالي المباشر كانت أشد مقاومة للتوسع العثماني. فلا غرو أن كانت مقاومة أهل الجزائر والحويزة عنيفة، بينما لم تصادف القوات العثمانية على شواطئ الخليج العربي الا مقاومة من جانب البرتغاليين أنفسهم.

فبالنسبة لمنطقة الجزائر كانت صلبة عنيدة في مقاومة العثمانيين بسبب طبيعة بلادها الوعرة ولذلك كان من الممكن أن يحصل العثمانيون من وقت لآخر على خضوع آل عليان (حكام المنطقة) خضوعا اسميا دون أن يتحول هذا الخضوع إلى سيطرة مباشرة عثمانية على الجزائر.

أما بالنسبة لشواطئ الخليج العربي العربية فقد كان الفضل للأسطول العثماني في التصدي بقوة للأسطول البرتغالي هناك وفي أن يوجه ضربات إلى

البرتغاليين فى مسقط والبحرين. ولكن كفة البرتغاليين كانت باستمرار هى الراجحة ولن تتخلص سواحل الخيج اغربية من الاستعمار البرتغالى الا على يد اليعاربة.

ومع أن السيطرة العثمانية على شواطئ الخليج العربى كانت قصيرة ولم تكن واضحة، الا أنها أثبتت أن العثمانيين كانوا يقومون بدور الدولة الإسلامية العامة المسئولة للدفاع عن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وهو دور سيفيد منه العثمانيون عندما يطرح إدعاء الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر أنها صاحبة الحق فى التحدث باسم المسلمين وأنها صاحبة الحق فى الخلافة وفى كل البلاد الإسلامية - على الأقل - الممتدة من الخليج العربى واليمن الجنوبية إلى حدود مراكش الشرقية (الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقية).

التوسع العثمانى فى شمال افريقية

بينما كان التوسع العثمانى فى المشرق العربى نتيجة لمعارك حربية كبرى فى جالديران (١٥١٤) ومرج دابق (١٥١٦) والريدانية (١٥١٧) فضلا عن المعارك والحملات التى خاضتها القوات العثمانية لاستفتاح اليمن والعراق، نجد أن التوسع العثمانى فى المغرب العربى كان فى معظمه نتيجة لالحاح القوى المعنية هناك على العثمانيين أن يدخلوا فى الدولة العثمانية لتقوية الكفاح الإسلامى ضد العدوان الصليبى المتصاعد على ديار المسلمين فى شمال افريقية. فلقد كان شمال افريقية من ليبيا حتى مراكش يتعرض لسيطرة عسكرية مباشرة أوربية أو لحملات مدمرة متتالية على كبريات موانيه ومدنه. كما قامت من موانىء شمال افريقية حملات ضد القوى الأوروبية المطلة على البحر المتوسط.

وقد نشطت العمليات البحرية التى كان يقوم بها قباطنة مسلمون فى البحر المتوسط لعدة أسباب معظمها يرجع إلى عوامل دينية وأخرى اقتصادية. فقد كان الصراع الصليبى على أشده بين المسلمين فى شمال افريقية واسبانيا بوجه خاص. وكان سقوط غرناطة يحمل أهل شمال افريقية مسئولية متابعة الكفاح خاصة من أجل أولئك المسلمين الذين أصبحوا يعيشون تحت حكم استبدادى قاسى فى اسبانيا.

كذلك هاجرت أعداد كبيرة من مسلمى الأندلس إلى شمال افريقية، ونزلت هذه الموجات فى موانىء شمال افريقية. فكانوا يحثون أصحاب السفن الحربية على العمل ضد الاسبان بصفة خاصة وضد التجارة الأوروبية والأساطيل الأوربية بصفة عامة. وثبت أن هذه العمليات كانت تدر أرباحا كبيرة لأصحابها.

لقد كانت سواحل شمال افريقية هدفا كبيرا من أهداف أسبانيا، بعد سقوط غرناطة. لا للأسباب الصليبية فقط بل كذلك لأسباب اقتصادية هامة حيث كانت العمليات البحرية التى يقوم بها المسلمون ضد سفن الأسبان تكاد أن تشل نشاطهم التجارى خاصة فى أعقاب هجمات السفن الإسلامية على الموانىء الأسبانية فى ١٥٠٥.

فأرسل فرديناند ـ ملك اسبانيا ـ حمة إلى المرسى الكبير واستولى على الميناء بعد مقاومة عنيفة (١٥٠٥) ثم استولى الاسبان على وهران (١٥٠٨) وبجاية (١٥١٠) وطرابلس (١٥١٠). وأصبح شمال افريقية وكأنه قد دق فيه أكثر من اسفين خطير. وتطلع الناس إلى شخصية مقاتلة تستطيع أن تأخذ بيدهم فى هذه الأزمة. وكان طبيعيا أن يكون القائد الذى يلبى آمال الناس حينذاك، بحريا شديد البأس إزاء العدوان الأسبانى فى شمال افريقية. ولقد كان عروج ـ أحد أصحاب السفن الحربية فى البحر المتوسط ـ من هذا النوع الذى يريده الأهالى فى شمال افريقية. ولكنه عندما وضع نفسه وقواه فى الدفاع عن تلك البلاد تعرض لمتاعب جمة ناشئة عن أن البلاد كانت فى حالة تفكك شديدة جعلت من اليسير على الأسبان أن يجدوا لهم أصدقاء وحلفاء بين الزعامات الإسلامية هناك.

كان عروج يعمل فى القسم الشرقى من البحر المتوسط فى مطلع القرن السادس عشر وتحول إلى القسم الغربى منه. وهناك بدأ اتصالاته بالقوى الإسلامة فى شمال افريقية. وكانت الأسرة الحفصية فى تونس قد وضعت بعض إمكانياتها فى خدمة قضية منكوبى الأندلس. ومن ثم كان الالتقاء بين الطرفين مؤديا إلى تعاون فى هذا المجال: الجهاد. وهو فى نفس الوقت جهاد

يؤدى إلى مكاسب مالية اتفق عروج مع السلطان الحفصى محمد بن الحسن (١٤٩٤ـ١٥٢٦) على اقتسامها. ولقد قام عروج بواجبه المزدوج بكفاءة كبيرة مرتكزا على جزيرة جربة التى حصل عليها من السلطان الحفصى. وكان طبيعيا أن يستنجد به من يتعرض للتهديد الاسبانى. فاستنجد به حاكم بجاية، ولكن لم يحرز عروج نجاحا هناك ، ولكنه استولى على (جيجل) لتصبح قاعدته بدلا من جربه بسبب تصاعد خلافه مع السلطان الحفصى. كذلك استنجد أهل مدينة الجزائر بعروج فى (٥١٦) ولكنه فشل فى احتلال القلعة التى تشرف على الميناء وتسيطر عليه وكانت فى يد حامية اسبانية قوية.

وأدى هذا الفشل إلى صدام بين عروج وسالم التومى - حاكم الجزائر - وكان الموقف لا يحتمل الا واحدا من أمرين :

- إما أن يغادر عروج البلاد فاقدا الكثير من مكانته وآماله.

- وأما أن يبقى فى الجزائر لتصبح قاعدة قوية له.

ولقد أصر عروج وجنده على الأمر الثانى فاستولى على الجزائر وأقام نفسه سلطانا فيها وثبت حكمه بالتغلب على حملة اسبانية ضده فى ١٥١٦، واستطا ع أن يمد من سلطته إلى ما وراء الجزائر. خاصة وأن القوى الإسلامية كانت منشقة على نفسها حتى الأسرة الواحدة الحاكمة كانت منقسمة على نفسها. ومن ذلك استنجد به بعض زعماء تلمسان - مقر حكم الأسرة الزيانية - واستولى على هذه المدينة فى ١٥١٧. ولكن لم يتورع الزيانيون عن التحالف مع الاسبان ومحاصرة عروج فى تلمسان واتفقوا عليه حتى غادر المدينة وقتل خلال ابتعاده عنها (١٥١٨). ولكن لم يلبث أخوه خير الدين أن تابع كفاحه وعرف باسم باربا روسا.

كان خير الدين يدرك أن الصراع بين مسلمى شمال افريقية والقوى الأوروبية صراع بين قوى كبرى، وأن الدخول فى الدولة العثمانية والإفادة من إمكانياتها الكبرى فى الدفاع عن شمال افريقية سيتيح فرصا أكبر للنصر. ومن ناحية أخرى كان يرى أن العداء المطلق للدول الأوربية لن يفيد الكفاح الإسلامى، وإنما هناك قوى أوربية كبيرة - مثل فرنسا - على عداء شديد للغاية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة واسبانيا، ومثل هذا العداء - من وجهة نظر خير الدين - يجب أن يستغل عن طريق تحالف تعاهدى بين الدولة العثمانية والدولة الفرنسية ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة، العدو المشترك لهما وأكبر خطر يهدد مستقبل شمال افريقية.

كاتب خير الدين بارباروسا السلطان العثمانى سليم الأول فى أعقاب انتصارات هذا الأخير على المماليك وسيطرته على مصر. وأعلن خير الدين ولاءه له فأمده السلطان بقوة من الانكشارية واسند إليه ولاية الجزائر. فبدأ بذلك تاريخ خير الدين بارباروسا كرجل من كبار قواد الدولة العثمانية فى البحر المتوسط.

ولكن خير الدين كان مكافحا لا تلين عريكته. قادرا على مواجهة النصر والهزيمة كل بما يستحقه من عناية وإعادة نظر، ونقد فى الأساليب التى كانت قد اتخذت وفى الأساليب التى كان يجب أن تتخذ فى المستقبل. وصراعه من أجل الاحتفاظ بالجزائر قاعدة له ، ومن أجل تحرير تونس من السيطرة التى فرضتها الامبراطورية الرومانية المقدسة ومن خيانات الأسرة الحفصية، يؤكد لنا تلك الحقائق.

استطاع خير الدين أن يوطد - بعد جهد - نفوذه فى الجزائر (١٥٢٥) وأن يستولى على القلعة التى كانت لا تزال فى يد الاسبان (١٥٢٩) الأمر الذى حث الاسبان فأعدوا ضده حملة بحرية كبيرة بقيادة القائد الجنوى المشهور اندريا دوريا. ولكنه فشل فى تحقيق أهدافه (١٥٣١). هذا ، بينما تطلع خير الدين إلى مد سيطرته على تونس. وطلب من السلطان العثمانى أن يوافقه على ذلك. فوافقه وأعد خير الدين حملة على تونس استولت عليها فى ١٥٣٤ ليقضى على حكم الأسرة الحفصية مؤقتا ولتصبح تونس مثل الجزائر نيابة من النيابات العثمانية فى شمال افريقية.

ولكن هذا الامتداد الكبير لسلطة خير الدين والعثمانيين كانت خطرا كبيرا فى نظر أمراء ايطاليا والبابوية وحثوا الامبراطور شارل الخامس على ارسال حملة ضد خير الدين فأرسل شارل الخامس حملته المشهورة الكبيرة إلى تونس.

ومع أن خير الدين لم يكن موفقا فى صد حملة شارل الخامس إلا أنه كان فى نظر السلطان سليمان العثمانى أجدر من يتولى مهمة إعادة تنظيم الأسطول العثمانى ليؤهله للمهام الكبرى التى تنتظره. وأصبح قبطان باشى أى قائد عام الأسطول العثمانى.

وحيث أن مستقبل الصراع البحرى فى البحر المتوسط أصبح بين يدى خير الدين أصبح هو نفسه هدفا لكثير من المؤامرات بقصد إبعاده عن السلطان العثمانى بل بقصد تحالفه مع الامبراطور شارل الخامس. كما كان فرنسوا ملك فرنسا يسعى إلى كسبه إلى جانبه. ولكن بقى خير الدين مخلصا للسلطان. وإليه يرجع الفضل فى تكوين تحالف عثمانى - فرنسى ضد شارل الخامس. فما كان من الامبراطور الا أن رد على ذلك بحملة بحرية كبرى بقيادة اندريا اوريا فى

١٥٤١ إلى الجزائر إلا أن عاصفة شديدة هبت عليها فشتت معظمها وأصبحت الجزائر آمنة من الهجوم بل قيل أنها أصبحت فى نظر الأوربيين المدينة التى لا تقهر. ولم يلبث أن توفى خير الدين فى ١٥٤٦.

وتقديرا للمجهودات الكبيرة التى قام بها خير الدين اسند السلطان منصب بكلربكية الجزائر إلى ابنه حسن باشا.

وقد واجه حسن باشا القوى السابقة التى واجهها أبوه.

١- الأسبان فى وهران.

٢- الأسرة الزيانية فى تلمسان. وكانوا يحاولون اللعب على الطرفين العثمانى والاسبانى.

٣- الأسرة السعدية الناشئة فى المغرب منذ منتصف القرن السادس عشر.

ورأى حسن باشا أن من الخير أن يتعاون مع الأسرة السعدية فى مراكش ضد اسبان وهران أولا، إلا أن السعديين استغلوا هذا التحالف فى السيطرة على تلمسان (١٥٥٠) وبدأوا يتوسعون بشكل يهدد العثمانيين لا الاسبان. فأسرع حسن باشا إلى وضع يده على تلمسان ، ولكن دون أن يقضى على الأسرة الزيانية.

انهت الحكومة العثمانية خدمات حسن باشا فى ١٥٥١ وخلفه صالح بن باديس الذى استولى على فاس وقضى على الأسرة الزيانية، واستولى على حجر باديس من الأسبان وكذلك انتزع منهم بجاية (١٥٥٥) ولكنه لم يلبث أن توفى وهو يحاول منع قيام تحالف بين السعديين والأسبان فى وهران.

ومن بعده انتشرت الفوضى واستبد الجند بتوجيه الأمور وقتلوا الباشا، الأمر الذى جعل السلطان يرسل إليهم حسن باشا (ابن خير الدين) ليعيد الهدوء إلى المنطقة. فوصل الجزائر فى ١٥٥٧. وسيطر على الموقف، وسيطر على تلمسان واستعد لطرد الأسبان من وهران وأنزل بهم هزيمة قوية ولكن دون أن يتمكن من احتلالها. بينما توجهت حملة جديدة من أسبانيا وايطاليا ضد طرابلس الغرب، ولكن انتصر الأسطول العثمانى على هذه الحملة.

ويبدو أن سيطرة حسن باشا على الموقف الداخلى كانت مؤقتة حيث لم يلبث أن وقع تمرد بين الجند فما كان من هؤلاء إلا أن قبضوا على حسن باشا وأرسلوه مكبلا إلى الأستانة (١٥٦١). ومع هذا لم يلبث السلطان أن أعاده إلى الجزائر فى ١٥٦٢. ليتابع العمل من أجل تحرير وهران ولكنه لم يوفق بينما كافأه السلطان بتعيينه قبطان باشى الأسطول العثمانى ومات فى ١٥٧٢.

تولى بكلربكية الجزائر بعد ذلك على العلج فى ١٥٦٨. وكان يود لو حقق آمال خير الدين فى السيطرة الكاملة على شمال افريقية. وكانت أمور تونس قد آلت إلى الحفصيين إلا أنهم كانوا فى تدهور مستمر خاصة فى أعقاب سيطرة القائد البحرى العثمانى طرغوث على طرابلس فى ١٥٥١ إذ أصبحت تونس بذلك محصورة بين القوى العثمانية فى طرابلس والجزائر. ولم يلبث أن شن على العلج حملة ناجحة استولى بها على تونس فى ١٥٦٩. فردت البابوية والبندقية على ذلك بتحالف ضد السلطان العثمانى وخاضوا ضد الأسطول العثمانى معركة ليبانتو ١٥٧١ فكانت هزيمة للعثمانيين وبداية لتدهور قوتهم البحرية. ورغم هذه الهزيمة إلا أن العلج كان ماهرا فى إنقاذ عدد كبير من السفن الأمر الذى جعله محط تقدير السلطان العثمانى وأصبح قبطان باش الأسطول العثمانى . وأعاد بناء الأسطول العثمانى خاصة فى أعقاب سقوط تونس مرة

أخرى بيد الأسبان فى ١٥٧٣. وأعدت حملة كبيرة تولى قيادتها سنان باشا (١٥٧٤) واستولى على تونس وقضى نهائيا على الحكم الحفصى فيها.

وبعد استرداد العثمانيين لتونس تطلع على العلج إلى المغرب وكان جادا فى تنفيذ مشروعه ولكن حال دون ذلك عدة أسباب وظروف:

١- لقد أحرز المغاربة نصرا كبيرا على البرتغاليين فى معركة وادى المخازن فى ١٥٧٨ جعلتهم محط تقدير السلطات العثمانية فتوقفت الحملة المجهزة ضدهم عن متابعة التقدم.

٢- ظهور شخصية قوية حاكمة فى المغرب وهو المنصور السعدى.

٣- وفاة العلج على فى ١٥٨٧ ومن بعده أدخل شمال افريقية فى النظام العثمانى (الولايات).

لقد أدت تلك الجهود العثمانية فى شمال افريقية إلى أن تصبح كل من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ولايات عثمانية، ولم يبق سوى مراكش خارجة عن اطار الدولة العثمانية. واتسعت بذلك الدولة العثمانية اتساعا كبيرا للغاية. خاصة أنها كانت حينذاك تقاتل فى مناطق غاية فى التباعد على اسوار فيناء وفى مياه اخيج العربى والهند، وفى الجزائر.

ويلاحظ أن العثمانيين الذين بذلوا جهودا كبيرة بحرية فى شمال افريقية ضد الأسبان وفى المياه الجنوبية الإسلامية ضد البرتغاليين، وكانوا أكثر توفيقا فى شمال افريقية منهم فى المياه الجنوبية وذلك لعدة أسباب :

١- أن العمليات البحرية الحربية التى قامت بها الدولة العثمانية كانت مناسبة لحرب البحار التى تدرب عليها العثمانيون واتقنوها إلى حد أكبر من حرب المحيطات وما وراء البحار فى البحر الأحمر وفى المحيط الهندى.

٢- إن قرب الشمال الإفريقى من كل من تركيا ومصر يجعل الامدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة. بعكس الحال فى المحيط الهندى حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

٣- كانت للعثمانيين قواعد قوية فى شمال افريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة مستعدة للتعاون - إلى حد كبير - مع العثمانيين.

٤- لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة فى شمال افريقية كتلك التى صادفوها فى اليمن الزيدى المذهب.

٥- إن اسبانيا كانت مصرة على استمرار الحرب الصليبية فى أراضى شمال افريقية فى الوقت الذى كانت فيه المستعمرات الأمريكية أكثر إغراءا للأسبان من شمال افريقية، فكانت من عوامل عدم بذل الأسبان لأقصى طاقتهم فى السيطرة على شمال افريقية سيطرة كاملة. أما فى المياه الإسلامية الجنوبية، فقد كان البرتغاليون يعتمدون على قواعد حصينة بحرية تستطيع أن تصمد فى وجه الحملات البحرية العثمانية التى تأتى إلى تلك الجهات من وقت لآخر وليس باستمرار.

كذلك يلاحظ أن التوسع العثمانى لم يكن تاما فى المغرب العربى ، وظل الركن الغربى من المغرب العربى بعيدا عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر ونعنى بذلك إقليم مراكش. كذلك بالنسبة للمشرق العربى ظل الركن فى الطرف الجنوبى الشرقى منه بعيدا عن متناول أيدى العثمانيين.

الكفاح العثمانى ضد العدوان
البرتغالى على الديار الإسلامية

يمثل الوجود العسكرى البحرى الصليبى الاستعمارى البرتغالى عاملا جوهريا فى توجيه مقدرات المشرق العربى، إلى جانب ظهور ونمو الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين فى المشرق العربى الدولة الصفوية والدولة العثمانية.

ولا شك أن وصول الأسطول البرتغالى إلى قليقوط فى مايو ١٤٩٨ يمثل بداية عصر جديد فى المنطقة، وفى الشرق كله بصفة عامة.

ومما لا شك فيه أن وصول البرتغاليين إلى المياه الإسلامية الجنوبية هو المسئول الأول عن وقف التطور التقدمى لعرب المشرق العربى. حيث أن التفوق الذى أحرزه العرب فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى المحيط الهندى والبحار الجنوبية كان كفيلا بأن يمهد لنهضة تأخذ بيد العرب خاصة بعد أن ظهر بينهم ملاحون ممتازون من أمثال أحمد بن ماجد. فلقد كان من الممكن أن يقدم البرتغاليون خدماتهم للمسلمين والعرب ويفتحوا هم أبواب تعلم الفنون الجديدة عن طيب خاطر على نفس المستوى الذى قدم به أحمد بن ماجد خدماته لفاسكوداجاما فقاده هو وأسطوله فى أول رحلة بحرية برتغالية بين شرق افريقية وساحل ملبار.

ولكن كان هناك فارق شاسع بين التفكيرين وبين الرجلين.

وكان العرب يعملون بنشاط وافر في نقل المتاجر من موانىء الشرق إلى السويس ، وكان الباب مفتوحا لكل صاحب اسطول أن ينقل المتاجر عبر البحار والمحيطات حيث كانت حرية الملاحة الدولية من الأمور التى لم يفكر العرب فى

نقضها، شأنهم فى ذلك شأن القوى الأسيوية الأخرى. فلا غرو إن كانت سفن الصين تصل بكل حرية إلى عدن.

فلقد كان أحمد بن ماجد، والعرب والمسلمون بوجه عام، يرون فى البحار والمحيطات مجالات واسعة للغاية تستوعب كل من يريد العمل فى النقل البحرى. فكان المبدأ المطبق هو حرية الملاحة الدولية. فكانت سفن العرب تسير فى البحر والمحيط الهندى وتتوغل حتى ملقا وما بعدها كما أن سفن الصين كانت تتوغل غربا حتى تصل إلى سواحل بلاد العرب الجنوبية. وأدى هذا النشاط التجارى العربى الإسلامى الكبير إى نمو هرمز- عند مدخل الخليج العربى - وأصبحت بفضل تفوقها فى العمليات التجارية الكبرى، أكثر المراكز التجارية إزدهارا . ولقد امتد نفوذ هرمز من الاحساء والبحرين وعمان إلى عدن.

حتى لقد أصبحت ذات شهرة وثروة عظيمة حتى لقد نظم فيها الشعراء قصائدهم مثلما فعل الشاعر الانجليزى ملتون فى (الفردوس المفقود) وهناك من زار هرمز ١٥٠٣قبل مجىء البرتغاليين إليها بوقت قصير جدا، فوصف اتساع تجارتها البحرية. ولقد كانت هرمز فى القرن الخامس عشر درة الخليج العربى فعلا.

ولكن جاء البرتغاليون إلى المياه الجنوبية الإسلامية بفكر صليبى شديد الانفعال تميز به أهل شبه جزيرة ايبيرية. وكان هذا الفكر اصليبى هو الذى يحثهم على الوصول إلى الشرق الأقصى بطريق بحرى مباشر حتى يتجنبوا نقل التجارة الشرقية عبر مصر وحتى يوجهوا ضربة قوية للإسلام والمسلمين من هذا الباب الخلفى.

كما كانت الانعامات البابوية على ملوك البرتغال تؤجج تلك الروح الصليبية المتوقدة فى نفوس البرتغاليين. حتى لقد أصبح تدمير المقدسات الإسلامية فى الحجاز جزءا من أهداف النشاط البرتغالى فى المياه الشرقية الإسلامية.

ولقد اتبع البرتغاليون فعلا فى سيطرتهم على صفحات البحار والمحيطات سياسة صليبية لا إنسانية ضد العرب بالذات فلقد كان البوكرك إذا أمكنه العثور على عربى كان افلاته من يده من المحال وأنه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار» وأطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم ضد العرب فسمحوا لبحارتهم بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية. وأخذوا كل سفينة عربية إسلامية غصبا كما كان الأسطول البرتغالى يقوم بشن الحرب على المعاقل التجارية البحرية العربية، فإن استطاع السيطرة عليها واحتلالها فيها وإن لم يستطع ذلك ضرب الأهداف المدنية وأحرق الميناء بمنشآته والسفن والقوارب الراسية فيه. وهذا ما فعله البرتغالبون فى عدن وقمران وجزيرة وزيلع وقريسات ومسقط والبحرين وصحار.

ولقد أدرك البرتغاليون أن استمرار تحكمهم في التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر الشرق الأدنى ومصر إلي أوربا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى إلى أوروبا وهما طريق الخليج العربى الذى تسيطر عليه هرمز، طريق البحر الأحمر الذي تتحكم فيه عدن وسقطرة وباب المندب. وكانت عدن شديدة المقاومة البرتغاليين سنة ١٥١٣. وامتنعت عدن وذلك لأن دولا كبيرة نسبيا كانت تحمى ظهرها وهى دولة آل طاهر فى عدن واليمن حتى ١٥٣٨ كما كانت تحميها القوى البحرية والبرية التى ساقها المماليك ضد البرتغال فى البحر الأحمر واليمن هذا فضلا عن أن عدن كان قد تولاها حكام

عرفوا كيف يدرأوا الخطر البرتغالى بالسياسة إلى جانب القوة من أمثال مرجان الظافرى ١٥١٧/٩٢٣ هـ، وعلى بن سليمان الدوى فى ١٥٤٦م/٩٥٢ هـ.

أما هرمز فقد اضطرت إلى أن تواجه بنفسها واعتمادا على قواتها العدوان الصليبى البرتغالى. وكانت القوة غير متكافئة منذ البداية. فقد كان البوكرك - الأميرال البرتغالى المشهور - الذى وطد العزم على أن ينشىء امبراطورية شرقية برتغالية قد قرر أولا تقليم أظافر هرمز فبدأ بالسيطرة على سقطرة ١٥٠٦، ثم دمر الموانىء الساحلية التابعة لهرموز على الخليج العربى وخاصة مسقط وصحار وحولوا الضريبة السنوية التى كانت تدفعها لهورمز إلى خزينة البرتغاليين ثم وجه البوكرك اسطوله إلى هرمز. وهناك وجد البرتغاليون أنهم أمام مدينة تختلف عن تلك الموانىء التى أحرقها الأسطول البرتغالى من قبل. حيث أن ملك هرمز كان قد تلقى تحذيرات من البرتغاليين فى طريقهم إليه فاستعد بقواته البرية والبحرية للدفاع عن الجزيرة.

وكان ملكها حينذاك سيف الدين فى الثانية عشر من عمره تحت وصاية اتابكة « خوجه عطار» الذى كان يتصف بالجرأة واستدعى قوات من البلدان المجاورة من فرس وعرب حتى بلغ عدد المقاتلين ٣٠ ألف رجل، وفى الميناء تجمعت ٤٠٠ سفينة عليها ٢٥٠٠ مقاتل، بعضها كان مزودا بالمدفعية الصغيرة. ولكن استطاع الاسطول البرتغالى أن يكسب المعركة وأصبح ملك هرمز تابعا لملك البرتغال يدفع له ضريبة سنوية. وبنى البرتغاليون حصنا فى هرمز وأنشأوا وكالة تجارية، كما ارغموا الملك على أن يعفى التجار البرتغاليين من الضرائب، أما إذا اشترى البرتغاليون من هرمز وتوابعها فيدفعون ضريبة مماثلة لما هو مفروض على الوطنيين وأشترط البرتغاليون كذلك ضرورة حصول أية سفينة

محلية يملكها أحد المواطنين على تصريح من البرتغاليين بالملاحة. وبهذا تكون السيادة السياسية والتجارية البرتغالية على الخليج العربى قد بدأت تتوطد.

وبضم سقطرة، وبالسيطرة السياسية على هرموز وبفتح ملقة، وبتقوية القاعدة البحرية الكبيرة فى جوا يكون البرغاليون قد أسسوا لأنفسهم «نظاما» يتحكمون بواسطته فى الملاحة على صفحات بحار المنطقة. وكانت قيمة هرموز لهذا «النظام» هى الأعظم لموقعها الاستراتيجى الخطير ولماضيها الاقتصادى والسياسي الحافل.

لقد أدرك ملك هرموز أنه لابد من الاستعانة بدولة كبيرة تشد أزره ضد العدوان البرتغالى وتخلصه منه. وكان السلطان الغورى هو أمل المسلمين فى إزالة هذه الغمة المفاجئة. ولقد قام الغورى - وقد فوجىء بوصول البرتغاليين إلى المياه الجنوبية - باعداد اسطول كبير نسبيا أرسله فى ١٥٠٨ إلي المياه الجنوبية بقيادة حسين الكردى. وهناك عند ديو دارت أكثر من معركة بين الأسطولين البرتغالى والمملوكى دون أن يكسب أى منهما معركة حاسمة. ولكن انسحاب الأسطول المملوكى من المياه الهندية وعودته إلى البحر الأحمر ابقى للبرتغاليين السيادة فى تلك المياه وفى داخل الخليج العربى والبحر الأحمر. ولعل هذا هو السبب الذى جعل الحركة الوطنية فى هرموز تتطلع إلى الشاه أسماعيل الصفوى ولذلك اعترف ملك هرموز بالخضوع للشاه الأمر الذى جعل موقف البرتغاليين دقيقا (١٥١٤). حيث أن الشاه إسماعيل الصفوى كان هو حليفهم الطبيعى ضد العثمانيين وفعلا عقد مفاوضات مع السلطات البرتغالية فى جوا من أجل عقد معاهدة تحالف ضد العثمانيين. ومن ثم كان الوصول إلى تسوية مع الشاه بشأن مستقبل هرموز أمرا يسيرا.

ولكن الذى حدث فى داخل الجزيرة نفسها جعل من الضرورى على الأسطول البرتغالى ـ المتجه ضد عدن وسواحل البحر الأحمر ـ أن يعمل أولا على اخضاع الثورة الوطنية التى نجحت فى تسلم السلطة فى هرموز. وفعلا استطاع الأسطول البرتغالى أن يعيد سيطرته على الجزيرة. ولما جاء سفير الشاه دارت مفاوضات بين الطرفين الفارسى والبرتغالى انتهت بأن يظل ملك هرموز خاضعا لملك البرتغال دوم مانويل . ومات البوكرك بعد ذلك بقليل فى ١٥١٥/٢١/١٥.

لقد وجدت هرموز ومدن الساحل الغربى للخليج العربى نفسها تحت نير السيطرة البرتغالية دون أن يجدوا قوة كبيرة إسلامية قادرة على التعاون معهم ضد هذا العدوان الصليبى، وحيث فشل الأسطول المملوكى فى البقاء فى المحيط الهندى والمياه العربية الجنوبية مناورا للأسطول البرتغالى، وحيث أن الشاه الفارسى لم يتورع عن التخلى عن هرموز التى ألقت بنفسها تحت قدميه فى وقت الشدة، لم يعد أمام هرموز ومدن الساحل العربى لخليج العربى الا أن يعتمدوا على أنفسهم للقيام بثورة عامة مباغتة في آن واحد ضد البرتغاليين وتجعلهم مضطرين للعمل على عدة جبهات متباعدة فيمكن التخلص منهم وانتزاع الحرية من بين أنيابهم.

وفعلا وقعت الثورة الكبيرة فى هرموز ومسقط والبحرين وقريات وصحار، وهاجم الوطنيون الحاميات البرتغالية برا وبحرا، وفرض ملك هرموز الحصار بقوة على الحصن البرتغالى فى الجزيرة. ولكنه ظل صامدا حتى جاءته الامدادات. وفقد الملك أمله فى النصر فأحرق المدينة وغادرها إلى جزيرة قشم ليصرعه هناك أحد أتباعه (١٥٢٢).

وتولى العرش فى هرموز من بعد ذلك ابنه محمود شاه آخر ملوكها، حيث عقد معه البرتغاليون معاهدة جديدة زادت من قوة القبضة البرتغالية على الجزيرة ثم لم يمر سوى وقت قصير حتى وضع البرتغاليون نهاية للحكم الوطنى، عندما اسندوا حكم الجزيرة إلى الدوم فاسكودا جاما فى ١٥٢٤. ولتعيش هرموز بعد ذلك حوالى القرن تحت الحكم البرتغالى حتى يستولى عليها الشاه عباس الثانى فى ١٦٢٢.

ولا شك أن هرموز بذلت ما فى طاقتها فى كفاحها ضد العدوان البرتغالى. ولكن ردع مثل هذا الخطر كان يتطلب تدخل قوى بحرية كبيرة منذ البداية. ومع أن الدولة الصفوية الناشئة الفتية كانت هى أقرب القوى الإسلامية من معاقل البرتغاليين فى الهند وفى الخليج العربى، إلا أن الشاه إسماعيل الصفوى ركز جهوده في الأناضول والعراق دون أن يقدر قيمة الكفاح الوطنى في الخيج العربى ضد البرتغاليين، بل كان يفضل التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين على حساب مصير الخليج العربى.

كانت سياسة الشاه إسماعيل الصفوى هذه على هوى البرتغاليين حيث أنهم كانوا يخشون من أن تواجههم فى هذه المناطق الجنوبية جبهة إسلامية متحدة تعمل على تقويض أحلامهم وهى لا تزال فى بداياتها الأولى. ولذلك كانت رغبة الشاه إسماعيل فى التحالف معهم تلقى ترحيبا كبيرا لدى القائد البرتغالى الكبير البوكرك الذى شغل منصب نائب الملك فى الهند منذ ١٥٠٩.

فكما استعان البوكرك بالهندوس ضد المسلمين في الهند، عمل علي التعاون مع الشاه الصفوى فى شن هجوم مشترك على بلاد العرب وفى اقتسام المشرق العربى ومصر بين فارس والبرتغال.

وكان الشاه إسماعيل أكثر تساهلا مع البرتغاليين بعد هزيمته أمام السطان سليم العثمانى فى موقعة جالديران ١٥١٤. حيث عقد معهم محالفة كان يرمى من ورائها إلى السيطرة على الاحساء. ولكن البرتغاليين كانوا حتى مع حلفائهم من المسلمين صليبيين. فلم يتورعوا عن أن يستولوا على البحرين لأنفسهم ١٥١٥. وهكذا لم يقم الشاه بما كان يجب أن يقوم به لمواجهة العدوان البرتغالى بل أن سياسته، أدت إلى تقوية قبضة البرتغاليين علي الخليج العربى.

وكان الأمل منذ البداية معقودا على السلطان الغورى في إزالة الخطر البرتغالى من المنطقة. ولقد قام السلطان الغورى بجهد كبير ضد البرتغاليين. فلقد أعد أسطولا على جناح السرعة فى السويس مستعينا بالخبرات العثمانية والبندقية وأرسله تحت قيادة حسن الكردى إلى ديو لقتال البرتغاليين ولكنها لم تؤد إلى خض شوكة الأسطول البرتغالى فى المنطقة.

ويمثل هذا الأسطول الذى بعثه الغورى بقيادة حسين الكردى ذروة التعاون بين القوى الإسلامية التى كان الغورى يدعو إلى تجميعها تحت لواء الكفاح ضد العدوان البرتغالى. فلقد كان الغورى يود لو قامت جبهة إسلامية من دول خط المواجهة مع البرتغاليين، ولكن الظروف والإمكانيات لم تسعفه. فقد كانت مساعدات العثمانيين - رغم أهميتها - محدودة وكانت القوى الإسلامية الحاكمة في مكة وصنعاء وعدن تدعو للحملة بالنصر ولا تقدم لها إلا امدادات محدودة غير عسكرية بل كانت تضع مصالحها الخاصة قبل المصلحة الإسلامية العامة.

ولم نسمع عن وقوع تعاون واضح بين أسطول الحملة المملوكية وهرموز أو مسقط أو غيرها من القوى المستعدة للثورة ضد الطغيان البرتغالى ولعل هذا

يرجع إلى أن الحملة المملوكية ذهبت مباشرة إلى ديو ولم تفكر فى المرور على مقربة من الخليج العربى.

ولعل ذلك كان لأن المماليك أرادوا أن يجتثوا الخطر البرتغالى من أساسه، وأن ينقضوا عليه فى أخطر معاقله فى ديو ، وبعد أن فشلت المحاولة المملوكية فى خض شوكة الأسطول البرتغالى فى المياه الهندية والإسلامية قويت شوكة الأسطول البرتغالى في المياه الجنوبية، وأصبحت جهود قانصوه الغورى ضد البرتغاليين تتصف بالطابع الدفاعى أكثر من اتصافها بالطابع الهجومى . وشغل قواته بتحصين جدة، واخضاع ثورة الجازانى فى الحجاز وباسقاط الأسرة الطاهرة فى اليمن.

لقد كانت ظروف المفاجأة البرتغالية قاسية على الغورى. ونطاق التعاون الإسلامى العام ضد هذا الخطر البرتغالى الكبير كان يبدو واسعا وامكانياته كانت تبدو قوية ومؤدية إلى نصر كبير رغم نكسة الأسطول المملوكى في ديو (١٥٠٩). ورغم نيات إسماعيل الصفوى العدائية فقد استنجد حاكم كجرات المسلم (٩١٦ هـ - ١٥١٠م) بالغورى ضد البرتغاليين داعيا إلي توحيد قوى المسلمين ضد البرتغاليين، كما لقي طلب سلطان كجرات المساعدة ضدهم ترحيبا من الغورى ولكن رقعة الصراع كانت أوسع من أفق الغورى. وكانت الإمكانيات المتوفرة في العالم الإسلامى موجودة ولكن كان من العسير أن تستخدم دفعة واحدة ضد الخطر البرتغالى. وكان أسوء مثال على هذا سقوط هرمز بعد كفاح مرير أمام البرتغاليين دون أن تحرك القوى الإسلامية ساكنا أو على الأقل دون أن تتمكن هذه القوى من مد يد المساعدة إليها.

هذا بينما وسع البرتغاليون من مجالات عملهم فى البصرة نفسها حتى أصبحت ضمن مشروعات البرتغاليين وهدفا لعملياتهم العسكرية. وذلك بعد أن أصبحت القواعد البرتغالية فى مسقط وهرمز قوية. وكانت المنازعات بين القوى المحلية الحاكمة في جنوب العراق تعطى فرصا واسعة للأسطول البرتغالى للعمل فى مياه البصرة سواء برضاء الحكام أو رغما عنهم. فقد شب نزاع بين راشد بن مغامس - شيخ عشائر المنتفق وصاحب البصرة - وأمير الحويزة ، وناشد راشد بن مغامس البرتغاليين اعانته ضد خصمه . وفعلا بعث دى كونها قطعا بحرية برتغالية إلى البصرة ولكن سرعان ما شب النزاع بين البرتغاليين وراشد بن مغامس وانفضت القطع البحرية البرتغالية على البصرة، ومن الأسباب الظاهرة لهذا النزاع امتناع راشد بن مغامس عن تسليم سفن تركية كانت راسية هناك، وأغلب الظن أن السبب الرئيسى فى تحول التفاهم إلي اشتباك على هذا النحو يرجع إلى أن التحالف كان قائما على أساس المصلحة الذاتية فحسب بسبب اختلاف الأهداف والمشارب اختلافا جوهريا بين شيخ عربى عشائرى مسلم وقائد أسطول برتغالى صليبى. فكل منهما يريد معونة لا أكثر ولا أقل دون أى كسب مادى أو سياسى من وراء ذلك. والبرتغاليون يبحثون وراء كسب حقيقى جديد فى المنطقة.

ولم تتحرك القوى الإسلامية إلي الهجوم مرة أخرى إلا بعد أن سيطر السلطان سليم الأول العثمانى على الشام ومصر والحجاز فى ١٥١٦-١٥١٧. وأصبح يتحمل مسئولية الكفاح ضد البرتغاليين سواء من أجل انقاذ الأراضى المقدسة الحجارية من تهذيداتهم المتكررة لها أو من حيث إعادة التجارة الشرقية إلى طريق مصر. فبدأت صفحة جديدة من الصراع فى المياه العربية الجنوبية لم

يشترك فيه العرب الا هامشيا أو بطريق غير مباشر، وإنما كان التمويل والاعداد والقيادة للأساطيل الإسلامية ضد البرتغاليين فى المياه العربية والهندية فى يد العثمانيين. وبدأت هذه الهجمات البحرية العثمانية المضادة فى أعقاب التوسع العثماني للمشرق العربى مباشرة.

ومما لا شك فيه أن سليم الأول كان مدركا تمام الإدراك للخطر البرتغالى من الجنوب. وكانت خريطة العدوان الأوربى على البلاد الإسلامية سواء المطل منها على المحيط الهندى أم المطل على البحر المتوسط واضحة أمامه. فقد كانت فرسان القديس حنا يهاجمون بيروت وطرابلس ودمياط فى الوقت الذى كان فيه الأسطول البرتغالى يروع السواحل الإسلامية الجنوبية فى ١٥١٩/٩٢٦ هـ.

والملاحظ أن سليم الأول لم يتخذ إجراءات كبيرة ضد البرتغاليين ولعل هذا يرجع إلى أنه كان قد خرج من حربين كبيرتين ضد فارس (١٥١٤) وضد مصر (١٥١٦/١٥١٧) وعاد إلي مقر حكومته ليموت بعد سنوات قليلة (١٥٢٠) وهو يستعد لقتال فرسان القديس يوحنا فى رودس. كذلك كانت الفترة الأولى من حكم سليمان القانونى (١٥٢٠ـ ١٥٦٦) مليئة بالأحداث الكبرى فى أوربا خلال صراعه ضد الدولة الرومانية المقدسة فى البلقان، كما أن مصر تعرضت لثورات قام بها بعض زعماء المماليك وعلى رأسهم اينال السيفى وجانم السيفى (١٥٢٢م/٩٢٨ هـ) ثم ثورة أحمد باشا الخائن (١٥٢٣/١٥٢٤).

كما شغل العثمانيين بعد ذلك بتوطيد حكمهم فى مصر (١٥٢٤ـ ١٥٣٥) وبفتح العراق وتخليصه من الفرس (١٥٣٤) .ولعل هذا كان سببا فى ألا يتخذ السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) إجراءات كبيرة ضد الوجود

العدوانى البرتغالى في المياه الإسامية الجنوبية حتى تولية سليمان الخادم للمرة الثانية على مصر (١٥٣٦ ـ ١٥٣٨).

ومع أن العراق ـ الذى أصبح ضمن الدولة العثمانية منذ ١٥٣٤ـ كان أقرب إلى قواعد البرتغاليين فى المحيط الهندى. إلا أن الأوامر صدرت إلى سليمان باشا الخادم ـ وإلى مصر ـ بأن يعد حملة كبيرة بحرية ضد البرتغاليين وأن يتخذ من السويس قاعدة لانطلاق حملته. لأن السويس فعلا كانت هى الميناء الوحيد المناسب لمواجهة تلك المسئولية الكبيرة خاصة وأن البصرة حتى ١٥٤٦ لم تكن قد وقعت تحت الحكم المباشر العثمانى.

وحتى بعد أن استولى العثمانيون على البصرة فى ١٥٤٦م ظلت مصر والسويس ـ فى العهد العثمانى الجديد ـ هى القاعدة العسكرية التى تخرج منها الحملات البحرية الموجهة ضد العدوان البرتغالى.

أصدر سليمان القانونى أوامره إليه سنة ١٥٣٧ «للجهاد» على رأس حملة كبيرة يذهب بها إلى الهند « لتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء» وأن يعمل على حماية مكة المكرمة والمدينة المنورة من العدوان الصليبى البرتغالى وأن يتوج جهوده بإزالة راتبهم من تلك البحار.

وكان هذا التوقيت مناسبا فى الواقع حيث كان السلطان سليمان القانونى قد خرج منذ سنوات قليلة جدا منتصرا فى حربه ضد الفرس مستوليا على العراق (١٥٣٤). وهذا التوقيت يؤكد لنا أن العمليات العسكرية العثمانية ضد الوجود العدوانى البرتغالى فى المياه الجنوبية كان مرتبطا بالتوسع العثمانى فى المشرق العربى.

وأعد سليمان الخادم حملته الكبيرة لا ليكسر شوكة البرتغاليين فقط بل للسيطرة أيضا على مفاتيح البحار الإسلامية فى الجنوب، وبوجه خاص ميناء عدن الذى أصبح على أهمية كبرى استراتيجية خلال الصراع البرتغالى المملوكى العثمانى على المياه الجنوبية. فاستولى على عدن غدرا.

وحيث أن سليمان الخادم كان قد عزم على الرحيل لقتال البرتغاليين، وكان يريد الاطمئنان إلى أن أمور اليمن ستظل ودية مع العثمانيين كتب إلى الإمام الزيدى (شرف الدين) مؤكدا له أنه يريد التعاون معه وأنه خلص الإسلام والمسلمين من شر عامر بن داود الذى كان « يريد بيع عدن للافرنج».

سواء أكانت ظنون سليمان الخادم صادقة أم أن عامر بن داود قد خان القضية الإسلامية، فإن الاستيلاء على عدن بالخديعة والقاء القبض غيلة على عامر بن داود ثم شنقه أساء إلى سمعة سليمان باشا الخادم حيث أصبح فى نظر القوى المسطلة على البحر العربى والمحيط غادرا لا يؤتمن على عهد. وقد سبقته أنباء مؤامراته هذه إلى الهند فى وقت كانت فيه القوات البحرية الهندية بقيادة الاميرال فاليقوط مشتبكة مع الأسطول البرتغالى، واستطاع الاميرال البرتغالى مارتن دى سوزا أن يشتت الأسطول الهندى قبل وصول الأسطول العثمانى.

ولكن إلى جانب هذا كانت القوى البحرية الهندية المعادية للبرتغاليين، قد أصبحت عازفة عن التعاون مع الأسطول العثمانى خوفا من غدر سليمان الخادم بها. ولهذا لم تكن حملته مثمرة فى المياه الهندية، وعاد إلى الخليج العربى ليقوم فيه بعدة عميات عسكرية كبيرة. إذ استطاع أن يحاصر هرمز وأن يستولى على مسقط واقطيف، وعاد دون أن يعمل العثمانيون على الابقاء على

أسطول دائم فى تلك المياه لمواجهة الأسطول البرتغالى الأمر الذى أبقى التفوق المطلق للبرتغاليين بعد عودة الحملات العثمانية إلى قواعدها.

ومع هذا فقد أدي وصول الأسطول العثمانى إلى الخليج العربى إلى رفع معنويات المقاومة هناك لدى أهل المنطقة، وخاصة فى القطيف فى أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة. فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين فى (١٥٥٠) وسلموا المدينة للأتراك العثمانيين. فكان أن رد البرتغاليون على ذلك بأن دمروا القطيف بمدفعية أسطولهم.

لقد أدت كل تلك العمليات البحرية البرتغالية الناجحة منها أو الفاشلة إلي تعميق اتجاه السلطات العثمانية في الاستانة نحو ارسال حملة كبيرة ضد وجود العدوان البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية، خاصة وأن تدمير الأسطول البرتغالى للقطيف كان يعنى ضياع هيبة العثمانيين فى المنطقة ولا يمكن استردادها الا بارسال حملة كبيرة لمنازلة البرتغاليين والتفوق عليهم. وأسند السلطان قيادة الحملة الكبيرة التى كانت تعد فى السويس إلى بير بك وكان تحت امرته ستة عشر ألفا من المقاتلين على ظهر أسطول كبير من الفلاحين، ابحر من السويس إلى الخليج العربى.

وكان نورونها - القائد البرتغالى - في هرمز، فبعث بقطع من الأسطول بحثا عن اسطول بير بك فاصطدم به بير بك وكاد أن يقع فى أسره، ولكن هاجم بير بك هرمز وكاد أن يستولى عليها تماما، وهاجم بير بك مسقط ونهب المدينة واستسلم قائد القلعة البرتغالية جلودى ليزيا بعد أن تعرضت لقصف من الأسطول العثمانى استمر ثمانية أيام، ونقل بير بك مدافع القلعة إلى سفنه. ثم عاد إلى هرمز وحاصرها لمدة شهر تكبد خلاله خسائر جعلته ينهب ما استطاعه

وذهب إلى جزيرة قشم واستولى هناك على غنائم كبيرة ثم عاد ولكن مصادمات بير بك مع الأسطول البرتغالى كان يؤكد أن كفة البرتغاليين كانت هى الراجحة رغم الازعاج الشديد الذى كان قد سببته عمليات بير بك ضدهم،

وأصبح التفوق البرتغالى واضحا تماما فى أعقاب انتهاء بير بك من جولاته فى الخليج حيث ظل الأسطول البرتغالى هو المنفرد فى صفحات المياه.

كانت النتيجة السلبية التى انتهت إليها الحملة البحرية بقيادة بير بك تفرض على العثمانيين أن يحاولوا من جديد خض شوكة البرتغاليين فى المياه الجنوبية وأعدوا حملة بحرية جديدة بقيادة مراد بك، وكانت له خبرة سابقة بحروب البرتغاليين فى الخليج العربى.

أبحر مراد بك باسطول قوامه ١٥ سفينة حربية، واصطدم فى معركة عنيفة مع الأسطول البرتغالى بقيادة ديجو على مقربة من الساحل الفارسى، ولكن لم تسفر المعركة عن انتصار حاسم لأى منهما.

وكرر العثمانيون محاولاتهم لخض شوكة البرتغاليين فأرسلوا حملة رابعة بقيادة على شلبى فأحرز عليه البرتغاليون انتصارا حاسما شدد سيطرتهم علي المياه الإسلامية الجنوبية وخاصة فى الخليج العربى.

والملاحظ أن نشاط العثمانيين أصبح بريا بعد ذلك فقد هاجموا البحرين ولكن انتصر عليهم البرتغاليون، كما لجا العثمانيون إلي الهجمات الخاطفة مثل هجمات على بك على مسقط سنة ١٥٨١ ولكن لم يلبث أن غادرها لتعود تحت قبضةالبرتغاليين.

عند تحليل طبيعة الحملات والعمليات العثمانية ضد البرتغاليين نجد أنها بدأت بأساطيل قوية كبيرة على يد سليمان الخادم وبير بك ، وكبدت البرتغاليين الكثير من الخسائر، وأثارت القوى الوطنية المحلية فى الخليج العربى ضد الوجود العدوانى البرتغالى فى المنطقة.

ولكن كانت الحملات العثمانية البحرية بعد بيربك ضعيفة غير مؤثرة بل وأضعف من سابقاتها حتى كف العثمانيون عن ارسال حملات بحرية كبيرة ولجأوا إلى الهجمات الخاطفة البحرية غير المستديمة، وإلى الحملات البرية غير المجدية، بالتالى كان نمو القوة البرتغالية فى المياه الجنوبية فى تصاعد مستمر خلال الصراع ضد المحاولات العثمانية لكسر شوكتهم هناك.

والواقع أن تدهور قوة الردع العثمانى للجود العدوانى البرتغالى فى المياه الجنوبية كان مرتبطا بالضعف الذى أصاب القوة البحرية العثمانية فى أعقاب هزيمتها أمام الحلف الصليبى فى ليبانتو ١٥٧١. كما أن هذا الضعف فى المياه الجنوبية الإسلامية يرجع فى الواقع إلى أن قوى اليمن والخليج العربى والهند لم تكن على استعداد لتعاون كامل منسق مع الحملات العثمانية، فضلا عن أن معظم تلك القوى وضعت مصالحها الخاصة فوق المصلحة العامة.

ومن ناحية أخرى، كان العثمانيون يخوضون حربا محيطية غير تلك الحروب البحرية التى تعودت عليها أساطيلهم فى البحر المتوسط أو فى البحر الأسود. ثم أنهم دخلوا ميدان هذه الحرب المحيطية متأخرين بعد أن وطد البرتغاليون أقدامهم فى بعض المعاقل المنيعة في الخليج العربى مثل هرمز ومسقط والبحرين، وفى ساحل ملبار الهندى فى جوا.

ومع أن قطع الأسطول البرتغالى كانت تتوافد على المحيط الهندى عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل وأن العثمانيين كانوا يبنون أسطول كل حملة فى السويس الأقرب إلى ذلك المحيط، فان طبيعة بناء الأسطول البرتغالى كانت هى الأنسب لمعارك فيما وراء البحار كما كانت قدرات الأسطول البرتغالى على البقاء بصفة مستمرة فيما وراء البحار كانت لا تبارى من جانب الأسطول العثمانى.

ولا شك أن تلك القدرات البحرية البرتغالية كانت توحى بأن السيطرة والاحتكار البرتغالى على صفحات المياه الجنوبية وعلى طول طريق رأس الرجاء الصالح ستكون أبدية أو على الأقل ستطول لعدة قرون. ولكن الذي حدث هو أنه فى الوقت الذى بلغت فيه السيطرة البرتغالية ذروتها فى الثمانينات من القرن السادس عشر كانت البرتغال قد فقدت فعلا كيانها المستقل وأصبحت تحت حكم فيليب الثانى ملك اسبانيا، الأمر الذى جعل مصالح البرتغال فيما وراء البحار فى المرتبة الثانية بالنسبة للمصالح الاسبانية. فقد أهملت المصالح البرتغالية وتدهورت، ولا شك أن هزيمة الأسطول الاسبانى (الارمادا) فى ١٥٨٨ أمام الأسطول الانجليزى كان عاملا حاسما فى تدهور القوتين الأسبانية والبرتغالية معا، وفتح طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى أمام القوى البحرية الأوروبية الناشئة وعلى رأسها هولندة وانجلترا وفرنسا وعلى يد الهولنديين والانجليز وضع حد للتفوق البرتغالى فى المياه الإسلامية الجنوبية، وتم ذلك فى أوائل القرن السابع عشر وخاصة فى أعقاب التعاون الفارسى الانجليزى ضد البرتغاليين ذلك التحالف الذى أدى إلى طرد البرتغاليين نهائيا من هرمز فى ١٦٢٢م.

يعتبر عهد السلطان سليم الأول وخليفته السلطان سليمان القانونى الفترة التى بلغت خلالها الدولة العثمانية ذروة قوتها. وكان طبيعيا أن تتطلع الدول الكبرى الأوروبية إلى مقاومة هذه الدولة أو عقد أواصر الصداقة معها، فكانت الامبراطورية الرومانية المقدسة عدوة الدولة العثمانية اللدود، بينما سعت فرنسا علي يد ملكها فرانسوا الأول إلى التحالف مع سليمان القانونى ضد عدوهما المشترك شارل الخامس (كنت). وكان هذا هو محور السياسة العثمانية نحو أوربا. وكانت جهوده فى أنحاء اوربا مركزة أيضا نحو كل من رودس والمجر.

فبالنسبة لرودس كانت جزيرة مشاكسة إذ كانت معلق فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، فضلا عن قيامهم بقطع خطوط المواصلات البحرية العثمانية، وساعده على القيام بحملته الكبيرة على رودس :

١- انشغال أوربا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت) - امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا.

٢- عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية.

٣- نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانونى حربا كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف (١٥٢٢)، وفتحها وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شار كنت) حق حكم هذه الجزيرة.

أما فى اتجاه (المجر) فقد كان ملكها (فيلاديسلاف الثانى جاجيلو) قد عزم على فك أى تعهدات كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدولة

العثمانية، وذهب إلي حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه. وكان هذا المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. وهذا فى (١٥٢١) رد سليمان بغزوة كبيرة ضد المجر،

ولكن استمرت المعارك حتى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير، في موقعة موهاكس (١٥٢٦)، ودخل سليمان القانونى (بودا) في ١١ سبتمبر - أيلول ١٥٢٦ واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٥٢٩). إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا إلى التصالح معه للتفرغ لحرب الأتراك ولانقاذ عاصمة الهابسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانونى فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوربية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان فى ١٥٦٩.

على أن أبرز حدث تاريخى فى السياسة الخارجية التركية على عهد سليمان القانونى هو علاقاته مع فرانسوا، تلك العلاقة التى تحولت إلى محالفة.

فقد كان فرانسوا طامعا في العرش الامبراطورى . فلما تولاه شارل الأول - ملك اسبانيا- وأعلن نفسه شارل الخامس (كنت) امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة شعرت فرنسا أنها أصبحت بين المطرقة والسندان إذ أصبح فى استطاعة (شارل كنت) أن يغزو فرنسا عبر الحدود الالمانية وعبر البرانس في آن واحد. وشن فرانسوا غزوا على ايطاليا، ولكن انتهى هذا الغزو بكارثة فى بافيا (١٥٢٩) وقع على أثرها فرانسوا الأول أسيرا فى يد الامبراطور الذى أرغم فرانسوا على توقيع معاهدة مدريد المذلة.

ودارت المكاتبات بين الملكة الوصية في باريس والسلطان العثمانى سليمان القانونى خلال الفترة التى كان فيها فرانسوا أسيرا لدى شارل الخامس (كنت). وزادت أواصر هذه العلاقة بعد عودة فرانسوا إلي بلاده. ونمت هذه العلاقات على يد خير الدين باربروسا، المجاهد العثمانى فى شمال افريقية وعلى صفحات البحر المتوسط، وبلغت هذه العلاقات الفرنسية التركية ذروتها بعقد معاهدة ١٥٣٥.

ونظرا لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها :

١- حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

٢- حق التجارة والمتاجرة فى كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

٣- تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة فى الدولة العثمانية.

٤- الضرائب التى يدفعها الفرنسيون فى الدولة العثمانية هى نفسها التى يدفعها الرعايا الأتراك.

٥- حق التمثيل القنصلى، مع حصانة قنصلية للقنصل ولأقاربه وللعاملين معه.

٦- من حق القنصل الفرنسى النظر فى القضايا المدنية والجنائية التى يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم فى هذه القضايا طبقا للقانون الفرنسى، ويس من حق أية سلطة محلية تركية أن تتدخل في مثل هذه القضايا. وإنما للقنصل الحق فى الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

٧- في القضايا المختلطة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني. لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم الا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

٨- أفادت رعية الملك الفرنسي في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند اصدار الحكم.

٩- حرية العبادة لرعايا الملك.

١٠- منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني. وشن الأسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ ممكة نابولى التي كانت تابعة لـ (شارل كنت)، وفي ١٥٤٣ تجمعت وحدات الأسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت نيس التابعة لدوق سافوى حليف شارل الخامس (كنت). بل قويت العلاقات بين سليمان القانوني وهنرى الثاني خليفة فرنسوا الذى توفى ١٥٤٧. وذلك نظرا لأن هنرى الثاني كان يطمع في ايطاليا ـ مثل سلفه فرانسوا ـ ولأن الامبراطورية الرومانية المقدسة كانت قد بلغت من القوة الدرجة التي أصبحت تشكل خطرا دائما على فرنسا، وفعلا تعاون سليمان القانوني مع هنرى الثاني في ١٥٥٣.

يعتبر عهد السلطان سليمان القانوني ذروة الدولة العثمانية من حيث الاتساع أو القوة أو التنظيم، وكانت قدراتها العسكرية حينذاك على أعلي مستوى، وخاصة سلاح المدفعية، كما كان لدي العثمانيين أسطول بحرى له خطورته، ولكن حقيقة قوته كامنة في جرأة وصلابة قواده ورجاله وليس في قدراته الفنية، وأخذت من بعد ذلك في التدهور.

تدهور الدولة العثمانية

وتراجعها فى البلقان حتى ١٨٣٠

وخلال الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان القانونى وتولية سليم الثالث العرش فى ١٧٨٧ كان البلاط العثمانى والدوائر الحاكمة فى الدولة قد أصيبت بفساد شديد. فخلال هذه الفترة حكم حوالى سبعة عشر سلطانا، كان منهم ثلاثة فقط على نوع من الكفاءة هم :

١- محمد الثالث (١٥٩١-١٦٠٣).

٢- مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠).

٣- مصطفى الثالث (١٧٥٦-١٧٧٣).

وكان الآخرون لا يمارسون الحكم الا بواسطة وزراء كانوا أحيانا مثالا للفساد، وأحيانا أخرى مشفقين علي الدولة من الانهيار، وأحيانا ثالثة كانوا يقومون باصلاحات تعطى للدولة حيوية تدير بها أمورها لعدة سنوات.

كان من أشد المهازل الدموية للبلاط العثمانى ، مصارع أبناء السلاطين بيد الأخ الذى يتولى العرش دونهم ومن ذلك أن محمد الثالث خنق اخوته التسعة عشرة.

وكثيرا ما كان يصل إلي العرش صبية صغار أو سلاطين قصار العمر. فقد تولى كل من أحمد الأول وعثمان الثانى العرش فى سن الرابعة عشرة ومحمد الرابع كان في السادسة من عمره عندما تولى العرش. ومن السلاطين من كان معتوها من أمثال مصطفى الأول. ولأول مرة تثور قطاعات من الجيش وتقتل السلطان عثمان الثانى، وكم من سلطان عزل عن منصبه بمهانة وتحقير.

وكان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجرد سجناء فى قبو مظلم، وكانت تنعكس هذه الفترة المظلمة على سلوكهم خلال توليهم الحكم، فمنهم من كان شديد الاسراف فى الأبهة والقتل، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب والسطو على مالية الدولة وأخذ الرشوة وبيع المناصب. وكان لنساء البلاط تأثير قوى على السلاطين. وخاصة السلطانة الوالدة التى كانت حريصة على الاحتفاظ بالملك لأولادها. ولقد جاء وقت في القرن السابع عشر كانت فيه الدولة تحت حكم سيدات البلاط.

وجاء هذا القصور فى الدولة العثمانية بسبب عدم قيام اتصال وثيق بين هذه الدولة والحياة الغربية المتطورة، من جهة، كما جاء من جهة أخرى نتيجة لشعور كامن فى أنفسهم باحتقار كل ما هو غير إسلامى. وهذا الاحتقار جاء بسبب الآراء الدينية التقليدية الشائعة حينذاك من حيث أن كل ما هو أوربى مرتبط ارتباطا وثيقا بالكفر والخروج عن جادة الإسلام.

وأصيبت الهيئات الحاكمة أيضا بالفساد، إذ تولى المناصب العليا من لا تجربة له، وفسدت الذمة فى الإدارة، وأهمل السلاطين عقد الديوان الذى اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية، بل أن القضاء أيضا أصبح يسير بالرشوة لا بالعدل.

كان تدهور نظام الانكشارية بسبب تغير الظروف التى أصبح رجال هذا النظام يعملون فيها. ويمكن أن نوجز العوامل والظروف التى أدت إلي ضعف وتدهور هذا النظام حتى فقد فاعليته فيما يلى :

١- أن القاء نظرة سريعة على الحروب الطويلة المتتالية التى خاضها

العثمانيون فى البلقان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتى خاضوها ضد الدولة الفارسية خلال القرنين سالفى الذكر يجد أن الخسائر فى الأرواح كانت مرتفعة للغاية.

٣- كان ارتفاع الخسائر في الأرواح قد صاحبه فقد أجزاء متتالية من الأراضى البلقانية التى كانت تنفذ فيها ضريبة الديو شرمه، وأخذ السلاطين يقللون من استجلاب أبناء المسيحيين لادخاهم فى الجيش، ولهذا كان العثمانيون يضعفون بعملهم هذا الأساس الذي قام عليه النظام الانكشارى.

٤- حيث أن الانشكارية كانوا أقوى قوة ضاربة فى الجيش العثمانى شعر هؤلاء بمكانتهم وقدرتهم حتى أصبحوا يطلبون من كل سلطان جديد مبلغا من المال، وإن لم يدفع السلطان لهم أثاروا الفتن عليه.

٥- لم يعد الهدف العام الإسلامى واضحا أمام القوات الانكشارية التى تقيم مدة طويلة فى قلعة أو في مدينة نائية، وفقد الانكشاريون معنوياتهم بسبب ضعف نظم التدريب وعتاد الحرب، ولم تعد للسلطان تلك القداسة التى شب عليها الانكشاريون من قبل. وأصبح هؤلاء الانكشارية أشد عناصر الفساد فى المدن التى يقيمون فيها، حتى لقد هم بعض الولاة بالقضاء عليهم والتخلص منهم. إذ أصبحوا عناصر فوضى وابتزاز للأموال والخيانة.

٦- كان من المعتاد أن يرابط الانكشارية فى قلاعهم وثكناتهم مدة معينة، ثم يستبدلون بقوة أخرى، ولكن الذى حدث - خاصة فى القرن الثامن عشر - هو استقرار الحاميات فى معاقلها. وبسبب ضعف الدولة العثمانية، ولقيام قوات الانكشارية بمسئوليات جمع الضرائب، اندمجت هذه القوات تدرجيا فى حياة

المدينة، وغادر رجالها ثكناتها وعاشوا حياة عادية، وأصبح لهم أسراتهم. وأصبحوا عنصر اضطرابات مستمر فى الولايات وليس عنصر دفاع عنها .

٧ـ أصبح نظام الانكشارية نظاما للارتزاق. فقد كان كل ضابط أو جندى معه تذكرة يحصل بمقتضاها على (علوفة) نقدية أو عينية. ولما ضعفت الدولة العثمانية وقصرت حكومة الباب العالى فى دفع مرتبات الجند تولى هؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة، أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها، والشارى يصبح صاحب اتذكرة، وبالتالى يصبح انكشاريا، حتى لقد وجد في قوائم الانكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات.

وكما فسد نظام الانكشارية فسد نظام السباهية (الفرسان) العثمانى. وكان هذا النظام يقوم على أساس الاقتطاعات الزراعية للسباهية، ولكن هذه القطاعات أصبحت تعطى حتى للمحظيات سيدات القصر وموظفي الدولة، دون أن يقدموا عنها فرسانا للدولة.

وفى مجال الأرض والضرائب لجأت الدولة إلي نظام عقيم عرف باسم (الالتزام)، أى أن يلزم رأسمالى من رجال الدولة دفع الضريبة السنوية عن مساحة من الأرض يتولى هو من بعد ذلك جمع الأموال من أهلها، وبالتالى يعتصر الملتزم الفلاح وأرضه، بل أصبحت الولاية بأسرها تعطى التزاما للوالى فى مقابل مبلغ يدفعه للسلطان. وظهر الدربيكات أى أصحاب الوديان الواسعة التى يعاملونها وكأنها ملك خاص لأسرهم.

وحيث أن الدولة العثمانية كانت قد تركت الخدمات الاقتصادية والاجتماعية لأهل البلاد أنفسهم، وأن هؤلاء لم يقوموا بهذه الخدمات، فقد

تدهور التعليم والمؤسسات الدينية، وطغى العربان على الأراضى الزراعية، وهوى تعداد السكان فى المدن بسبب الأوبئة.

ثم أن الامبراطورية العثمانية حافظت على تكتلاتها الداخلية العنصرية بينما كانت أوربا تسير بسرعة نحو الدولة القومية المركزية المتجانسة. ولم يعد هذا التركيب ولا أسلوب الحكم العثمانى ولا أسلوب الحياة اليومية قادرا على الوقوف أمام الخصوم الأوربيين.

والذى ساعد على نمو العصبيات الحاكمة في طول البلاد وعرضها سياسة الباب العالى (الملية) والعصبية التى كانت تضع كل ملة أو عصبية تحت حكم زعيم لها يكون هو المسئول عنها أمام السلطات العثمانية ، الأمر الذى حفظ للقوميات قوميتها وطابعها، ولم يتبع الأتراك سياسة (التتريك) أو هضم القوميات ولهذا ظلت الأسس القومية سليمة لدى العناصر التى حكمها الأتراك. وعندما تطلعت هذه القوميات إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية وجدت فى قوميتها صلابة كافية للصمود أمام القوات العثمانية. وكان أبرز مظاهر هذا الضعف تولى الأسرات الحكم فى الولايات وظهور حكم العصبيات فى طول البلاد وعرضها، خاصة فى البلاد العربية.

وبذلك تكون الحكومة العثمانية قد فقدت سيطرتها المباشرة على هذه الولايات ، وأصبحت هذه الولايات مصدر متاعب كبيرة للسلطان ولبابه العالى لتوالى تمردها من وقت لآخر ضد السلطان بغية الامتناع عن تأدية التزاماتها نحو السلطنة العثمانية، والاكتفاء فقط بالتبعية الأسمية وبينما كانت الدول الكبرى تنزل الهزيمة بالدولة العثمانية سنة بعد أخرى، وكانت الثورات الداخلية لا تهدأ، كان الفساد يزداد سوءا فى الداخل.

فلماذا لم تسقط الدولة العثمانية بعد أن أصيبت بهذه الآفات القاتلات ؟
هناك عدة أسباب أعطت للدولة العثمانية عمرا طويلا رغم هذا الضعف الشديد.

١- كانت الدول الكبرى الأوربية تكره الدولة العثمانية وكانت روسيا تريد القضاء عليها ولكن كانت هناك دول أخرى تخشى من أن تصبح روسيا من القوة لدرجة تضر بمصالح الدول الأوربية الأخرى. ومن هنا أعطى التنازع الأوربى للدولة العثمانية فرصا طويلة للبقاء.

٢- أن هذا النظام العثمانى الفاسد المتدهور خلق نوعا من توازن القوى داخل الدولة العثمانية نفسها. كان السلاطين ينهبون، وكان الانكشارية لهم بالمرصاد، كان الانكشارية يلامون على هزائمهم، وكانوا هم أيضا يرهقون الشعب بالسلب، بينما رجال الدين يهاجمون الانكشارية ورجال الدولة لتعديهم على الشعب. كان الوالى الذى يستقل بولايته يجد بجواره والى يحد من نموه فكان كل والى يتطلع إلى السلطان ويخشى جاره.

٣- كان الإسلام أساس الدولة، وكانت الدولة العثمانية تمثل الدولة الإسلامية العامة الأمر الذي أوجد نوعا من الهدف العام يربط بين أجزاء الدولة الممزقة. وكان هناك رجال مصلحون يوجهون الإنذار بعد الإنذار لإنقاذ الدولة من الإنهيار. من أمثال كينشى بك وهناك قارن بين ما أصبحت عليه الدولة وما كانت عيه أيام سليمان القانونى، حتى لقد قال أحد قضاة الأتراك فى القرن السابع عشر أن الوزراء هم أعداء الدولة والدين.

ولكن ظهر وزراء عظام استطاعوا أن يدفعوا عن الدولة عادية السقوط بل ورفعها إلى مكانة أعلى

كانت أحوال الدولة معرضة للتدهور أكثر لولا أنها رزقت - خلال هذه الفترة من ضعف السلاطين - بعدد من الصدور (الوزراء) العظام الذين حفظوا لها قوتها وقدرتها، وبوجه خاص عدد من الصدور العظام من أسرة (كوبرلى) التى حكمت الدولة العثمانية تقريبا بين ١٦٥٦-١٧١٠م. ومن أبرز رجالاتها (محمد كوبرلى) الذى كان يشغل فى أول حياته العملية مناصب متواضعة ثم ارتفع بكفاءته إلى مناصب الحكم والادارة فى دمشق وطرابلس وبيت المقدس، ثم تولى الصدارة العظمى، وأعطى من السلطات ما لم يتمتع بمثلها قبله أحد وقد استخدم محمد كوبرلى سلطاته في الضرب عى أيدى العابثين بمصالح الدولة من رجال الانكشارية أو السباهية أو رجال الدين، وخلفه ابنه أحمد في (١٦٦١)، وتوالى من بعد عدد من رجالات هذه الأسرة. الذين أعطوا للدولة القدرة على الصمود أمام القوى المعادية المتعاظمة.

كان الصراع بين السلطنة العثمانية وبيت الهابسبورج على المجر متتاليا لا يهدأ إلا لفترة قصيرة. وكانت كفة الامبراطورية الرومانية المقدسة هى الراجحة في الغالب، وبدأت أكبر الهزائم التى منى بها العثمانيون فى موقعة سان جوتار فى (١٦٦٣)، ولم يخفف من وقعها سوى الانقسامات الشديدة فى جبهة الهابسبورج ، وسوى وجود أحمد كوبرلى فى الصدارة العظمى الذي دفع بالجيش العثمانى حتى أسوار (فينا) فى (١٦٨٣). وكان المدافعون عن (فينا) يمثلون لونا من التكتل الصليبى، وكان أمل الأتراك فى النصر يتركز على امتناع البولنديين عن المشاركة فى الدفاع عن فينا، وكان دبلوماسيو لويس الرابع عشر هم الذين قاموا بتلك المحاولات دون جدوى. وانتهت المعارك بهزيمة الجيش التركى.

وبعد ذلك تراجع الأتراك باستمرار، وأخلوا (بودا) سبتمبر - ايلول ١٩٨٦ حتى وصلوا إلى نهرى الساف والدانوب، ثم تخلصت هنغاريا (المجر) من الاحتال التركى بعد كفاح دام قرن ونصف قرن تقريبا وحاولت جيوش الامبراطورية الرومانية المقدسة أن تتابع تقدمها إلا أن مصطفي كوبرلى - الصدر الأعظم - صدها إلي ما وراء الساف والدانوب. ولم تنته سلسلة هذه الحروب الا بمعاهدة كارلوفينز فى ٢٦يناير - كانون الثانى ١٦٩٩ التى وضعت المجر تحت حكم آل هاسبورج وتلتها حرب كانت هزيمة للاتراك الذين وقعوا معاهدة جديدة هى معاهدة باساروتيز فى ١٧١٨ وأصبحت (بلغراد) بمقتضاها تابعة للنمسا. وتوالى ضغط الامبراطورية الرومانية المقدسة على الدولة العثمانية في البلقان طوال القرن الثامن عشر. ولكن دون الحصول على مكاسب جوهرية كتلك التى حصلت عليها من قبل، وتمثل الحرب التى وقعت بين الدولتين فى ١٧٨٨ أخر حرب بينهما فى القرن الثامن عشر.

وكانت الامبراطورية الرومانية المقدسة قد دخلت هذه الحرب كحليف روسيا فى حربها ضد العدو اللدود لها الدولة العثمانية، وانهت هذه الحرب بصلح سستوفا بين الأتراك والنمساويين سنة ١٧٩١. أما العلاقات بين الأتراك والروس حتى هذا التاريخ فكانت قد تحولت إلى شبه أزمات متتالية منذ أيام بطرس الأكبر على أن روسيا أيام كاترين الثانية ظهرت كقوة قادرة على أن تملى مآربها على الدولة العثمانيه التى ظهر عليها الضعف فعلا

كانت كاترين الثانية ذات طموح كبير، وهى التى عرفت كيف تقتسم بولنده مع النمسا وبروسيا. وتطلعت إلى تقويض الدولة العثمانية، وكانت خططها فى هذا الصدد بعيدة الأهداف جديدة التنفيذ فقد عزمت على صرب العثمانيين

فى أكثر من جبهة بل وفى أماكن كان من المستبعد جدا أن يصل إليها الروس ، ففي الوقت الذى زحفت فيه القوات الروسية ضد العثمانيين فى الجبهات البرية التقليدية، بعثت باسطولها ليدور من البلطيق حول أوربا إلى البحر المتوسط ليتعاون هناك مع القوى الثائرة ضد السلطان العثمانى من أمثال ظاهر العمر فى فلسطين وعلى بك الكبير فى مصر والشهابى فى لبنان. وقد قام هذا الأسطول فعلا بعدة عمليات بحرية، وضرب فيما ضرب بيروت، وتعاون مع العناصر البلقانية الثائرة على السلطان العثماني، وانتهت هذه الحرب بمعاهدة مذلة عرفت باسم معاهدة كوجك قينارجى ١٧٧٤.

بمقتضى معاهدة كوجك قينارجى حصل الروس على مكاسب كبيرة للغاية:

١- أصبح القرم تحت يد الروس اسميا ولن يلبث أن يصبح تحت يدهم فعليا.

٢- أن تصبح روسيا إحدى الدول الأكثر تفضيلا من حيث المعاملة أى تحصل على أى امتياز تحرزه دولة أخرى أى أصبحت من الدول المتمتعة بالامتيازات.

ومعاهدات الامتيازات التى بدأت فى ١٥٣٥ أصبحت ذات طابع آخر فى أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر والعشرين. كانت أولى هذه المعاهدات قد عقدت بين تركيا وفرنسا فى ١٥٣٥ فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى ذروة قوتها وقد حصلت كل من بريطانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة وغيرها من الدول الأوربية الكبرى حينذاك على معاهدات

مماثلة أو مؤكدة على هذه الامتيازات، وكان حصول روسيا على معاهدة ١٧٧٤ بداية استغلال معاهدات الامتيازات بشكل يتعارض مع سلامة الدولة العثمانية، حيث أن ضعف الدولة العثمانية أعطى للدول الاوربية - استنادا إلى تلك المعاهدات - فرصة التدخل فى أمور الدولة العثمانية الداخلية بحجة حماية الرعايا المسيحيين فيها أو عن طريق منح الحماية لاعداد كبيرة من رعية السلطان أو استغلال مواد تلك المعاهدات فى منع الرعايا الأتراك من استرداد حقوقهم من التجار والأجانب المعتمدين على تأييد القناصل. بل لقد فتحت هذه المعاهدات البلاد العثمانية أمام التجار الأجانب بشكل أضر كثيرا جدا بمصالح التجار الوطنيين. وأصبحت معاهدات الامتيازات سيفا مسلطا على رقاب الأتراك فى فترة ضعفهم.

وتوالت الحروب بين الدولة العثمانية من جهة والدولتين الروسية والنمساوية من جهة أخرى، وتوالى تراجع الدولة العثمانية في البلقان بصفة خاصة.

كان البلقان أرضا معادية فعلا للاتراك وللمسلمين. وكان سوء الحكم عاملا جوهريا فى تعميق هذه الأزمة الدينية بين المسلمين والبلقانيين. ولكن الظلم الذى كان يقع على الناس في البلقان كان يصيب المسلمين والمسيحيين على حد سواء ومن ذلك أن الانكشارية كانوا يضطهدون المسلمين وكذلك الرعية المسيحية، فكانت الثورة ضد هؤلاء الانكشارية عنيفة ودموية خلال تلك الفترة، وكانت الثورة بوضوح موجهة ضد الفساد والانكشارية وليس ضد الحكومة العثمانيةنفسها.

وبعث الشعب الصربى بمندوبيه إلى الباب العالى ليعرض شكواه عليه، وكانوا فى نفس الوقت يكسبون معاركهم ضد الانكشارية، ونظرا لماطلة الباب

الدالى فى تسوية المشكلة قوى الاتجاه نحو العمل على الاستقلال لصربيا، خاصة وأن روسيا كانت تؤيدهم بدرجة أوضح بكثير من تأييد النمسا لهم. وأدى ذلك إلى أن تأزمت العلاقات بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا. وحيث أن القيصر كان بصدد حرب ضد الامبراطور نابليون، وكان من اليسير على هذا الامبراطور أن يكسب تحالف السلطان، ولم تلبث أن وقعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية. ولكن كان نابليون يسعى إلى كسب القيصر، حتى ولو كان هذا على حساب حليفه الشرقى السلطان العثمانى، وحدث هذا فعلا فى تلست ١٨٠٧.

ولقد استمرت الحرب بين الأتراك والروس ودارت المعارك بعنف فى بلاد الصرب، ولم تلبث خطط نابليون الأول أن أزعجت القيصر، وأدى هذا إلى أن يتصالح مع السلطان فى ١٨١٢ فى معاهدة بوخارست وهى نفس السنة التى غزا فيها نابليون روسيا. وحصلت الصرب على نوع مخفف من الحكم الذاتى فى تلك المعاهدة، ولكن نصوص المعاهدة كانت غير محددة الأمر الذى أدى إلى تجدد القتال بين الطرفين التركى والصربى مرة أخرى، وكانت كفة الأتراك هى الراجحة بسبب انشغال روسيا فى مقاومة الغزو النابليونى، وعدم قدرة النمسا المهيضة الجناح على التحرك إلى جانب الصرب. إلا أن المقاومة الصربية المتفرقة ظلت موجودة حتى أعيد النظر فى معاهدة بوخارست فى ١٨٢٦ ثم فى ١٨٣٠ بعد هزيمة الأتراك أمام الثورة اليونانية والتدخل الأوربى، وحصل الصرب على إمارة وراثية ومجلسين أعطاها شكل الحكم الذاتى بوضوح وتولى (ميلوش) أول إمارة صربية فى نوفمبر - تشرين ثانى ١٨٣٠ فكان ذلك بداية حصول الصرب على الاستقلال التام الذى ستفوز به في مؤتمر برلين ١٨٧٨.

على أن الشعب البلقانى الذى استطاع أن ينتزع من الأتراك استقلاله التام هو الشعب اليونانى.

كان اليونانيون قد أحرزوا تقدما ملحوظا تحت الحكم العثمانى، وتمتع رجال الدين اليونان بمكانة كبيرة في اليونان وفي مختلف أرجاء الدولة العثمانية، وكانوا يشكلون هيئات الأكليروس فى الكنائس البلغارية والصربية والألبانية، حتى لقد أصبحت هذه الشعوب واقعة تحت سلطات الأتراك المالية والإدارية وسلطات الإغريق فى الشئون الروحية، وأصبح اليونان سادة التجارة والملاحة ، ونشأت طبقة من الرأسمالية اليونانية المحبة لوطنها ولتاريخها وآدابهم الإغريقية، وخدم عدد من المثقفين اليونان فى مناصب الدولة، وأصبحت وظائف الترجمة بالذات احتكارا ليونانيى الفنار. وشعر اليونانيون خلال ذلك أنهم أعلى مكانة وعقلية من الأتراك، وكانت وراء هذه الاتجاهات دولة كبيرة أرثوذكسية، وهى روسيا. حتى لقد قيل أن قيصرية روسيا كانت تسعى إلى بناء امبراطورية يونانية على حساب الدولة العثمانية.

وقد كانت انتصارات الروس، وخاصة منذ معاهدة (كجك قينارجى)، تثير روح التحرك لدى اليونانيين، وكان لروح الثورة الفرنسية ونمو الفكر القومى أثره الكبير فى تحرك اليونانيين نحو أهداف قومية وتحررية. خاصة وأن الثورات البلقانية ضد الدولة العثمانية لم تهدأ فى المجر والصرب بل تشبت كذلك ثورات بزعامة قيادات إسلامية مثل على باشا والى (يانينا).

كانت فى روسيا ظواهر قوية تحث اليونانيين على الاعتقاد أنها مستعدة لخوض حرب لانقاذ اليونان من الحكم التركى. فلقد وصل اليونانى الأصل كابوديستريا إلى منصب وزير خارجية فى حكومة قيصر روسيا، بل مما

شجعهم على الثورة أن صحافة أوربا كانت تتحدث باستمرار عن مجد اليونان الماضى أيام الإغريق وبيزنطة، وعن مأساتها تحت حكم الأتراك.

نمت الحركات الثورية والجمعيات السرية والعلنية اليونانية وانتشرت وأصبحت تشكل قوة ضاربة في ١٨٢٠، وكان ابسلانتى - وهو ابن أمير سابق لولاشيا - يتولى من منفاه فى روسيا مهمة الإشراف على تنظيم قوى الثورة . وفى ١٨٢١ ذهب إلى ملدافيا وولاشيا على أمل أن يجد مساعدات من يونانييها، ولكن وجد الانقسام شديدا هناك بين الزعامات ، بل كان الزعماء الرومانيين في هاتين الولايتين يخشون من قيام حركة هللينية أغريقية لأنهم عانوا كثيرا من تسلط اليونانيين. ولكن فى اليونان كان حظ ابسلانتى أوفر إذ أعلنت الثورة فى ٢٥ مارس ١٨٢١.

من العوامل التى أعطت اليونانيين قدرات عسكرية سريعة وفعالة عملهم - لسنوات طويلة جدا - فى الملاحة البحرية، واتقانهم المهارات الملاحية وتحويل السفن التجارية إلى حربية، ولهذا كانت الحرب ضد الثوار حربا فى البر والبحر، وكانت تواجه العثمانيين مصاعب كبيرة لكثرة الجزر المتعددة المتتالية والمنعزلة، وكثرة الجبال والوديان والممرات التى اشتهرت بها البلاد اليونانية والتى كان اليونانى يعرف أسرارها وكيف يستخدمها استراتيجيا ضد القوات العثمانية التى وجهت لاخماد ثروته.

حقيقة كان من اليسير على الأتراك العثمانيين أن ينزلوا الاضطهاد - ردا على تلك الثورة - بيونانيى الاستانة والأناضول، ولكن كان إخضاع الثورة يتطلب أمورا أخرى، إذ كانت المعارك فى اليونان أشبه بالمذابح المتبادلة بين الطرفين فى وحشية بالغة ودون تقدير لقوانين الحرب والأسرى، مثلما حدث عندما

استولى الثوار على تريبوليتيزا فى ٥ اكتوبر ١٨٢١ إذ ذبحوا حوالى ثمانية آلاف تركى ثأرا لمن قتلهم الأتراك . وكانت فظائع الأتراك تثير فى شعراء أوربا العظام كوامن حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين فكانوا ينشدون شعرا مؤثرا عن فتيات اليونان الضائعات بين أيدي الأتراك، والدمار الشامل الذي أضاع معالم القرى الجميلة فى وديان (خيوس) وعلى هذا الوتر الحساس كان يضرب فيكتور هوجو الفرنسى، ولورد (بيرون) الانجليزى ليبثون الحمية في نفوس الشعوب الأوربية.

وكانت الصحافة الأوربية، وخاصة الانجليزية ـ شديدة كل الشدة على الأتراك، ترى في كل مذبحة يونانية للأتراك نصرا، وفى كل مذبحة تركية لليونانيين نكبة حلت على اليونان أم الحضارات.

وكانت القروض تعقد للثوار فى لندن، والمؤن ترسل من كافة الموانىء الأوربية، والمتطوعون يفدون للمساهمة. لقد كانت صليبية جديدة مقنعة.

كان الموقف الأوربى معقدا فى أول الأمر إزاء الثورة اليونانية، كانت روسيا تريد التأييد القوى للثورة، ولكنها كانت تخشى الانفراد وحدها حتى لا تثير مخاوف جارتها القلقة النمسا ومخاوف بريطانيا الشديدة الحذر من أى تحرك روسى. وكانت روسيا حينذاك عضوا فى الحلف المقدس وكانت الدول الكبرى الأوربية المتعاقدة فى المحالفة الرباعية قد نصت على ضرورة عقد مؤتمرات دولية لمواجهة المشكلات الدولية. وكان مؤتمر (فيرونا) قد نجح فى إعطاء فرنسا الضوء الأخضر لضرب الثورة فى اسبانيا وكان هناك اعتقاد شائع أن مؤتمرا على هذا الشكل يمكن أن يقرر تدخلا أوربيا لصالح الثوار اليونانيين.

وخلال المباحثات بين الدبلوماسيين الأتراك من جهة ودبلوماسيى الدول الكبرى، أكد الأتراك أن الدول الأوربية تعنى بالتدخل إلى جانب الثوار المسيحيين الواقعين تحت الحكم التركى الإسلامى، أما إذا ثار مسلمو الهند أو روسيا فلا تتحرك أى من هذه الدول دفاعا عنهم. وكان من المعتقد أن مؤتمر فيرونا سيتخذ قرارا ما إزاء المشكلة اليونانية، ولكن انفض دون قرار لأن الدول الكبرى كانت تخشى من حرب روسية تركية تؤدى إلى تفوق روسى فى البلقان الأمر الذي كان يتعارض مع مصالح النمسا. وكان على رأس حكومة النمسا حينذاك مترنخ زعيم الرجعية المشهور الذى كان يرى فى نجاح الثورة اليونانية تشجيعا لثورات القوميات العديدة التى كانت تتكون منها الامبراطورية النمساوية.

وكان الروس ينظرون إلى مستقبل الثورة نظرة تفاؤل، وكانوا يعتقدون أن الأتراك لن يلبثوا أن يقبلوا مشروعهم الهادف إلى تكوين ثلاث إمارات يونانية:

١- اليونان الشرقية: وتتكون من تسالى - بيوتيا - أتيكا.

٢- اليونان الغربية : من ابيروس واكرنانى.

٣- اليونان الجنوبية : تتكون من المورة وكريت. وهو مشروع طموح يعطى اليونانيين أرضا لن يتوصلوا إليها إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

إلا أن هذه الآمال الأوربية فى الانتصار اليونانى تهاوت بسرعة عندما طلب السلطان محمود الثانى من محمد على باشا والى مصر أن يرسل قواته لاخضاع ثورة المورة. وكان محمد على مستعدا للقيام بهذا الدور على اعتبار أن الخطر موجه ضد دولة المسلمين العامة الدولة العثمانية.

كان الجيش والبحرية المصرية قادرة على تصفية الثورة اليونانية، وبدا هذا واضحا من سرعة إخمادها لثورة كريت ١٨٢٢ وسيطرتها على معاقل الثوار الواحدة بعد الأخرى بسرعة، وانتشرت الشائعات عن أن إبراهيم باشا عزم على إخلاء اليونان من أهلها يحل محلها سكان من العرب.

وألهبت هذه الشائعات شعوب أوربا التى نشطت بشدة للعمل ضد النجاح المصرى فى المورة، وتوافد فرنسيون وانجليز وألمان بل ووصلت سفن تابعة للولايات المتحدة الأمريكية إلي اليونان تأييدا لها ضد الجيش المصرى. ولعب اليونانيون دورهم بمهارة في هذه الظروف التى بدت فيها قضيتهم خاسرة إذا صمدوا وحدهم أمام الجيش المصرى لفترة ليست بالقصيرة، ولكن لم تلبث معاقلهم أن تهاوت تحت ضربات الجيش المصرى المنظم على أسس حديثة، وكانت تحركاته وأعماله على شكل لم تتعوده أوربا من الشرقيين من حيث معاملة العدو وفق قوانين الحرب وعدم التعدى على العُزل.

لقد أصبح اليونانيون فى حاجة إلي تأييد أوربى مباشر لتحقيق أهدافهم، ولهذا عرض زعماء منهم عرش اليونان على أمير فرنسى كسبا لفرنسا لجانبهم، وعرض بعضهم وضع اليونان تحت الحماية البريطانية، وكان هناك زعماء عديدون يونان يعملون بتوجيه من روسيا.

وكانت بريطانيا بالذات ترفض انفراد روسيا بالعمل وحدها، وترفض أن يتولى فرنسى إمارة اليونان ولهذا قرر الانجليز الوصول إلى تفاهم بين الدول المعنية حول مستقبل اليونان واتفق فى بروتوكول سان بطرسبورج فى ٢٣ مارس - ٤ ابريل ١٨٢٦ على إعطاء اليونانيين نوعا من الحكم الذاتى فى اطار التبعية الأسمية للسلطان العثمانى.

ولكن بعد ذلك بوقت قصير سقطت موسلونجي في يد الجيش المصري، وكانت آخر معقل كبير للثوار (٢٢ ابريل - نيسان ١٨٢٦).

وضخم الساسة ووسائل الاعلام الأوربيين أنباء سقوط موسولنجي، وكان سقوطها موضوع خطبة (شاتوبريان) في مجلس النواب الفرنسي، وندبها (فيكتور هوجو) بأشعاره وكانت الدعوة واضحة نحو حملة كبرى جديدة لانقاذ اليونان. ولهذا اتجهت كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا إلى عقد معاهدة لندن في ٦ تموز ١٨٢٧ التي تقرر فيها تنفيذ بروتوكول ١٨٢٦ وفرضه بطريقة ما على الطرفين العثماني والمصري.

ومن هنا كانت فكرة ارسال الأساطيل الفرنسية والبريطانية والروسية ومحاصرتها الأسطولين المصري والتركي في ميناء نافارين، وفعلا أرسلت هذه الأساطيل وحاصرت الأسطولين المصري والتركي في هذا الميناء، واتفق على عدم اتخاذ أية إجراءات عسكرية من أي طرف انتظارا لنتيجة المفاوضات الدبوماسية الجارية حينذاك.

وكل الأخبار والروايات تؤكد أن حادثة اطلاق النار وإغراق الأسطولين المصري والتركي في ميناء نوارين في ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر ١٨٢٧ على أنها مجرد مصادفة كانت نتيجتها هي غرق الأسطول المصري والعثماني ولكن اعتبر ذلك الحادث في مصلحة روسيا بالذات.

وأحدث ذلك امتعاضا شديدا في الدوائر السياسية البريطانية. وكانت الحكومة البريطانية تريد فرض القيود الشديدة على الأسطولين المصري والعثماني وأن القائد الانجليزي كادرنجتون وجد أن من الخير القضاء عليهما

حتى تسوى القضية اليونانية بالطريقة التى تريدها بريطانيا، وهذا ما حدث فعلا.

فضل محمد على بعد ذلك سحب قواته من اليونان وتم له ذلك فعلا، ورفض أن يشارك السلطان محمود الثانى - الذى كان قد قضى على الانكشارية فى ١٨٢٦- فى حربه ضد روسيا.

ووجدت الدول الكبرى الأخرى أن الأمور تتحول بسرعة لصالح روسيا، ولهذا أسرعت فرنسا إلى ارسال جيش إلى المورة باسم حماية اليونان من القوات المصرية، وفى الحقيقة لمنع الجيش الروسى من الذهاب إليها تحت ستار مساعدة اليونان على الاستقلال.

ولقد كانت الجيوش الروسية تتقدم بسرعة فى البلقان حتى لقد احتلت أدرنة فى ١٩ أغسطس - آب ١٨٢٩، وكانت بعض الدوائر السياسية الفرنسية تريد استغلال هذه الفرصة بالتحالف مع روسيا وبروسيا ضد النمسا وبريطانيا لكى تستطيع من وراء ذلك التخلص من قيود معاهدات باريس ومؤتمر فينا ١٨١٥.

ولكن نيقولا الأول - قيصر روسيا - كان يخشى فرنسا تماما، وكان فى نفس الوقت موقنا أن الجبهة الروسية - الفرنسية أضعف من الكتلة الأوربية الأخرى، وأن من الخير له الحصول على مكاسبه بنفسه دون معونة فرنسية، خاصة وأن السلطان العثمانى محمود الثانى أبدى رغبته فى الوصول إلى صلح ثم أن بريطانيا كانت تضغط عليه بشدة لقبوله حتى لا يتعرض السلام الأوربى للخطر. وفعلا وقع السلطان معاهدة أدرنة مع القيصر فى ايلول - سبتمر ١٨٢٩

التى اعترف فيها السلطان باستقلال اليونان، ولكن هذه الدولة الجديدة كانت تقتصر على المورة واليونان الوسطى بما فيها موسولنجى وايبويا وجزر الكيكلادين.

كانت هذه الهزائم المتلاحقة من أيام كوجك قينارنجى حتى استقلال اليونان قد أبرزت بوضوح أن الدولة العثمانية بحالتها تلك كفيلة بأن تسقط بين يد أعدائها، بل لقد ظهرت فى الدوائر السياسية الأوربية. وخاصة علي يد الدبلوماسيين الروس، مشروعات لاقتسام الدولة العثمانية. وبدا واضحا أنه ان لم تعمل حكومة الدولة العثمانية على إعادة تنظيم نفسها على أسس حديثة فمصيرها هو التمزيق والاقتسام على مائدة الدول الامبريالية الأوربية المتربصة بها. ولهذا ظهرت حركة الاصلاح من ابتداء عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٧-١٨٠٧).

حركات الاصلاح والتنظيمات

فى القرن التاسع عشر

كانت هناك محاولات عثمانية لتجديد شباب الدولة وذلك بالاقتباس من الغرب، وكانت حضارة الغرب تتسرب بشكل او بآخر إلى الدولة العثمانية، ولكن بشكل بطىء. ومن ذلك استخدام الطباعة على يد (إبراهيم متفرقة) فى أوائل القرن الثامن عشر وحيث اقتصرت الطباعة على الكتب غير الدينية والشرعية، ظهر من بعد ذلك عدد من المثقفين العلمانيين من غير رجال الدين.

كذلك وفد عدد من الخبراء الأجانب على الدولة العثمانية ووضعوا خبراتهم فى خدمة العثمانيين من أمثال الفرنسى بانفى والبارون دى توت.

وكانت الاحتياجات العسكرية تفتح أمام الأتراك بعض مجالات الاقتباس ليس فى العلوم العسكرية الجديدة فقط ولكن كذلك فى العلوم الطبية وفى تعلم اللغات الأوربية وخاصة الفرنسية.

وتعتبر الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فترة هزت كافة الأسس التى كان يقوم عليها المجتمع الأوربى أو الشرقى، فالثورة الفرنسية جعلت أوربا تواجه أفكارا جديدة واتجاهات سياسية جديدة، والحركة الاصلاحية التى سارت عليها الدولة العثمانية منذ سليم الثالث (١٧٨٧-١٨٠٧) كانت بداية عهد جديد من الاصلاح والتغيير لانقاذ الدولة من الأطماع الأوربية وسياسة التقسيم التى كانت تنادى بها روسيا، ومن الضغوط الاستعمارية التى كانت تشنها بريطانيا وفرنسا، ومن الضغوط العسكرية المتتالية من جانب الامبراطورية النمساوية، ومن جانب الدولة الفارسية.

ولا شك أن الثورة الفرنسية هزت أفكار سليم الثالث ولكن فكرة الاصلاح والتغيير كانت تمليها ضرورات داخلية أقوى من تأثير الثورة الفرنسية. فعلى يد سليم الثالث كثرت البعثات التركية إلى أوربا، وشجع التعليم وخاصة العسكرى منه، وتحدث عن رغبته فى الغاء نظام الالتزام، ودعا إلى إنشاء (مجلس مشورة) من كبار الموظفين، وفعلا عقد مجلسا من هذا النوع ، وطلب من كبار موظفيه أن يكتبوا آراءهم فيما يجب أن يجرى من اصلاحات لانقاذ الدولة من تخلفها عن ركب الحضارة، وخاصة من حيث إنشاء جيش جديد قادر على دفع العدوان عن الدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية).

كان سليم يدرك أن الانكشارية لم يعودوا قادرين على التطور وأن النظام الجديد يجب أن ينشأ بعيدا عنهم، ومن هنا شرع فى وضع النظام الجديد على أسس أوروبية. ولكن الانكشارية أدركت أن حتفها فى تفوق هذا النظام الجديد. فثارت على السلطان وقتلته فى ١٨٠٨.

نجا محمود الثانى ـ الذى اعتلى العرش فى ١٨٠٨ـ من مصير سلفه سليم الثالث ـ لأنه اختبأ فوق سطح القصر. وعندما تولى السلطنة كان موقفه مزعزعا لأن العلماء والانكشارية ـ الذين اسقطوا سلفه ـ كانوا أقوياء وبالمرصاد للمحاولات التى تبذل لاصلاح الدولة. وأما سلطة محمود الثانى خارج العاصمة فكانت هى الأخرى ضعيفة للغاية، إذ كانت حكومات العصبيات فى الولايات قد شلت تدخل الباب العالى فى أمورها.

كان محمود الثانى يضمر الاصلاح، وكان يبحث عن وسيلة تمكنه من القيام به دون أن يثير أعداء الاصلاح، ولذلك كان يتلمس طريقه ببطء. بل كان يهدف أولا إلى أن وطد سلطته فى داخل البلاد لكى يفرض خطته الاصلاحية

فرضا، وحين عزم على تحقيق هذا الهدف واجه أزمات فى منتهى التعقيد والخطورة. ويمكن أن نحدد الرئيسى منها على النحو التالى :

١ـ الغزوة الانجليزية لمصر فى ١٨٠٧ والفوضى التى حدثت فى مصر خلالها وبعدها حتى عقد الصلح مع بريطانيا فى ١٨٠٩.

٢ـ انتصارات الموحدين بقيادة آل سعود وسيطرتهم على البلاد من حدود العراق حتى الحجاز.

٣ـ القلاقل المزمنة فى البلقان.

٤ـ الضغط الروسى الذى كان أشبه بحرب متصلة.

٥ـ الضغط الفارسى على العراق الذى كان هو الآخر أشبه بحرب متصلة فى تلك النواحى.

وفوق هذا وذاك كانت التطورات العالمية الكبرى الناجمة عن سياسات نابليون التوسعية وردود فعها تثير المتاعب المتواصلة للدولة العثمانية بطريقة أو بأخرى. فخلا الفترة الأخيرة من الحروب النابليونية اشتبكت الدولة العثمانية مع روسيا فى حرب طويلة استمرت من ١٨١٠ إلى ١٨١٢، وبعد سقوط نابليون نشطت روسيات فى إثارة القلاقل والثورات فى البلقان، وتخللت الثورة اليونانية حرب عثمانية ـ روسية، انتهت بمعاهدة مذلة فى ١٨٢٩.

وكانت الجبهة الشرقية لا تقل سوءا عن الجبهة الغربية، فقد كان الشاه الفارسى ورجاله يشددون الضغط على العراق حتى وقعت حرب كبيرة بين الدولتين فى ١٨٢١ حتى عقدت معاهدة أرضروم الأولى فى ١٨٢٣.

وكانت حركة الموحدين أقوى من أن يخمدها السلطان وحده ولذلك كلف والى مصر باخضاعها (١٨١١ ـ ١٨١٨) ولن يلبث أن يقع الصدام الكبير بين السلطان محمود الثانى ومحمد على ـ والى مصر ـ حول مستقبل الشام ١٨٣١ـ ١٨٤٠.

رغم كل هذه الأخطار سار السلطان محمود الثانى فى طريق التغيير الجذرى لنظم الدولة العثمانية على أساس الاقتباس من نظم الغرب ، وتقوية قبضة الحكومة المركزية على مختلف أجزاء الولايات مع اجتثاث المفاسد من جذورها إن أمكن . فكانت هذه الخطة الثلاثية هى التى سار عليها السلطان محمود الثانى، فكيف نفذها ؟

كانت الخطوة الأولى هى أن يقضى على أكبر معارضى الاصلاح أى الانكشارية. وكان يبحث عن الوسيلة حتى ضرب له محمد على ـ والى مصر ـ المثل فى اجتثاث مثل هذه الطغمة الفاسدة من جذورها. فدبر مذبحة للانكشارية فى ١٨٢٦ ليشرع من بعد ذلك فى تكوين جيش جديد على الطراز الأوربى الحديث، وأطلق عليها السلطان اسم « العساكر المنصورية المحمدية » ، واستدعى تدريبها ضباطا ومهندسين فرنسيين وأمان ،

وتأسست أكاديمية عسكرية فى ١٨٣٤ وأرسل بعض خريجيها إلى العواصم الأوربية لاستكمال دراساتهم العليا، وأسس مدرسة للطب، وكان التدريس بها باللغة الفرنسية. وأنشأ نظام الحجر الصحى.

وأنشأ عددا من الوزارات الحديثة (وزارة الداخلية ووزارة المالية) وعلى رأسها الصدر الأعظم. إلا أن هؤلاء كانوا لا يشكلون مجلسا للوزراء ، إذ كان

كل وزير مسئولا عن وزارته، ويمكن عزله دون أن يؤثر ذلك على مكانة الصدر الأعظم.

ويرجع الفضل إلى محمود الثانى فى إنشاء (ترجمة اوده سى) أى (إدارة الترجمة) التى تحولت بعد ذلك إلى وزارة الخارجية. ومن (ترجمة اوده سى) خرج عدد من مشاهير رجال الدولة العثمانية من أمثال عالى باشا وفؤاد باشا ونامق كمال بك. ومن أسباب تفوقهم احتكاكم بالمعضلات السياسية الأوربية خلال عملهم.

وفى مجال القضاء أسس « المجلس الأعلى للقضاء» الذى كلف باعداد القوانين الجديدة، وعرف باسم « مجلس والى أحكام عدلية» وكان أعضاؤه من مختلف الأديان، ومن هذا المجلس أنبثق فى ١٨٦٨ مجلس الدولة (شوراى دولت).

وفى أيام محمود باشا (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) ظهرت قوة الباب العالى الذى كان مقرا للصدر الأعظم ووزارات الدولة، ولكن بعد عهد محمود الثانى سيصبح للباب العالى الدور الأولى فى توجيه سياسة الامبراطورية، وسيصبح بمثابة القلب النابض المسيطر على السلاطين والإدارة البيروقراطية فى العاصمة والولايات، حتى يضع السلطان عبد الحميد الثانى السلطة كلها فى يده بين ١٨٧٦ حتى ١٩٠٨.

أعاد محمود الثانى تنظيم ادارة الولايات فى الأستانة وفى مراكز الولايات، فأصبح الولاة يعينون من قبل السلطان، وسحبت منهم سلطة تنفيذ أحكام الاعدام إلا بعد موافقة السلطان. ونمت الإدارة فى الولايات مثلما نمت

فى الأستانة، فتضخم الجهاز الإدارى ، وظهرت طبقة (الأفندية) التى رتب لها السلطان مرتباتها عله بذلك يقضى على الرشوة السائدة بين موظفى الدولة. وهؤلاء الأفندية كانوا فى غالبيتهم يتعلمون الفرنسية ويعملون كتابا فى الدواوين وأخذوا يكتسبون فى العاصمة الطباع الأوربية ،

ولكن الغالبية العظمى من هؤلاء الأفندية تلقوا من أوربا معلومات سطحية طغت فوق كتلة ضخمة من الجهل والمعلومات والعادات الفاسدة. وكان هذا (الأفندى) معتزا بفرنسيته الركيكة وبملابسه الأفرنجية (الطربوش والاستنبولية) ولكن لا هو يتقن الفرنسية ولا الطريقة الغربية فى الحياة، وإنما اختلطت عليه العادات القديمة بالمفاهيم الأوربية الجديدة،

وكان يعيش فى الواقع حياة غير مستقرة فى مجتمع ينظر إليه بنوع من الاستهزاء والقبول فى آن واحد.

وكانت المكاتب الإدارية الحديثة - إذا صح التعبير - صورة من صور فوضى الشرق، الكتبة يعملون والزوار يملأون طرقات الإدارات، والباعة يتنقلون بين الحجرات، والأوراق غير منظمة على المكاتب، والإدارات لا أرشيف يمكن الرجوع إليه.

ومن هنا كانت القضايا السياسية الدولية لا تجد من يفهمها بدقة إلا من عاصرها، فإن عزل أو مات الموظف المسئول عنها اضطرب الأمر وضاعت الوثائق.

إن من أهم وسائل وأساليب الاصلاح كان إنشاء مجالس الولايات ، ولكنه نظام لم يجرب إلا على نطاق ضيق فى أول الأمر، وكانت هذه المجالس تضم

مسلمين ومسيحين وتناقش المسائل المدنية والمالية والقضائية، وأصبح على الوالى أن يحصل على محضر موقع من أعضاء المجلس على أعماله. وكانت هذه المحاولة تهدف إلى ربط الولايات بالحكومة المركزية مع زيادة الرقابة المحلية على أعماله.

ولكن المشكلة الحقيقية هى أن الوالى كان يختفى وراء هذه المضبطة ليتنصل من المسئولية، وأن المجلس كان تحت توجيه كبار الملاك فى الولاية، وكان هؤلاء قادرين على توجيه أعمال الوالى وفق مصالحهم الخاصة.

وما كان فى استطاعة السلطان فى الواقع أن يعالج كل المصائب المتراكمة على الجهاز الحكومى، حتى الرشوة التى كان معتنيا كل العناية للقضاء عليها زادت بشكل أكبر عن ذى قبل وذلك لعدة عوامل :

١- كانت مرتبات الموظفين صغيرة، وأصبحت تطلعاتهم أكثر بعدا فزادت إغراءات الرشوة عن ذى قبل.

٢- لم تكن هناك أجهزة رقابة على أعمال الموظفين، خاصة الكبار منهم، وهؤلاء كانوا قد تعودوا على شراء مناصبهم رغم تشديد السلطان بمنع ذلك، حتى لقد قال أحد الولاة وهو والى ديار بكر :

«ليس لدى دوافع لكى أكون أمينا، فإذا ما حاولت أن أحكم بالعدل تكاتف ضدى كل الباشوات الآخرون، ولن ألبث أن أطرد من وظيفتى، إذا رفضت الرشوة سأصبح افقر من أن أشترى وظيفة أخرى».

وهناك إشارات عن أن محمود الثانى كان يتجه جادا إلى المساواة القانونية بين جميع رعاياه بغض النظر عن الدين، وهى خطوة كانت تحول دونها

التقاليد التى اتبعت طوال القرون الماضية بل يقال، أنه كان معنيا بوضع دستور للبلاد وإقامة حكومة دستورية وبرلمان من مجلسين.

ومن حيث تقوية قبضة الحكومة على الولايات العثمانية لقى السلطان محمود الثانى كثيرا من النجاح فى بعض الأماكن، فقد سحق عددا من (الدربيكات)، وأبعد بعضا من هؤلاء الدربيكات عن مواطنهم وحدد إقامتهم، ووجه ضربة قاضية للمماليك فى العراق فى (١٨٣١) بمذبحة مشابهة لمذبحتى الانكشارية فى الأستانة ١٨٢٦ ومذبحة مماليك مصر فى القعة (١٨١١)، وانهى حكم الأسرة القرمنلية فى طرابلس فى ١٨٣٥. وألغى الاقطاعات العسكرية، وأصبحت سياسات الولايات توجه من الأستانة التى قويت سلطاتها المركزية.

وعند تقييم حقيقة جهود محمود الثانى نجدها واضحة فى عمليات الهدم أكثر منها فى عمليات البناء، حيث أنه بالنسبة للبناء كان يواجه مصاعب كثيرة، وكان يواجه مزالق خطرة تجعله يتريث من سنة لأخرى، هذا فضلا عن أن النتائج لا تظهر فى مثل هذه المجالات الا بعد سنوات طويلة وكانت حاجات الدولة تبتلع كل من يظهر نوعا من المهارة فى صنعته حتى لو لم يتقن أساسياتها.

إن قيمة عهد محمود الثانى واصلاحاته تكمن فى أنه فتح باب الإصلاح وأصبح من المستحيل أن يغلق بعده.

ولم تؤد هذه الاصلاحات إلى استعادة الدولة قدرتها على الانتصار فى المعارك، وتجلى ذلك فى فشل القوات العثمانية - بعد انسحاب القوات المصرية من المورة - فى صد الهجوم الروسى واضطرار السلطان إلى توقيع معاهدة

ادرنة ١٨٢٩ التى أرغمته على ترك اليونان لأهلها ولم يلبث أن استولى الفرنسيون على الجزائر (١٨٣٠) وانزلت القوات المصرية الهزائم المتتالية فى الزراعة وقونيه فى ١٨٣٢ وزحفت حتى اقتربت من المضايق لولا صلح كوتاهيه (١٨٣٣) الذى أعاد القوات المصرية إلى أطنه بين الشام وتركيا.

لماذا تحركت بريطانيا إلى جانب السلطان محمود الثانى قبيل وبعد كوتاهيه؟

كانت سلطات الأستانة تبحث عن حليف لها يصد القوة الجارفة المصرية، فوجدت أن فرنسا تؤيد محمد على ، وبريطانيا لا تستمع إلى نداءات السلطان، ربما بسبب مشاغلها فى المشكلة البلجيكية، ولم تجد سوى اقيصر الروسى. وما كان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود، ولكن الظروف كانت قاسية وعقد معه اتفاقية خنكار سلكه سىء (١٨٣٣) التى أعطت للقيصر حق ارسال جيش للمضايق للدفاع عن السلطنة العثمانية، وفعلا نزلت القوات الروسية على مقربة من الأستانة الأمر الذى أزعج الانجليز كل الازعاج.

وفى ١١ يوليو - تموز ١٨٣٣ استجوب أحد النواب الانجليز الوزارة فى مجلس العموم مشيرا إلى أن أبواب الدولة العثمانية وفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس. وقد بالغ النائب فى تصوير الخطر الروسى، ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذه المبالغة كانت من أساليب الانجليز لإثارة المشاعر ضد خصمهم. وخلال هذه المناقشات تجلت حقيقة هامة هى أن الروس بعد ختكار سكه سى أصبحوا القوة المواجهة للمصريين، وأصبحوا فى نفس الوقت حماة الدولة العثمانية، ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية وعلى مشاركة الدول الأوربية فى إيجاد حل للنزاع بين السلطان ومحمد على حتى لا تنفرد روسيا

بالعمل، بل وحتى تصبح بريطانيا هى التى تفرض هذا الحل الدولى. ويقال فى كثير من الوثائق أن الانجليز هم الذين كانوا يحرضون السلطان العثمانى على التحرش بالجيش المصرى فى الشام وإرغامه على خوض الحرب مجددا. ولكن أدى ذلك إلى نكبة أخرى حلت بالجيش العثمانى بهزيمة قاسية أمام الجيش المصرى فى موقعة نزيب ١٨٣٩ ولم يلبث أن أبحر الأسطول العثمانى من تركيا منضما طواعية إلى الأسطول المصرى فى الاسكندرية.

وحيث أن السلطان محمود الثانى كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن تأتيه أنباء نكبة نزيب، أصبحت الدولة العثمانية بلا جيش ولا أسطول ولا سلطان. وكاد الأمر يتحول إلى إنهيار تركيا لولا وقوف الدول الأوربية إلى جانب السلطان الجديد عبد المجيد الأول ووزيره النشيط رشيد باشا.

لقد أدرك رشيد باشا أن انقاذ تركيا أصبح فى يد الدول الكبرى، ومن هنا ارتبط ارتباطا وثيقا بها، وخاصة ببريطانيا التى كانت ترى فى تركيا القوة القادرة على منع أى من روسيا أو مصر من التفوق فى الشرق الأوسط، رغم أن مصر أكدت لبريطانيا أكثر من مرة أنها كفيلة بروسيا إلا أن بريطانيا كانت تدبر الانفراد بالمنطقة إن أمكن.

تحت وطأة هذه الأحداث أصدر السلطان عبد المجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات وعرف بخط كلخانه فى نوفمبر - تشرين الثانى ١٨٣٩. وهناك العديد من المؤرخين الذين يربطون فقط بين صدور هذا الخط والهزيمة أمام القوات المصرية ورغبة تركيا فى كسب الدول الأوربية إلى جانبها ضد مصر. وفى اعتقادنا أن هذه ربما كانت بعض الأهداف من وراء اصدار خط كلخانة، ولكن مما لا شك فيه أن حركة الاصلاح كانت قد بدأت من قبل، وأن

اصدار هذا الخط لا يعنى سوى حلقة من حلقات هذا الاصلاح. وأن ظروف الهزيمة أوجبت هذا الاصدار حتى تبدو الدولة ـ وهى بصدد طلب المساعدة من أوربا ـ جديرة بأن تعامل معاملة الدولة المتحضرة الحديثة.

يؤكد خط كلخانة أن عدم الانقياد إلى الشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال القرون الماضية من تدهور وضعف وأن المقصود من هذا الخط هو إحياء الدين والدولة والملة. ومع هذا كان هذا الخط هو الخطوة الكبيرة الثانية نحو الأخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بين المسلم وغير المسلم، فكان ذلك هو الخطوة الأولى لفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين. كذلك ساوى (الخط) بين الطوائف المختلفة فى فرض الضرائب أمام القانون بصفة عامة. واقتضت قرارات فرض التجنيد على الرعايا جميعهم وإلغاء نظام الاقطاعات العسكرية إلغاء تاما، كما اقتضت قرارات تحديد الضرائب على كل فرد إلغاء نظام الالتزام الذى وصفه (خط كلخانة) بأنه من آلات الخراب فى الدولة ومن أسباب تدهورها.

وركز الخط على تحديد مرتبات موظفى الدولة وعلى منع شراء المناصب. وصدرت فى أعقاب خط كلخانة سلسلة من القوانين التنظيمية لوضع أسس خط كلخانة موضع التنفيذ، فصدرت القوانين الجنائية والقضائية والمدنية، وظهرت المحاكم على مختلف أنواعها وصدرت فرمانات بتأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية، وإنشاء جامعة عثمانية.

ومثل أى قرار جذرى، واجه خط كلخانة عاصفة من النقد وسيلا من التأييد.

فقد حذر السياسى النمساوى الكبير الرجعى (مترنخ) العثمانيين من الخطر الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوربية المتعارضة مع الحضارة الإسلامية العثمانية. ومع أن خط كلخانة حرص على أن يكون الاصلاح أوربيا فى إطار الشريعة الإسلامية فإن تطبيق مثل هذا الاصلاح كان عسيرا للغاية خاصة فى دولة تزداد ضعفا عاما بعد آخر.

وهناك من الأوربيين من تحمس جدا للاصلاح الجديد، مثل السفير البريطانى استراتفورد كانتج الذى كان صاحب كلمة مسموعة فى الباب العالى. وكانت وجهة نظر الانجليز هى أن الاصلاح على الطراز الأوربى هو وسيلة الدولة العثمانية للصمود أمام الخطر الروسى، ومن ناحية أخرى كانت حركة الاصلاح الجديدة العثمانية تبدو مرتبطة ببريطانيا برباط خاص، ورضيت عنها بريطانيا أنها لم تمس المصالح البريطانية فى الدولة، وبخاصة معاهدة بلطة ليمان المعقودة فى ١٨٣٨ والتى أعطت رعايا الدولة البريطانية حق المتاجرة مباشرة فى أى جزء من أجزاء الدولة العثمانية تصديرا واستيرادا وتجارة داخلية وخارجية ونهرية وبرية فى مقابل ضريبة محددة بسيطة.

وهكذا فتحت التنظيمات العثمانية باب الدولة للحضارة الأوربية لتتدفق عليها بأقصى سرعة ممكنة، فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع الدولة العثمانية اقتصاديا. هذا فضلا عما توقعته الدول الأوربية من فتح باب الارساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه.

وفى داخل البلاد واجهت هذه الاصلاحات معارضة قوية، خاصة فى تلك الجهات التى تتجاور فيها عصبيات مذهبية مختلفة : إسلامية ومسيحية.

ففى جبال طيارى فى شمال العراق وفى جبل لبنان وقعت الصدامات المذهبية، حيث أن بعض زعامات للأقليات المسيحية فى الدولة العثمانية أبدت نوعا من الارتباط مع الدول الأوربية نكاية فى الزعامات الإسلامية التى كانت لها السلطة المطلقة من قبل، وأدى ذلك إلى تردى العلاقات خاصة وأن يد الأجنبى كانت تنتظر مثل هذه الفرص.

واستغلت الدول الأوربية هذه التنظيمات والاصلاحات لجعلها تخدم أغراضها لا أغراض الدولة منها. فقد سعت فرنسا إلى حماية الكاثوليك فى الدولة العثمانية، كما سعت روسيا إلى حماية الأرثوذكس، وسعى مبشرو بريطانيا وأمريكا إلى تحويل مسيحيى الكنائس الشرقية إلى الكنيسة البروتستنتية.

ولقد بدا فى أعقاب صدور خط كلخانة أن الأخطار كبيرة واستغلالها سيكون على نطاق واسع على يد الدول الأوربية ، خاصة بعد أن أصبح لها الفضل الأول فى ارغام محمد على على سحب قواته من الشام والجزيرة العربية. حتى لقد بدأ التفكير فى عزل رشيد باشا وفى وقف مفعول خط كلخانة منذ ١٨٤١ ولكن لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هى المسئولة وحدها عن عزله، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا فى عزله حيث أنها كانت ضد سياسة التنظيمات. والفارق بين روسيا وبريطانيا المؤيدة لتنظيمات هى أن الأولى ترى فى هذا الخط حائلا دون تحقيق أطماعها والثانية ترى فيه معينا لها على تحقيق أطماعها.

وعلى أى حال توقفت الحركة الاصلاحية مؤقتا بعد عزل رشيد باشا، ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى.

ويبدو أن المسئولين عن الاصلاحات بعد رشيد باشا أدركوا أن الشعب لم يدرك حقيقة التنظيمات الجديدة أو أهدافها، وأن من واجب الحكومة أن تقنع الشعب بخطواتها الاصلاحية وليس فقط تركه يتفهمها وحده. ولهذا عقد السلطان فى ١٨٤٦ مجلس شورى الدولة الذى حضره مندوبان عن كل ولاية للتدارس والتباحث فى أساليب الاصلاح والتنظيم، وكانت هذه هى المحاولة الأولى التى قام بها العثمانيون لأخذ رأى الولايات فى الاصلاح والتنظيم، ولكن يبدو أن المحاولة كانت غير حسنة الاعداد وأن من ذهبوا كانوا لا يعرفون حقيقة دورهم، فعندما سئلوا وطلب منهم مقترحاتهم لم يقدموا شيائا. فكان ذلك خاتمة للاجتماع، وعاد الباب العالى إلى وسيلته التقليدية فى معرفة أحوال الولايات أى ارسال مندوبين من قبله لكتابة تقارير عن الولاية التى يزورونها.

وخلال الفترة التى حكم فيها السلطان عبد المجيد. (١٨٣٩-١٨٦١) كانت حركة الاصلاح نشطة وتأسست كافة الدوائر الحديثة تقريبا، لتأخذ طريقها فى النمو المضطرب من بعد ذلك. فكثرت المدارس بصفة خاصة، والمدارس الفنية، وإدارات الجمارك والهيئات الصحية، والخدمات العامة مثل مد الطرق وصيانة الأمن الداخلى.

استمرت الأمور تسير على هذا النحو حتى جاءت المحنة الرابعة الكبرى التى واجهت الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر ونعنى بها حرب القرم.

وتعتبر حرب القرم واحدة من تلك الحروب العديدة التى تصارعت فيها الدول الكبرى الأوربية، ولكنها هى الحرب التى كان سببها الرئيسى كامنا فى الشرق العثمانى. ويمكن أن نحدد العوامل الرئيسية التى أدت إليها فيما يلى :

العامل الاستراتيجى :

فى أعقاب الحروب النابليونية نشطت حركة الاختراعات فى مجالات النقل البرى والبحرى على المستوى العالمى، فأصبح القطار والباخرة أداة النقل الحديثة. وظهرت المشروعات العديدة لمد خطوط ملاحية بخارية أو خطوط سكك حديدية بين أوربا والشرق الأقصى عبر الشرق الأدنى، وأخذت فرنسا تفكر بحماس فى شق قناة السويس، وأخذت بريطانيا تفكر فى مد خط ملاحى فى أنحاء العراق أو مد خط حديدى بين الاسكندرونة والموصل وبغداد والبصرة للاتصال السريع بالشرق الأقصى. حيث كان من وجهة نظر الانجليز والفرنسيين يجب منع روسيا من الوصول إلى منطقة الشرق الأدنى، بينما كانت وجهة نظر روسيا مختلفة، وهى أن بريطانيا وفرنسا بقيامهما بمثل هذه المشروعات فى العراق ومصر يجب أن تحصل على القسطنطينية لتتوازن معهما. ولكن مفهوم التوازن الدولى عند بريطانيا كان يعنى إبعاد روسيا باستمرار عن المضايق. ولهذا جاهرت بريطانيا بسياسة الدفاع عن كيان الدولة العثمانية لا حبا فى الدولة العثمانية وإنما لتمنع روسيا من الوصول إلى المضايق.

العامل الاقتصادى :

كانت روسيا خلال الفترة التى أعقبت الحروب النابليونية معنية بزيادة حجم صادراتها، وخاصة من القمح الذى كان يزرع بكميات كبيرة فى روسيا. وكان ميناء اوديسا من أهم الموانىء التى تصدر عن طريقها قمحها، ولكن كان فى البلقان ولايتان عثمانيتان هما ولاشيا وملدافيا كانتا تصدران كميات كبيرة

من القمح نافست بشدة صادرات روسية من أوديسا. ولهذا سعى القيصر نيقولا الأول إلى السيطرة على هاتين الولايتين حتى يتحكم فى إنتاجهما بما يفيد روسيا، وحتى يستطيع القيصر منهما أن يتحكم فى البلقان المتطلع إلى روسيا.

العامل الدينى والمذهبى :

أصبحت روسيا - بعد الحروب النابليونية - أكثر الدول تركيزا على الحروب الصليبية . وكان كثير من ساسة روسيا يتعجبون من عدم مشاركة الدول الأوربية لروسيا فى حربها المقدسة هذه. ولكن هذه الفكرة الصليبية كانت تجد ترحيبا فقط بين الشعوب البلقانية وزعمائها وبين شعوب أوربا وليس بين زعمائها، فالفكر الصليبى لدى فرنسا وبريطانيا تحول إلى التبشير والتسلط التجارى والسياسى إن أمكن . وكان التبشير الفرنسى كاثوليكيا أما الانجليزى فكان بروتستنتيا، وكل منهما كان ناجحا إلى حد كبير وكان هذا التفوق التبشيرى الفرنسى والبريطانى يهز مكانة روسيا فى المنطقة، فكان أن وقع الصدام فى بيت المقدس بين رجال الدين الكاثوليك ورجال الدين الأرثوذكس ليتحول إلى حرب كبرى باسم الدين المسيحى بينما كانت الأهداف الاقتصادية أكثر قوة.

الأسباب الشخصية:

يركز كافة المؤرخين على الدور الذى لعبه سفير بريطانيا فى الأستانة ستراتفورد كانتج المشهور باسم فورد ستراتفورد دى ريد كليف. ويذهب البعض إلى أنه هو السبب فى وقوع الحرب. ولقد كان (كانتج) فعلا يدرك حقيقة الكراهية الشديدة التى كان يكنها الشعب الانجليزى للروس بسبب تصادم

المصالح فى أكثر من مكان فى العالم. وكان لكانتج مكانة كبيرة فى الباب العالى، حتى لقد وصف بأنه «السلطان العثمانى» غير المتوج. وقد كان كانتج يدرك تماما أن روسيا بلغت من القوة الدرجة التى أصبحت فيه قوة خطيرة مهددة للامبراطورية البريطانية، وأن تقليم أظافرها فى وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التى لابد أن تقع يوما ما . وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث ـ امبراطور فرنسا ـ كان قد عقد العزم على أن لا يصطدم ببريطانيا وأن تكون أمجاده العسكرية بالتعاون معها ضد روسية أو النمسا مثلا.

كان السبب المشار للحرب هو تلك البعثة التى أرسلها القيصر إلى السلطان العثمانى، وكانت هذه البعثة برئاسة منشيكوف، وذهبت فى ظروف كان القيصر يعتقد ـ خطأ ـ أن انجلترا لن تعترض سبيل اقتسام الدولة العثمانية. وكان منشيكوف متغطرسا ولكنه وجد فى وزارة الخارجية رجلا كيسا قادرا على دحض حججه ولذلك سعى إلى إبعاده عن منصبه .

وفعلا استقال فؤاد باشا، ولكن صمد الباب العالى ـ بتأييد من كانتج ـ أمام مطالب القيصر المتتالية التى كانت تتمثل فى تعيين من تريده حكومة القيصر وعزل من لا تريده، وفى السيطرة الروسية على ولايتى الافلاق والبغداد ولاشيا وملدافيا.

وشرعت فى احتلالهما فعلا فى منتصف ١٨٥٣. فما كان من السلطان إلا أن طلب القوات المصرية التى وصلت إلى الأستانة فعلا بعد وقت قصير، وأسرعت الأساطيل الفرنسية والبريطانية إلى المضايق لإرغام روسيا على الإنسحاب من الولايتين.

وسرعان ما تصاعدت الأزمة عقب غدر القيصر وحنثه بوعده الخاص بعدم ضرب القوات العثمانية إلا إذا بدأت هى القتال ، وذلك عندما أغرق الأسطول الروسى القطع البحرية العثمانية فى ميناء (سينوب)، وظهرت نية نابليون الثالث القوية نحو ارسال أسطوله إلى البحر الأسود وخشيت بريطانيا من انفراد فرنسا بالقيام بمثل هذا العمل الدولى الخطير فقررت الدخول فى حرب ضد القيصر إلى جانب السلطان العثمانى (مارس - آذار ١٨٥٤). وكانت بذلك كفة الدول الحليفة هى الراجحة خاصة - أنه بعد إغراق الأسطول الروسى فى سباستبول - كانت فكرة انزال القوات الفرنسية والانجليزية ثم البيدمنتية فى القرم كانت تدل على أن عنصر التفوق كان لدى الحلفاء.

استمرت الحرب عنيفة حول سباستبول بأهوال ومذابح وأوبئة فتاكة حتى جاءت ١٨٥٦ بعوامل جديدة فتحت الباب أمام الوصول إلى صلح وكانت الأسباب الرئيسية لعقد الصلح :

١- حقق الانجليز والفرنسيون هدفهم وهو تحطيم الأسطول الروسى وبذلك لن يكون فى استطاعة الروس القيام بدور فى حوض البحر المتوسط. وثبتت السيطرة الكاملة البحرية للحلفاء فى البحر الأسود. واكتفى الحلفاء بهذا النصر ورفضوا التقدم وراء سباستبول.

٢- اختلاف وجهات النظر الفرنسية عن الانجليزية من حيث استمرار الحرب حيث أن نابليون الثالث أصر على وقف هذه الحرب الأمر الذى أرغم الانجليز على وقفها مع أنهم كانوا يريدون الاستمرار فيها حتى تذل روسيا اذلالا كاملا ويقضى على دورها فى السياسة الأوربية.

وفى مؤتمر عقد فى باريس تقرر عقد صلح بين الدول المتحاربة على الأسس :

١- تجريد البحر الأسود من السلاح، وهذا موجه ضد روسيا بالذات.

٢- إغلاق المضايق أمام السفن الحربية الأجنبية.

٣- إعادة قارص إلى الدولة العثمانية.

٤- حكم ذاتى لولايتى الافلاق والبغداد ولاشيا وملدافيا .

واتفق لقبول الدولة العثمانية ضمن المجموعة الأوربية أن تصدر خطا جديدا يضع برنامجا واضحا للاصلاح أكثر اتساعا ودقة من خط كلخانة وعلى هذا الأساس صدر الخط الهمايونى ١٨٥٦.

والحق أن حركة الاصلاح استمرت حتى بعد الحركة الرجعية التى أبعد رشيد باشا عن الحكم. فقد صدرت خلال حرب القرم نفسها فرمانات ذات أهداف بعيدة عميقة، فقد صدر فى ١٨٥٥ فرمان يرفع الجزية عن المسيحية، وبعد ذلك صدر الخط الهمايونى ومن ثم فلا شك أن دافع الاصلاح كان وراء اصداره وليس فقط الضغط الأوربى.

أكد الخط الهمايونى ما سبق أن ورد فى خط كلخانة. ولكن زاد عليه التفاصيل المتعلقة بحقوق المسيحيين والتنظيمات الإدارية الجديدة، فبالنسبة المسيحيين تقرر تشكيل مجالس مخصوصة وانتخاب البطريرك لكل ملة وتحديد رواتب رجال الدين غير المسلمين، وكفل لهم حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع مناهج الدولة، وأكد الخط الهمايونى حق الدولة فى تجنيد المسيحيين وأن أبقى على حقهم فى دفع البدل العسكرى. كما سمح للأجانب بامتلاك

النقارات ولكن وفق شروط معينة. وأكد الخط على ضرورة إنشاء مجالس الولايات، وكان مطبقا على نطاق ضيق.

فهم هذا الخط من زوايا متعددة، ففسرته كل جماعة حسب مصالحها. فالغالبية العظمى من مسيحى الدول العثمانية كانت ترى فى صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر ضعفها، وتطلع بعض زعمائهم إلى الدول الأوربية ، وتمسكوا بما فى الخط الهمايونى من حقوق لهم ضاربين صفحا عما به من التزامات وواجبات عليهم، بل تمسكوا فى نفس الوقت بما كان لديهم من امتيازات قديمة تتعارض مع الخط الهمايونى.

وانتشرت الشائعات عن أن الدول الأوربية ستقف إلى جانب مسيحيى الدولة لو ثاروا ضدها، وساعد هذا على وقوع فتن الشام ولبنان بين المسلمين والمسيحيين ليسير لبنان فى اتجاه الحكم الذاتى وبنظام خاص عرف بالمتصرفية، ذلك النظام الذى كان يتعارض مع خطة العثمانيين فى توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد يعتمد على الخط الهمايونى.

وصدرت بعد الخط الهمايونى مجموعة من القوانين التنظيمية التى مست المجتمع العثمانى بقوة أهمها :

١- قانون الأراضى (اطابو) ١٨٥٨.

٢- قانون الولايات ١٨٦٤.

٣- مجموعة القوانين الجنائية والتجارية ١٨٦٠ - ١٨٦٣.

كان الغرض من قانون الأراضى التخلص نهائيا من بقايا نظام الالتزام والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكه قطعة من الأرض تمليكا

غير مطلق يرتزق منها، وعندما وضع القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان يتوقع منه. فقد كان الفلاح فقيرا عاجزا عن دفع قيمة الأرض. بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة فسجل الملازمون باسمهم مساحات واسعة من الأراضى، وتحول الفلاح إلى مجرد أجير لدى هؤلاء الملاك الكبار، كذلك سجل شيوخ العشائر الأراضى باسمهم وأصبحوا هم المالكون وأفراد العشيرة عمالا عندهم أو أجراء.

أما قانون الولايات فيعتبر المحاولة العملية لاصلاح حال الولايات من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأكيد خضوعها للدولة. فقد حدد القانون نظام الإدارة واختصاصات الوالى وغيره من موظفى الولاية وطريقة انتخاب أعضاء مجلس الولاية وكان من أهداف هذا القانون اشراك الأهالى فى إدارة أمور بلادهم وفى الاصلاحات التى أدخلت فى مختلف النواحى. كذلك كان من أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية. إذ أدرك العثمانيون أن الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية أحيانا، وأنه من العسير وضع قانون موحد ينتظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والأكراد الجبليين وعشائر العراق وعصبيات الشام وعرب شمال افريقية وترك الأناضول ومسلمى البوسنة والبانيا.

كان قانون الولايات يضع السلطة العليا فى يد الحكومة المركزية فى الأستانة وقد اتجه حكام الأستانة هذا الاتجاه لاعتقادهم أن فساد الإدارة فى الولايات هو المسئول عن عدم تحسين أحوالها، وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالى مجرد منفذ لأوامر رؤسائه فى الأستانة ويرجع إليهم فى أمور الولاية الهامة. وساعد على هذا استخدام الخطوط البرقية فى الدولة العثمانية على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

الدولـة العثمـانيــة

من مؤتمر برلين إلى الحرب العالمية الأولى

١٨٧٨ ـ ١٩٢٠

كان عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) قليل الحروب نسبيا، على عكس عهود أسلافه، إلا أنه كان فترة خطيرة من التاريخ التركى. إذ كانت كافة الأقاليم البلقانية تستعد للحصول على امتيازات أكثر من الأتراك إن لم يكن الاستقلال الكامل.

فقد تحركت المشاعر فى الجبل الأسود، وفى صربيا، وكانتا تتمتعان بالاستقلال الذاتى، والولايتان الرومانيتان كانتا قد اتحدتا تمهيدا لتحقيق ظهور (رومانيا)، وكانت فرنسا تؤيد اتجاهات هاتين الولايتين نحو الاستقلال لأن الرومانيين كانوا كاثوليكا.

وكانت اليونان تتطلع إلى استكمال وحدة اليونانيين الخاضعين للأتراك، بل وكانت تتطلع إلى (أزمير)، وإلى الهدف الضخم (القسطنطينية).

أما كريت فثارت، وذهب إليها آلاف المتطوعين من الجيش اليونانى لضرب المسلمين فى الجزيرة وابادتهم وبالتالى تخلص لليونان، حقيقة وضع نظام وحكم خاص يشترك به المسيحيون والمسلمون، ولكن كانت كلمة المسيحيين هى السائدة (١٨٦٧) والاتجاهات نحو الاتحاد مع اليونان قوية.

كذلك كانت القلاقل فى البوسنة والهرسك متتالية، والبلغار ضد الأتراك وضد الاكليروس اليونانى المفروض عليهم، وظهرت الكتائب البلغارية هنا وهناك فى الستينات.

وعام ١٨٦٤ هاجر إلى البلقان عدد كبير من الشركس المسلمين الذين فروا من أمام الروس بعد فشل مقاومتهم الطويلة للتسلط القيصرى، وقد استقرت أعداد كبيرة من هؤلاء فى بلغاريا وعلى طول الحدود الصربية، وتوالى الصدام بين القادمين الجدد والبلغاريين وفى بعض مناطق الدانوب.

كانت هذه القلاقل العديدة فى البلقان هى التى جعلت الباب العالى يسند ولاية الدانوب إلى المصلح الكبير مدحت باشا الذى بذل جهودا كبيرة للتغلب على تمردات البلغار، وأرغم العديد منهم على الفرار إلى الولايتين الرمانيتين. وإرضاء للبلغار أصدر الباب العالى فرمانا بإنشاء كنيسة بلغارية مستقلة بنفسها. وكان هذا فى حد ذاته من العوامل التى كانت تعمل على تجميع شمل البلغار نحو الهدف الكبير :

إقامة دولة بلغارية قومية. وكانت أنظار البلغار معلقة بالروس على اعتبار أن الانتصارات الروسية هى أقصر طريق إلى استقلال البلغار. ولكن كان أساس التحرك هو ثورة بلغارية كبيرة تفرض نفسها على السلطان وتكسب عطف الدول الكبرى وخاصة روسيا.

وفعلا قامت حركة تمرد فى ١٨٧٢ قضى عليها خلال السنتين التاليتين. ولكن استمرت حركات العصابات تشد أزرها روسيا التى تخلصت من قيود حيدة البحر الأسود فى ١٨٧١ منتهزة فرصة الحرب البروسية ـ الفرنسية، وفى ١٨٧٥ اشتعلت ثورة فى الهرسك، لتضع السلطات العثمانية أمام أزمة جديدة.

كانت إجراءات الحكومة العثمانية قد أثبتت عجزها عن مواجهة هذه الأزمات وفقدت مكانتها بسبب عجزها عن دفع ديونها، وأسرع عدد من

المصلحين ـ وعلى رأسهم مدحت باشا ـ إلى التحرك ضد السلطان عبد العزيز الذى أغرق البلاد فى فوضى عارمة من الإسراف والسياسات الخرقاء، وعزلوه ورفعوا السلطان مراد الخامس إلى العرش ليعزل بعد قليل لأنه معتوها وخلفه السلطان عبد الحميد الثانى. فى أغسطس ـ آب ١٨٧٦ على أساس اصدار دستور للبلاد، وفعلا صدر أول دستور عثمانى فى ذلك العام. وبهذا تبدأ أهم فترة من التاريخ العثمانى الأخير.

تولى السلطان عبد الحميد العرش وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره. كان ذكيا، وكان كثير العمل، ولكن كانت الفترة السابقة على توليه العرش خليطا من الحياة التعسة فى القصور، والزيارة الرائعة لأوربا. وكان شديد الخوف حذرا من كل إنسان . وهو لم يكن محبا للحكم الدستورى، وإنما كان معاديا له. ومع هذا وجد نفسه يأتى إلى العرش كأول سلطان دستورى فى تاريخ الدولة العثمانية، ولهذا كان ينتظر الظروف التى تمكنه من التخلص من هذا الدستور ومن صاحبه مدحت باشا.

وكانت الظروف تعطى الفرصة الكبيرة للسلطان عبد الحميد الثانى ليتخلص من الدستور. فقد أسرعت روسيا إلى اعلان الحرب نيسان ـ ابريل ١٨٧٧ على الدولة العثمانية لتقضى على الحركة الدستورية فيها وتعمد القوة إلى الثورة فى البلقان ضد السلطان، وأحرزت الجيوش الروسية انتصارات سريعة حتى وصلت إلى بلفنا فضربت عليها القوات الروسية الحصار ودافعت عنها القوات العثمانية ببسالة عظيمة، حتى سقطت مهددة مما اضطر حكومة السلطان إلى عقد هدنة ثم فرض الروس معاهدة سان استيفانو على السلطان العثمانى (١٨٧٧).

وتنص معاهدة سان استيفانو على :

١- أن تستولى روسيا على قارص وبايزيد وباطوم فى الشرق، وعلى (بروجة) فى الغرب.

٢- حصلت الصرب على مخرج على البحر الأدرياتيكى.

٣- تحصل البوسنة والهرسك على حكم ذاتى.

٤- امتداد بلغاريا من الدانوب إلى بحر إيجه، وضمت الروملى ومعظم مقدونيا.

إن النتيجة الخطيرة التى ترتبت عن معاهدة سان استيفاتو هى أن بلغاريا - مخلب القط الروسى - أصبحت ضخمة للغاية من وجهة نظر بريطانيا بالذات، وأن النفوذ الروسى فى البلقان أصبح يهدد مكانة النمسا فى المنطقة. وكادت الأمور تتطور إلى حرب كبرى تتزعمها بريطانيا ضد روسيا لولا أن دعا بسمارك الدول الكبرى الأوربية إلى عقد مؤتمر لتسوية المشكلات الأوربية على حساب الدولة العثمانية حيث أن الدولة العثمانية - من وجهة نظر بسمارك - غيرَ جديرة بحرب تقع بين الدول الكبرى الأوربية ولكن جديرة فقط بأن تولى هذه الدول الكبرى اقتسامها وتسوية مشكلاتها على مائدة المفاوضات وليس فى ساحةالقتال.

وعلى هذا الأساس عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذى أهملت فيه آراء الأتراك، بل وكانوا محتقرين خلال انعقاده، وانتهت المفاوضات إلى قرارات إعادة رسم خريطة البلقان من جديد، وكانت كلها موجهة ضد مصالح الدولة العثمانية، وسعت كل دولة إلى نهب قطعة منها بوسيلة شريفة أو بوسيلة تآمرية أيا كانت.

ففى مقابل حماية ـ غير أكيدة ـ للأملاك العثمانية الآسيوية، اقتنصت بريطانيا قبرص، وحتى ترضى فرنسا عن هذه (الخيانة) لفتت بريطانيا ـ الطامعة فى مصرـ أنظار فرنسا إلى تونس. وتقلصت بلغاريا وسلخ منها الرومللى الشرقى الذى وضع تحت الحكم التركى، ووضعت البوسنة والهرسك تحت إدارة النمسا، ولكن ظلتا تحت السيادة العثمانية وبصفة عامة خسرت الدولة العثمانية فى مؤتمر برلين ما لم تفقده فى أى حرب سبقت.

ومن نتائج مؤتمر برلين غير المباشرة أن الأرمن شعروا أن الوقت قد أزف ليحققوا آمالهم، وكانت مادة من مواد مؤتمر برلين قد نصت على أن يقوم السلطان باصلاح حال أرمينيا والأرمن، ولكن مرت السنون دون تطوير يذكر بينما كانت اتصالات الأرمن بالعالم الخارجى تزيد مداركهم اتساعا وظهر منهم علماء وباحثون ودعاة إلى أن الأرمنى أرقى من سيده التركى ويجب أن ينقلب الوضع ويصبح الرعية سيدا، بل كانت هناك دعوات بين الأرمن إلى طرد المسلمين من أرمينيا، كما كانت هناك دعوات بطرد المسلمين من البلقان بالنقل أو بالإبادة، وتصاعد التوتر فى بلاد الأرمن، ولم يلبث أن وقع الاضطراب وكان أن نكل الأكراد بالأرمن بقسوة أهل الجبل فى أهل الجبل.

ووقفت كل الدول الأوربية وخاصة بريطانيا منددة بالسلطان الأحمر، إلا ألمانيا وقيصرها لهدف كان يسعى إليه. إن بريطانيا التى تحركت بقوة دفاعا عن مسيحيى البلقان والأرمن لم تفعل شيئا للبولدنيين والايرلنديين إلا الإيذاء طالما كان هذا متمشيا مع مصالحها وكذلك كان موقف ألمانيا من الأرمن. وأدى هذا إلى علاقات قوية بين القيصر والسلطان.

لقد كان السلطان العثمانى يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى قوة أوربية تقف إلى جواره بسبب تلك العزلة الكبرى التى حدثت له بسبب مذابح الأرمن، وكان السلطان فى حاجة إلى دولة كبرى يستطيع أن يستعين بها فى تنفيذ الكثير من مشروعاته الحيوية الكبرى دون أن تتحول هذه المشروعات إلى مخططات استعمارية على الطريقة الانجليزية والفرنسية، وكان يعتقد أن القيصر الألمانى ولهلم الثانى ليس استعماريا مثل فكتوريا ملكة الانجليز أو مثل الفرنسيين . هكذا كان يتصور عبد الحميد الثانى.

وكانت المانيا قد نمت وعظمت بعد وحدتها وتبحث عن مجالها الحيوى فوجدته فى الدولة العثمانية وبوجه خاص فى تركيا والعراق، كانت صناعة الآلات النامية - التى تنافسها الصناعات البريطانية - تجد مجالا لها فى الدولة العثمانية وكانت هذه بحاجة إلى الخبرة الفنية المتوفرة فى المانيا التى أصبحت هى الأخرى منطقة طرد بشرى. بينما سيطرت بريطانيا وفرنسا على أحسن المستعمرات وتركوا لألمانيا افقرها وأكثرها تعبا.

كانت عين الامبراطور الألمانى على تركيا، وكانت التقارير تأتيه متتالية عن الخيرات الدفينة فى باطنها. وكانت هناك مبالغات فى التقديرات، ولكن القيصر كان معجبا بالفكرة فاستولت عليه وآل على نفسه أن يشرف على تنفيذها وكان أول مظهر قوى هو قيامه بزيارة خليفة المسلمين ظل الله على الأرض السلطان عبد الحميد الثانى . وأدت الزيادة إلى أن يحصل القيصر على موافقة مبدئية على مشروعه الكبير : خط حديد برلين - بغداد - الخليج العربى ، وذهب القيصر إلى القدس، وهناك رحب العرب والمسيحيون واليهود، كل فى نفسه هدف أو غرض خاص.

كانت زيارة القيصر فى وقت كانت تقف فيه كل من فرنسا وبريطانيا وجها لوجه فى فاشوده، ولكن انتهت الأزمة، لأن فرنسا كانت تريد صداقة بريطانيا ضد عدوتها اللدود ألمانيا. وكان هذا التطور ضد مصالح وخطط القيصر فى تركيا، حيث أن بريطانيا لابد وتتفرغ بعد فاشودة لاحباط مخططاته فى الدولة العثمانية، وأن روسيا لابد وتستعين بانجليترا - إذا لزم الأمر - ضد ألمانيا لانقاذ التجارة الروسية فى الدولة العثمانية من الانهيار أمام المنافسة الألمانية المتفوقة. ولقد زادت مخاوف بريطانيا فعلا من ألمانيا بشكل كبير فى أعقاب حصولها على امتياز مد الخط الحديدى إلى بغداد والخليج العربى فى ١٩٠٢.

إن هذه الضغوط السياسية والعسكرية ساعدت على إرهاق ميزانية الدولة تلك الميزانية التى كانت تعانى نقصا متواصلا في الدخل وزيادة متواصلة فى المصاريف خاصة منذ تنفيذ السلاطين لسياسة إدخال الحضارة الأوربية فى مختلف أجزاء الدولة العثمانية. وكان حكام الشرق لا يملكون رؤوس الأموال التى تمكنهم من القيام بالاصلاحات والتجديدات اللازمة لتحضير الدولة. وكانت رؤوس الأموال متوفرة فى بنوك أوربا، واتجه سلاطين الدولة إلى عقد القروض من هذه البنوك ، ولكن دون وعى لخطورة عقد قروض تنفق فى نواحى استهلاكية وكان هذا هو الخطر القاتل الذى وقع فيه سلاطين الدولة العثمانية ابتداء من عبد المجيد.

فقد اضطر السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) إلى عقد قروض لتغطية نفقات حرب القرم الباهظة، وتصاعد العجز بسرعة فى خزينة الدولة فى أواخر أيامه، وكانت التغطية تتم بقروض ترهن فى مقابل سدادها بعض موارد الدولة الحيوية كالجمارك واحتكارات الملح والتبغ. وعلى عهد السلطان عبد العزيز

(١٨٦١ - ١٨٧٦) المبذر تضاعفت الديون حتى عجزت الخزينة عن دفع ما عليها للدائنين . وجاء السلطان عبد الحميد الثانى ليواجه هذه المشكلة التى أدت مثلها بمصر إلى الاحتلال البريطانى. ووجد السلطان عبد الحميد أن من الخير لدولته أن تضع حدا بأية وسيلة لتوالى التدهور المالى عن طريق التوصل إلى اتفاق واضح المعالم مع الدائنين على طريقة ممكنة لدفع الديون والفوائد.

ودارت مفاوضات معقدة بين المسئولين الأتراك والدائنين كان هولاء أكثر رغبة فى التوصل إلى اتفاق يحفظ لهم حقوقهم، وفعلا خفضوا من غلواء مطالبهم وفوائدهم ووافقوا على دكريتو (مرسوم) ١٨٨١ الذى نظم عملية التسديد بكفالة بعض موارد الدولة الثابتة الدخل. وفعلا كانت هذه التسوية عاملا هاما فى عودة الاستقرار المالى إلى الدولة العثمانية رغم الأزمات السياسية والعسكرية التى تعرضت لها بعد ذلك.

إن هذا التسلط السياسى والاقتصادى الأوربى على الدولة العثمانية كان عاملا جوهريا فى أن يبحث السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى عن طريق ينفذ به الإسلام والمسلمين والدولة من المصير الذى حل بكثير من البلاد الإسلامية الأخرى فى الهند والشرق العربى ووسط أسيا.

واتجه إلى أن الالتفاف حوله هو الوسيلة التى يمكن أن تنقذ الموقف، لا حوله شخصيا وإنما كخليفة يستطيع أن يترك المسلمين ضد التآمر الأوربى الواضح على الشرق.

وكانت هنالك دعوات صادقة متتالية تهيب بالسلطان العثمانى أن يتحرك ويحرك معه الجماهير لانقاذ الإسلام والمسلمين، كان أحمد عرابى يطالب السلطان بذلك، ولم يكن أحمد عرابى يدرى أن السلطان كان يكرهه ويكره ثورته

لأنها كانت ثورة دستورية ترفع الشعب المصرى إلى مستوى الحكم والإدارة. ومع هذا دعا مصطفى كامل السلطان العثمانى إلى العمل الجماعى الإسلامى لانقاذ نفسه وانقاذ مصر والمسلمين أجمعين من الاستعمار.

وكان هناك جمال الدين الأفغانى الفيلسوف الذى لا وطن له إلا حيث الجهاد ضد الاستبداد والعمل على تجميع الناس تحت لواء الرسلام - فى إطار جامعة إسلامية - ضد قوى الشر المحلية والخارجية على السواء، ولكن هل كان السلطان عبد الحميد جديرا بالقيام بهذه المهمة الضخمة ؟

لقد استهوته الجامعة الإسلامية التى كانت دعوة جمال الدين الأفغانى، ولكن الأفغانى كان يدعو كذلك إلى الدستور وإلى القضاء على الحكام المستبدين. فلماذا لا يفيد عبد الحميد من هذه الدعوة دون أن يأخذ بالشطر الدستورى منها ؟ وفعلا سار على هذا الأساس.

طبع عبد الحميد ملايين النسخ من القرآن الكريم، وأخذ يوزعها، ودعا إلى الزهد، ورددها آلاف من رجال الدين، ودعا إلى نبذ الخلافات، فأصبح فى أعين الشعب المنقذ الجديد، وأذاع على العالم الإسلامى مشروعه بمد خط حديدى إلى مكة المكرمة فجاءت التبرعات المالية من كل جهة إسلامية.

ولكن اعتماد السلطان على سياسة استبدادية قاسية، وعلى ألوف الجواسيس، مع تحفز الدول الأوربية للانقضاض على الدولة من وقت لآخر، جعل عددا من المفكرين الأتراك - من ذوى التعليم الحديث الغربى - يعملون على إحداث تغيير جوهرى فى البلاد لانقاذها من مصير مظلم، وكانت الفكرتان الدستورية والقومية تؤثران بشدة على مثقفى ذلك الوقت من الأتراك.

وبسبب ذلك التطرف فى الاستبداد والتضييق على الحريات تكونت الجمعيات السرية لقلب نظام حكمه. فظهرت جمعية تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقى. وهناك من يرى أن حركة تركيا الفتاة نبتت فى المحافل الماسونية، ولقد صرح بذلك أحد زعماء الحركة. ولكن هذه الماسونية كانت فى ذلك الوقت تحت توجيه اليهودية العالمية الأمر الذى جعل بعض الباحثين يتهم حركة تركيا الفتاة بأنها حركة بوحى اليهودية العالمية، والحقيقة هى أن تركيا الفتاة لم تكن هى المسئولة عن اسقاط نظام عبد الحميد بل جمعية أخرى تعاونت معها وذابت فيها هى جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تضم زعامات تركية قومية أو عثمانية.

كان التحرك ضد السلطان عبد الحميد يتطلب استخدام قوة ضاربة لا تقهر وإلا تعرضت الحركة لانتقام بشع من جانبه، ولهذا ركز زعماء جمعية الاتحاد والترقى على كسب قيادات عسكرية قوية إلى جانبهم، ولقد كان السلطان عبد الحميد يخشى جيشه فعلا، وجرد قطع الأسطول الراسية فى المضايق من الذخائر. وكانت الجاسوسية أساس الترقية فى الجيش ، وهذا كان يسىء ضباط الجيش، خاصة وأن هؤلاء الضباط الذين كانوا يعملون فى البلقان كانوا محتكين بالجيوش الأجنبية ويقارنون بين أحوالهم وأحوال زملائهم فى البلاد الأخرى. كانت حالة الضابط التركى مزرية إذا قورنت بحالة الضابط الأوربى، وكان الجندى جاهلا لدرجات وضيعة للغاية، ولكنه كان معجبا بسلطانه محبا له.

فى فرنسا كان الوطنى أحمد رضا ينتقد السلطان عبد الحميد بشدة فى صحيفته (مشورت) التى كانت بعض اعدادها تعرف طريقها إلى داخل العاصمة التركية نفسها.

وكانت جمعية الاتحاد والترقى قد حددت أهدافها بما يلى :

١- إعادة دستور مدحت باشا.

٢- تجميع قوى الثورة ضد السلطان.

٣- إثارة السخط ضد السلطان فى داخل البلاد وخارجها.

استطاعت جمعية الاتحاد والترقى أن تكسب قواد الجيش الثالث المرابط فى مقدونيا إلى جانبها وبه قام الانقلاب الكبير ضد عبد الحميد الثانى. فى وقت كان التذمر ضد استبداد عبد الحميد قد أصبح منتشرا والأزمة الاقتصادية قد ألحت على الناس أن يعيدوا النظر فى أسلوب الحكم الذى يجب أن يعيشوا فى ظله. وعندما نجح الانقلاب قوبل بترحيب كبير فى مختلف دوائر المثقفين فى الدولة العثمانية، وتنادى البلغار واليونان والصرب واليهود والعرب فخورين بالحرية وبأن عهدا من الاخوة قد بزغ.

ولكن التطورات التى وقعت بعد ذلك أدت إلى نتائج قلبت التوقعات رأسا على عقب. فقد تحول رجال جمعية الاتحاد والترقى إلى قوميين أتراك سعوا إلى تتريك البلاد العربية فأصبحوا وجها لوجه مع الحركة العربية الناشئة، وبدأت هذه الحدة فى العلاقات العربية التركية بعد فشل عبد الحميد الثانى فى انقلابه المضاد سنة ١٩٠٩ إذ أتهم الأتراك العرب بأنهم هم الذين أيدوا السلطان فى محاولته هذه.

وظهرت جمعيات (طورانية) تواجهها جمعيات عربية صرفة (كالقحطانية) وعندما حكمت جمعية الاتحاد والترقى أخذ العرب جانب الحزب الجديد المناهض لها وهو حزب الحرية والإئتلاف.

وعندما أدركت الحركة التركية القومية أن القوى العربية أقوى من أن يقضى عليها عملت على مهادنتها وتمثل ذلك فى قبول الأتراك لقرارات المؤتمر العربى الأول فى باريس ١٩١٣. وكان ذلك جزءا من محاولة تنازل تركية لتصفية المشاكل التى كانت الدولة العثمانية قد عانت منها لمدة طويلة. أما التسويات الأخرى فهى :

١- الاتفاق مع الانجليز والالمان على طريقة مد خط حديد بغداد بشكل يحفظ للطرفين مصالحهما.

٢- الاعتراف بالاستعمار الايطالى لليبيا والانجليز فى عدن والمحميات والخليج العربى.

وحاولت تركيا أن تقف فى وجه الخطر البلقانى المتزايد، ولكنها فشلت أمام التحالف البلغارى الصربى اليونانى (١٩١٢)، ولكنها استطاعت أن تسترد أدرنة بعد تحول الحلفاء البلقانيين إلى أعداء (١٩١٣).

وخلال هذه التحولات كان رجال جمعية الاتحاد والترقى يتجهون يوما بعد يوم إلى التحالف مع المانيا ضد روسيا وفرنسا وبريطانيا لعلهم بهذا التحالف يستردون ما سبق أن استولت عليه هذه الدول من الدولة العثمانية وفعلا عقد التحالف التركى الألمانى قبيل نشوب الحرب الأوربية ولم تلبث أن اشتركت فيها الدولة العثمانية فكان أن قضى عليها فى هذه الحرب لتظهر من بعد ذلك تركيا الحديثة، على يد مصطفى كمال أتاتورك الذى أسس الجمهورية التركية والغى الخلافة الإسلامية والكتابة بالحرف العربى وأحل محله الحرف اللاتينى.

موجز تاريخ الأتراك

أعلم أن الدولة العثمانية كان منهم ملوك فى بلاد ما هان قريب بلخ فلما ظهر التتار وأفسدوا فى الأرض خرجت بلخ وما هان وارتحل الناس وتفرقوا فى الأرض وكان ممن ارتحل جدهم سليمان شاه وينتهى نسبه إلى يافث بن نوح عليه السلام .

وارتحل مع سليمان شاه أولاده وأهله وعشيرته وكثير من قومه وقصدوا بلاد الروم لأجل جهاد الكفار ثم إن سليمان شاه غرق فى نهر الفرات ـ رحمه الله تعالى ـ وسار ابنه أرطغرل إلى الروم هو ومن معه وصار يجاهد الكفار بإذن من السلطان علاء الدين السلجوقى وقوى أمر أرطغرل واجتمع معه خلق كثير وبقى على ذلك إلى أن توفى سنة ٦٨٧ سبع وثمانين وستمائة.

فقام بالجهاد بعده ابنه الأمير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين السلجوقى جده واجتهاده فى الجهاد وعلم نجابته فى فتح البلاد أكرمه وأمده بأنواع الإعانة والإمداد وأرسل إليه الراية السلطانية والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدى السلطان عثمان نهض قائما على قدميه إعظاما للسلطان علاء الدين فما زال كذلك حتى فرغوا .

فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل نوبة السلطنة فى الأعياد والأشفار وكان ملكا عادلا شجاعا مرابطا مجاهدا يراعى الأبطال والأيتام والأرامل ويحسن إليهم وكان يحب العلماء والصلحاء وكان كثير التردد إلى الشيخ العارف بالله أده بالى القرمانى وربما يبيت فى زاويته فرأى ليلة فى منامه أن قمرا خرج من حضن الشيخ المذكور

فدخل فى حضنه وعند ذلك نبتت من سرته شجرة عظيمة سد أغصانها الآفاق وتحتها جبال راسيات ذات أنهار وعيون والناس ينتفعون من تلك المياه فلما استقظ الأمير عثمان قص رؤياه على الشيخ فقال له الشيخ لك ابشارة بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك وأتى زوجتك بنتى فقبلها الأمير عثمان وتزوج بها فولدت له أولادا منهم السلطان أورخان.

ثم إن السلطان علاء الدين كبر سنه وضعف أمره فتسلطن السلطان عثمان فى البلاد التى افتتحها سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة وفى سنة ٧٠٠ سبعمائة توفى السلطان علاء الدين السلجوقى وحصل اختلاف كثير بين أولاده وضعف ملكهم فاستولى السلطان عثمان على كثير من البلاد التى كانت تحت أيديهم واتسع ملكه وعظم أمره وكثر جهاده وافتتح مداين كثيرة وكان مقر سلطنته فى قرا حصار وبقيت السلطنة فى أولاده ولما افتتحوا بروسا صارت هى دار سلطنتهم وكان افتتاحها فى أول سلطنة ابنه السلطان أورخان سنة ٧٢٧ سبع وعشرين وسبعمائة واستمروا بها إلى أن افتتح السلطان محمد القسطنينية فصارت هى دار سلطنتهم وكان فتحها سنة ٨٥٧ سبع وخمسين وثمانمائة وكان السلطان عثمان صالحا عابدا زاهدا متواضعا معظما للدين وأهله وشعائره.

يروى أنه قبل أن يتسلطن كان مسافرا إلى موضع فنزل ضيفا على إنسان فلما أراد النوم رأى مصحفا معلقا فى الموضع الذى كان به فوقف على قدميه إلى الصباح تعظيما للمصحف وترك النوم ومن زهده فى الدنيا أنه ما خلف نقدا ولا متاعا إلا درعا وسيفا يقاتل بهما الكفار وشيئا من الخيل وشيئا من الأغنام فالغنم التى ترعى فى نواحى مدينة بروسا باسم السلاطين

العثمانيين من نسل تلك الأغنام وخلف من الثياب قفطانا وعمامة وبعض مناطق من نسايج القطن وملعقة ومملحة وذلك لزهده فى الدنيا وكثرة كرمه وإنعاماته على العساكر الذين كان يستجلبهم إليه لجهاد الكفار حتى كانوا يلقون أنفسهم فى المهالك لأجل خدمته ونصرته - رحمه الله تعالى - ولنذكر الأسماء قد تقدمت ترجمته عاش شهر رمضان سنة ٧٢٦ ست وعشرين وسبعمائة وقيل : خمس وعشرين وسبعمائة.

كان رحمه الله عادلا شجاعا زاهداً حليما كريما محبا للعلماء والصالحين بنى مساجد ومدارس وكثر العلماء فى زمانه لاعتنائه بهم وإقباله عليهم وقيامه بمصالحهم وله فى الجهاد مآثر محمودة وافتتح كثيرا من مداين الكفر وصيرها دار إسلام توفى سنة ٧٦١ رحمه الله تعالى.

كان - رحمه الله - ملكا جليلا عادلا شجاعا مقداما أفنى عمره فى الجهاد افتتح بدالا كثيرة منها أنقوريه وأدرنه وغير ذلك وفى أيام سلطنته علم عساكره علم المكاحل وهى البنادق وكان رحمه الله شديد البأس ثاقب العقل ثبت العزم زاهدا فى الدنيا لا يحب البذخ فى الملابس فكان لا يلبس إلا ثوبا من الصوف الرقيق الذى يلبسه الفقراء وكان كثير التقشف وفى سنة ٧٩١ إحدى وتسعين وسبعمائة خرج لقتال الصرب فقالتهم قتالا شديدا حتى هزمهم وقتل كثيرا منهم ثم أقبل أمير من أمرائهم مظهرا للطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان فى كمه فقتله ثم قتل ذلك القاتل وقطع فمن ذلك الوقت سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك واحد من طرف كمه وأخر من كمه الآخر احترازا من ذلك وكانت ولادته سنة ٧٢٦ ست وعشرين وسبعمائة ومدة سلطنته ثلاثين سنة.

تولى السلطنة وعمره اثنتان وأربعون سنة وهو أول من أمر بقتل أخيه ليأمن عائلته وكان من خيار الملوك كثير الجهاد محبا للعلماء والصالحين مكرما لهم واستمر يقاتل مع تيمور فانهزم جيش السلطان وأسر هو وبقى فى أسر تيمور وكان أسره تاسع عشر ذى الحجة الحرام سنة ٨٠٤ وارتحل إلى بريز وبقى إلى أن توفى سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة وكان ذلك فى رابع عشر شعبان وقيل بل فى الرابع منه فمدة سلطنته سنة ١٤ وثلاثة أشهر،

واقتتل أولاده على السلطنة إحدى عشرة سنة ١١ وتمت لابنه محمد سنة ٨١٦ ست عشرة وثمانمائة وكان أصغرهم .

كان كثير الجهاد محبا للخير وهو أول من عين الصر من أوقافه لأهل الحرمين وأول من جعل العساكر البحرية من آل عثمان وقد اشتهر فى العالم شجاعته وحسن سيرته كانت ولادته فى سنة ٧٨١ إحدى وثمانين وسبعمائة ووفاته سنة ٨٢٤ أربع وعشرين وثمانمائة وأخفى الوزراء موته على العساكر وسار الناس حتى وصل ولده مراد بعد إحدى وأربعين يوما لأنه عهد إليه فى حياته بالملك.

تولى السلطنة وعمره ثمانية عشر سنة بعهد من أبيه له لرؤيا رآها أبوه السلطان محمد وذلك فى آخر سنة ٨٢٤ وكان ملكا عالما عادلا عاقلا وكان يعتنى بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصالحين وكان لأهل الحرمين عنده منزلة عظيمة كان يرسل لهم من مال نفسه كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينارا مهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين .

وفى سنة ٨٤٩ تسع وأربعين وثمانمائة خلع نفسه ونزل عن السلطنة

باختياره وجعلها لابنه محمد وهو إذ ذاك عمره أربع عشر سنة ثم أن الكفار ظهر منهم احتقار واستهانة بالمسلمين وطمعوا فى أخذ كثير من البلاد فاستحسن الوزراء إعادته إلى السلطنة فأعيد سنة ٨٥٠ خمسين وثمانمائة وغزا الكفار وقتل منهم كثيرا وأزال أطماعهم حتى خضعوا غاية الخضوع وبقى فى السلطنة إلى أن توفى سنة ٨٥٥ يوم الأربعاء خامس المحرم.

محمد هذا كان هو محمد الثانى وكان جلوسه على تخت السلطنة سنة ٨٥٥ بعهد من أبيه له وكان عمره إذ ذاك تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ومن فتوحاته القسطنينية وقصة فتحه القسطنطينية طويلة مذكورة فى التواريخ وكذلك سيرته مذكورة فإنها سيرة حميدة يطول ذكرها وكان السلطان محمد طلب من العارف بالله الشيخ آق شمس الدين أن يحضر مع المجاهدين فتح القسطنطنية وكان يعظم الشيخ المذكور ويعتقد فيه كمال الولاية فحضر وبشره بالفتح وعين له اليوم والساعة التى يكون الفتح فيها .

فلما كان ذلك الوقت ذهب وزير السلطان للشيخ فى خيمته ظنا منه أن الوعد قد تأخر فوجد الشيخ ساجدا على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرع ويبكى ثم رفع رأسه وكبر وقال : الله أكبر الحمد لله الذى منحنا فتح هذه المدينة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه فى ذلك الوقت الذى أشار به،

ثم إن السلطان طلب من الشيخ شمس الدين المذكور أن يريه موضع قبر أبى أيوب الأنصارى، فقال الشيخ : إنى شاهدت فى موضع كذا نورا فلعل قبره هناك فجاء إلى ذلك الموضع ثم قال : اجتمعت روحى بروح أبى أيوب وهنانى بهذا الفتح وقال : شكر الله سعيكم خلصتمونى من ظلمة الكفر فأخبر السلطان

بذلك فحضر بنفسه إلى ذلك الموضع وقال : ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن تريني علامة أراها عيني ليطمئن بذلك قلبي.

فتوجه الشيخ ساعة ثم قال : احفروا في هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين فحفروا فظهر لهم القبر وعليه لوح من رخام مكتوب عليه أنه قبر أبي أيوب الأنصاري ففرح السلطان وتغير وغلب عليه حال حتى كاد يسقط لولا أن أمسكوه وقال السلطان: فرحي بوجود مثل هذا الشيخ في زماني أكبر من فرحي بفتح القسطنطنية ثم أمر ببناء قبة على قبر أبي أيوب - رضي الله عنه -.

وكان فتح القسطنينية سنة ٧٥٧ في اليوم الحادي والخمسين من محاصرته لها وكان يوم الأربعاء لعشرين مضت من جمادى الآخرة وقيل في تاريخ فتحها : بلدة طيبة وصلى المسلمون أول جمعة في أعظم كنائس الدنيا بها وهي أيا صوفية ثم بناها السلطان محمد هذا مسجدا وافتتح غيرها من بلاد الكفر نحو اثنتي عشرة ولاية واستولى على أكثر من مائتي مدينة وبالغ مؤرخو العثمانيين فقالوا : هو أعظم سلطان في الدنيا وهو أول من جعل القوانين لآل عثمان كانت وفاته - رحمه الله - ليلة الجمعة لخمس مضت من ربيع الأول سنة ٨٨٦ ست وثمانين وثمانمائة وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة وشهرين وعمره إحدى وخمسين سنة ٥١.

اتفق أنه عزم على الحج فمرض أبوه وكان قد عهد له بالسلطنة فقيل له في ذلك فقال : والله لا أنثني عن الحج فلما توفي والده جلس ولده السلطان فرقود نائبا عنه حتى رجع وكانت غيبة السلطان بايزيد للحج نحوا من تسعة أشهر فجلس في السلطنة ثامن عشر ربيع الأول سنة ٨٨٧ سبع وثمانين

وثمانمائة وكان حميد السيرة شجاعا مهابا لم يكن همه إلا الجهاد، وكان ذا خبرة عظيمة وخرج عليه أخوه السلطان جم ينازعه فى الملك وحاربه مرارا فبعث له وزيرا فى صفة حلاق فتقرب منه وحلق له بموسى مسموم وهرب فمات من ذلك وفتح عدة قلاع وملك جملة مداين وكان له عدة أولاد أقطع كلا منهم جهة من الممالك وكان عهد لابنه أحمد من دونهم لمحبته له ويأبى الله إلا ما يريد فإنه فى آخر عمره أراد أن ينزل عن السلطنة لابنه أحمد ، فخرج عليه ولده السلطان سليم وحاربه فانهزم ورجع فرأى السلطان بايزيد توجه الانكشارية وغالب أركان الدولة لولده سليم وأشاروا إليه به فأرسل خلفه ونزل له عن السلطنة وكان ذلك سنة ٩١٨ تسعمائة وثمانى عشرة وتوفى السلطان بايزيد - رحمه الله تعالى - بعد ذلك فى هذه السنة وكانت ولادته سنة ٨٥٦ ستة وخمسين وثمانمائة وعمره اثنتان وستون سنة ٦٢ ومدة ملكه إحدى وثلاثون سنة ٣١ إلا أيام.

السلطان سليم فاتح مصر :

كان مولده سنة ٨٧٢ وجلس على تخت السلطنة، ثم أرسل خلفه أخيه السلطان قرقود الذى كان نائبا عن أبيهم بايزيد حين سار للحج فقتله وقتل أيضا سبعة عشر كلهم من بيت السلطنة فى ليلة واحدة وكان شجاعا حازما قوى البطش سفاكا ملك تبريز تخت العجم بعد قتال شديد وهرب سلطانهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة لا تحصى .

وافتتح جملة حصون ومدائن كانت للكفار وسيرته حميدة كان محبا لأهل الحرمين وهو أول من خطب له بالحرمين من آل عثمان وأول من رتب لهم صدقة الحب اشترى من ماله أرضا بمصر وجعل محصولها لذلك وهو أول من اجتمع به أشراف مكة فإنه أرسل إليه الشريف بركات ابنه الشريف أباغى

فأنعم عليه وجعله شريكا لأبيه فى الإمارة وهو أول من أحدث المحمل الرومى وأول من قام بكسوة الكعبة من آل عثمان من مال نفسه وأول من ملك مصر والحجاز واليمن والشام وجميع أقطار العرب وكان ذلك تحت يد السلطان الغورى وقصته معه طويلة مذكورة فى التواريخ وكان دخول السلطان سليم مصر يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة سنة ٩٢٢ اثنين وعشرين وتسعمائة ومكث فيها نحو ثمانية أشهر ورجع إلى الروم وطلع له دمل فى ظهره واتسع جرحه به حتى توفى بسببه .

وكانت وفاته تاسع شوال سنة ٢٩٦ ست وعشرين وتسعمائة ليلة السبت فأخفى موته حتى حضر ابنه سليمان، وكان غائبا وكانت مدة السلطان سليم ثمان سنين ونحوا من ثمانية أشهر وبلغ من العمر أربعة وخمسين عاما وكان يعرف اللغة العربية وكان أديبا له شعر حسن.

السلطان سليمان :

تسلطن بعد وفاة أبيه وعمره ست وعشرون سنة وطالت مدته وكثرت فتوحاته وغزواته وكانت غزواته العظام التى خرج فيها بنفسه ثلاث عشرة غزوة وفتح بغداد وسار بنفسه إلى تبريز وغيرها من بلاد العجم ومناقبه وحسن سيرته طويلة مذكورة فى التواريخ وهذا السلطان العظيم مهد الملك لأولاده ورتب لهم القوانين فكانوا يسمونه القانونى ولما حضره الموت كان فى الغزو والقتال بينه وبين الكفار قائم.

فأخفى موته الوزير الأعظم محمد باشا إلى أن جاء ابنه السلطان سليم وجلس على تحت السلطنة وبايعه الناس والقصة طويلة مذكورة فى التواريخ ومن

مآثره الحميدة - رحمه الله - أنه بعث المنبر الرخام الموجود الآن بمكة وكان ذلك سنة ٩٥٦ ست وخمسين وتسعمائة وهو من تحف الدنيا ومما قيل فى تاريخه : لسليمان منبر بالدعا شاهد له ومنها أنه سنة ٩٥٩ تسع وخمسين وتسعمائة رسم الكعبة الشريفة بقدر الضرر وفى سنة ٩٦٠ ستين جدد ميزابها ورفع إليه أيضا - رحمه الله - سنة ٩٢٢ اثنتين وستين وتسعمائة أن سقف الكعبة الشريفة حصل به خلل عظيم استفتى علماء الروم وعلماء الحرمين فأفتوا بقدر الضرورة ليس إلا فقشع سقفها فوجد عودا من عيدانها مكسوراً فوضع غيره،

ورد ما كان كما كان. ومنها أيضا وهو من أعظمها : إجراء عين زبيدة من عرفة إلى مكة فشرع فى ذلك كله من مالها خاصة فأذن لها لعشر بقين من ذى القعدة سنة ٩٧٩ تسع وسبعين وتسعمائة وقيل : إن الذى صرف على مجيئها من عرفه لمكة خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ذهب وذلك غير ماصرف على أرباب الصناعات كالحدادين والحجارين وغيرهم ومنها أنه زاد من ماله فى صدقات الحرمين حتى بلغت فى مدته ثمانية عشر ألف دينار.

ومنها : أنه اشترى فى مصر أرضا وجعل بمحصولها ثلاثة آلاف أردب من الحب تضاف لأهل الحرمين على ما كان لهم من أبائه ومناقب هذا السلطان لا تستقصى وكانت وفاته لأربع مضت من شهر صفر الخير سنة ٩٧٤ وعمره أربع وسبعون سنة ٧٤ ومدة ملكه ثمان وأربعون سنة ٤٨.

بايزيد خان :

جلس على تخت السلطنة لتسع مضين من ربيع الأول وقيل الثانى سنة ٩٧٤ ، وكان حسن السيرة محمود السريرة وغزواته كثيرة ومآثره شهيرة ومن

مآثره الحميدة : أنه جرى على عزم أبيه فى دخول عين زبيدة مكة المشرفة فدخلت فى مدته جزاهما الله عن المسلمين خيرا. ومن مآثره وحسناته : أنه أمر ببناء المسجد الحرام وتجديده فجدد جميعه بما فيه إلا البيت العتيق ، فأنفق فيه الأموال التى لا تحصى فكان بهجة فى الدنيا وكان قبل ذلك أروقته مسقفة بالخشب وشرع فى بنائه سنة ٩٨٠ وتوفى - رحمه الله - فى أثناء ذلك وأتمه ابنه السلطان مراد الثالث سنة ٩٨٤ وكان سبب وفاة صاحب الترجمة أنه بنى حماما بدار السعادة أحكمه غاية الإحكام بحيث لم يشاهد مثله فلما تم دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشى إذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة إسود منها جنبه الذى سقط عليه وعولج بضمادات فلم يحصل منها نفع ثم حم واشتد مرضه إلى أن توفى - رحمه الله - يوم الأحد ثامن عشرين شعبان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وعمره ثلاث وخمسون ومدة ملكه ثمان سنين فتولى ابنه مراد.

السلطان مراد الثالث:

جلس على تخت السلطنة يوم الأربعاء سابع رمضان سنة ٩٨٢ اثنتين وثمانين وتسعمائة وكان شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير صحيح العقيدة حنفى المذهب كبقية أسلافه مواظبا على الصلوات الخمس وكان له اشتغال بالعلوم حتى حصل علوما كثيرة وفاق كثيرا من أسلافه وكان له نظم جيد بالألسن الثلاثة العربى والفارسى والتركى وله غزوات شهيرة وكان مغرما بجمع الكتب والمطالعات وكان غاية فى الاستكانة والتواضع لله تعالى.

يحكى : أنه أمر بعرض العساكر عليه وكان عنده بعض أقارب سلطان العجم وبعض وزرائه لطلب الصلح بينهم فوضع له كرسى وبين يديه وجوه دولته

ومعهم قريب سلطان العجم وأتباعه فمرت عليه العساكر على ترتيبها من أول النهار إلى الظهر وكان مشهدا عظيما فبكى السلطان حتى انتحب وخر عن كرسيه ساجدا، ثم قال : اشهدوا أنى عبد الله تعالى من جملة عبيده هؤلاء لا مزية لى بسلطنتى عليهم وهذا غاية فى التواضع والخضوع لله تعالى .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سادس جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ ثلاث وألف. وقيل : يوم العاشر من جمادى واستمر بغير دفن عشرة أيام حتى جاء ولده السلطان محمد وكان عمر صاحب الترجمة خمسين ومدة ملكه عشرين وثمانية أشهر وخلف عشرين ولدا ذكرا غير الإناث ولما استقر ولده أمر بخنق أخوته على جارى عادتهم.

السلطان محمد الثالث :

كان حسن السيرة وله غزوات وفتوحات شهيرة من أعظمها حرب المجر المشهور سار بنفسه حتى وصل بلادهم وحاصرهم أشد حصار ثم ملكهم وشتتهم فكاتبوا دول الأفرنج والنصارى يستمدون بهم فساعدوهم فممن ساعدهم ملك الإفرنج وبغدان والنمسا وحاكم الإفلاق وغيرهم وأتوا إليه بالجيوش والذخائر .

قيل : كانت جيوشهم فوق أربعمائة ألف واجتمعوا بجيوش السلطان عند مرجعه إلى بلاده ولم يكن مستعدا لهم فدهموا المسلمين على غفلة وثارت الحرب بينهم وبين المسلمين وأحاطوا بهم من كل ناحية واستمر القتال يومين وكان شديدا حتى انهزم المسلمون من كل ناحية وحمل الكفار على المسلمين حتى بلغوا مخيم السلطان وكان صحبته شيخه الخواجه سعد الدين فثبته وصار

السلطان يشجع نفسه ومن معه ولم يكن معه غير السلحدارية ونحوهم من حاشية السلطان فتوجه إلى الله تعالى ودعاه واستغاث به

فلم يكن بأسرع من أن قوى المسلمون وثبت الله أمرهم ولاحت لهم بشائر النصر، ورجع بعض من انهزم من العساكر والوزراء لما بلغهم ثبات السلطان وشاع فى المسلمين انتصار السلطان فتلاحقت العساكر كلها وهزم الله الكفار هزيمة عظيمة حتى قتل بعضهم بعضا من التراكم والإزدحام وغنم المسلمون غنائم لم يغنم مثلها عسكر فى آل عثمان وكانت هذه النصرة لم تقع بهذا الوصف لأحد منهم فارتفع لذلك صيت السلطان محمد هذا عند ملوك الإفرنج وغيرهم وكانوا يسمونه صاحب القرآن يطلقون ذلك على من بلغ فى الشجاعة أنهى رتبة وكانوا إذا صوروا الملوك يقدمون صورته على غيرها تعظيما له - رحمه الله -

وكان عظيم القدر مهابا ساعيا فى إقامة شعائر الدين صالحا محافظا للجماعة فى الأوقات الخمس قائما بالسنن والرواتب ومخلصا فى محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من عادته إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم نهض قائما على رجليه تعظيما له صلى الله عليه وسلم .

توفى - رحمه الله - يوم الأحد سابع عشر رجب سنة ١٠١٢ اثنتى عشرة وألف وكانت ولادته لسبع ليال خلت من ذى القعدة سنة ٩٧٤ أربع وسبعين وتسعمائة وعمره ثمانية وثلاثون ومدة ملكه تسع سنين وشهران ويومان وكان جلوسه على التخت يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى بعد مضى عشرة أيام من وفاة والده وذلك كان سنة ١٠٠٣ ثلاث بعد الألف.

السلطان أحمد الأول :

جلس على تخت السلطنة تاسع عشر رجب يوم الاثنين سنة ١٠١٢ اثنتى عشرة بعد الألف وكانت ولادته سنة ٩٩٨ وقيل : سنة ١٠٠٠ كان هو بدرهم المنير ورابع عشر هم وهى ليلة البدر وولى السلطنة وعمره أربع عشرة سنة ١٤ ومكث أربعة عشرة سنة ١٤ فسار سيرة الأكابر من الملوك وتعجب الناس مما يشاهدون من حسن السلوك حتى كأنه تعلم سير الملوك من عالم الأرواح وتكمل قبل التصدر فى عالم الأشباح وسيره مذكورة فى التواريخ وكان له احتفال بالحرمين وأهلهما زائد على أسلافه وهو الذى أرسل الكوكب الدرى للحجرة الشريفة وكان قصده هدم الكعبة لخلل حصل بها فمنعه علماء الروح والحرمين وجعلوا بأمره للكعبة أطوقة من نحاس مموهة بالذهب مكتوب عليها الجلالة حفظا لجدارها وله خيرات عظيمة بمكة والمدينة توفى - رحمه الله تعالى - سنة ١٠٢٦ ست وعشرين بعد الألف وعمره ثمان وعشرون ومدة ملكه أربعة عشر سنة كما تقدم.

السلطان مصطفى بن محمد خان :

لما توفى السلطان أحمد كان أولاده صغاراً أكبرهم عثمان عمره ثلاث عشرة سنة ١٣ فأقاموا فى السلطنة مصطفى أخا السلطان أحمد وقيل : إن ذلك كان بعهد منه إليه وكان ضعيف العقل فبعد مضى ثلاثة أشهر من سلطنته خلعوه وأجلسوا فى السلطنة السلطان عثمان بن أخيه أحمد ثم أعيد مصطفى بعد مقتل عثمان ومكث فيها سنة وأربعة أشهر ثم خلع فمدته الأولى والثانية سنة وسبعة أشهر فخلعه الأول كان فى ربيع الأول سنة ١٠٢٧ لثلاث خلت منه .

وقيل : ليلة العشرة . وقيل : ليلة الأربعاء ثامن ربيع وأعيد فى ثامن رجب سنة ١٠٣١ . وخلعه الثانى كان فى منتصف ذى القعدة الحرام سنة ١٠٣٢ اثنتين وثلاثين وألف.

السلطان عثمان الثانى الشهيد:

أقيم فى السلطنة بعد خلع عمه مصطفى فى ربيع الأول سنة ١٠٢٧ سبع وعشرين بعد الألف ومكث أربع سنين وشهرا واحدا ثم أراد الحج فمنعه الانكشارية وحصلت فتنة عظمى قتلوا فيها السلطان عثمان وبعض أعيان دولته وأعادوا عمه السلطان مصطفى وذلك فى شهر رجب سنة ١٠٣١ إحدى وثلاثين وألف وكان قتله فى اليوم الثامن من رجب ثم بعد سنة وأربعة أشهر خلعوه وولوا ابن أخيه السلطان مراد بن أحمد وأرخ بعضهم عثمان بقوله قد قضى عثمان ظلما حين خانته الجنود .

وكان شجاعا مهابا أحسن ملوك آل عثمان خلقا وخلقا ومن أجملهم سيما فيه حياء وأدب وحلم وتعظيم لأهل العلم وكان مغرما بأهل الحرمين كانت ولادته سنة ١٠١٣ ثلاث عشرة وألف ومدته أربع سنوات وشهر وعمره سبع عشرة سنة ١٧ . وقيل : ولادته سنة ١٢.

السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد :

أقاموه فى السلطنة بعد خلع عمه مصطفى الخلع الثانى وذلك يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين وألف وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة وسبعة أشهر وقيل فى تاريخ ولايته مراد خان العادل : قام بالسلطنة أتم قيام وافتتح بغداد وأخذها من أيدى العجم وكان أخذهم لها سنة ١٠٣٣ بعد

أن ملكها السلطان سليمان فارتجعها السلطان مراد سنة ١٠٤٨ ثمان وأربعين وألف قبل وفاته بسنة . وقيل : سنة وفاته ولذلك قصة طويلة وكان السلطان مراد مشهورا بجودة الرأى والتدبير والشجاعة والقوة وفى أيامه بنيت الكعبة كلها لخرابها من السيل الذى حصل سنة ١٠٣٩ تسع وثلاثين وألف.

وكان ذلك يوم الأربعاء تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة وابتداء المطر كان من الساعة الثانية من النهار أى قبيل العصر وبلغ فى الحرم الماء إلى طوق القناديل ونزل مع المطر برد كثير وكان ذلك البرد مالحا أو مرا فاتلف السيل أمتعة الناس وخرب دورا كثيرة ومات فيه ألف نفر.

ولما كان قبيل المغرب يوم الخميس عشرين شعبان سقط من البيت المعظم الجانب اليمانى والشامى إلى الباب وكان لذلك وقعة مهيلة أخافت الناس فرفع الميزاب الشريف وما وجد من القناديل المعلقة وكانت عشرين قنديلا من ذهب أحدهما مرصع باللؤلؤ وغيره من المعادن ووضع ذلك ببيت الشيبى وختم عليه صاحب مكة ووضعوا عليه حرسا وأحيط على البيت الشريف بخشب وخسف وألبس ثوبا أخضر فوق الخشب ورفع ذلك إلى الأبواب السلطانية، فأمر السلطان مراد ببنائها بعد اجتماع العلماء وما تقتضيه الحال برأيهم فبنيت وقد جعل عليها أخشاب سائرة من مشاهدة الهدم حتى فرغوا من البناء وكان البناء لها من عهد الحجاج إلى زمن السلطان مراد. وجعل للكعبة بابا جديدا وهو موجود إلى الآن مرقوم عليه اسمه.

السلطان إبراهيم :

تسلطن بعد موت أخيه السلطان مراد وكان منهمكا فى اللذات والشهوات

وكان عنده ألف وخمسمائة سرية وكان يقسم على نسائه وجواريه محصول الولايات فيجعل لكل واحدة ولاية تتصرف بمداخيلها وكان كثير البذخ والإسراف محبا للملاهى فهاج عليه العساكر وقبضوا عليه وخلعوه وحبسوه،

وأقاموا ابنه محمدا فى السلطنة وكان عمره سبع سنين وبعد ثلاثة أيام أراد جماعة من العساكر أن يطلقوا السلطان إبراهيم ويرجعوه إلى السلطنة فهجم عليه جماعة آخرون فقتلوه وسبب قتله : خوف بعض أركانه وعساكره منه أنه إذا رجع ينتقم منهم،

قيل : إن من كثرة إسرافه كان مفرطا فى استعمال العنبر مشروبا ومشموما يريد بذلك تقوية الأعصاب وزيادة الباه وكان عن السياسة والاقتصاد والتيقظ لأحوال الممالك بمعزل حتى أنه اختل أمر الممالك فى مدته وكان من إسرافه أمران يصنع له قابق مرصع بحجارة الألماس فصنع له ذلك وهو أبو السلاطين الذين بعده لأنهم كلهم من ذريته وكان خلعه وقتله سنة ١٠٥٨ ثمان وخمسين وألف لطيفه.

قيل : إن هارون الرشيد قال لأخيه إبراهيم بن المهدى : ما أسعد الأسماء؟. قال هارون : قال : ما أشأم الأسماء ؟ قال : إبراهيم . قال له : ويلك إنه اسم خليل الله. فقال : أليس ألقى فى النار ؟ . قال له : وإبراهيم بن النبى ﷺ . قال : أليس أنه مات صغيرا ؟ ثم قال : وأزيدك يا أمير المؤمنين أن إبراهيم الإمام قتله مروان بن محمد، وإبراهيم بن الوليد خلع، ثم قتل . أ هـ ثم اتفق أن إبراهيم بن المهدى هذا بويع فى خلافة المأمون ثم خلع وإبراهيم بن المتقى بن المقتدر خلع وسلمت عينه وهذا السلطان إبراهيم خلع وحبس ثم قتل ولله فى ذلك حكمة.

السلطان محمد الرابع :

تسلطن بعد خلع أبيه وكانت الفتن كثيرة وأمور الدولة فى اضطراب ثم فى سنة ١٠٦٦ ست وستين وألف تقلد منصب الصدارة محمد باشا كوبرلى فساس الأمور وأزال الموانع حتى رجع للدولة رونقها وتوفى سنة ١٠٧٢ اثنتين وسبعون وألف وأقيم ابنه أحمد مقامه فحذى حذوه ثم توفى سنة ١٠٨٤ أربع وثمانين وألف فتقلد الصدارة مصطفى باشا فاختلفت الأمور واضطربت ولم يزل الأمر كذلك واشتغل السلطان محمد بالصيد والملاهى فخلعوه سنة ١٠٩٩ تسع وتسعين وألف وأجلسوا فى السلطنة أخاه سليمان فكانت مدة سلطنة السلطان محمد أربعين سنة ٤٠ وستة أشهر .

وفى مدة هذا السلطان سنة ١٠٧٧ سبع وسبعين ظهر رجل يهودى فى أزمير يزعم أنه هو المسيح المنتظر من اليهود وكان فصيح اللسان جميل المنظر فكان يزعم أنه يتكلم بالوحى ويعظ الناس وانتقل إلى القدس فكاتب اليهود الموجودين فى الممالك العثمانية فآمن به كثير من اليهود من جميع الأقطار وكانوا يتركون كل شىء ويأتون ليتباركوا به ويبالغون عنه فى إظهار عجائب وخوارق وعادات يزعمون أنها معجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه، ثم أرادوا والى القدس القبض عليه فتوجه إلى القسطنطينية فاستعد يهود القسطنطينية لملاقاته فأرسل الصدر الأعظم وقبض عليه من المركب الذى كان به وطرحه فى السجن.

فكان اليهود يطلبون الإذن من الوزير بأنهم يريدون التشرف بتقبيل أقدام مسيحهم فأذن لهم ورتب عليهم مبلغا من المال يدفعونه لنوال هذا الشر فكان السجن يضيق عن توارد الذين يأتون لتقبيل قدميه متواردين من الجهات ثم إن السلطان أحضره بين يديه فأخذ يتكلم بالتركى كلاما ضعيفا فقال له السلطان :

إن مسيحا نظيرك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ثم قال له : هل تصنع شيئا من العجائب؟ فقال : نعم فى بعض الأوقات فقال له السلطان محمد : أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة وأمر أن يجرد من ثيابه ويقف فى فسحة الميدان وترميه العساكر بالسهام،

فلما سمع المسكين كلام السلطان انطرح راكعا على الأرض وقال : إن قوتى لا تقدر على هذه العجيبة، فأمر السلطان بقتله فترامى على أقدامه وطلب الدخول فى دين الإسلام فقبل إسلامه وصار يعظ اليهود فأسلم منهم عدد كثير. وفيها ظهر رجل من الأكراد يدعى : أنه المهدى المنتظر واجتمع إليه جمهور عديد فأمسكه والى الموصل وأرسله إلى القسطنينية فلما تمثل بين يدى السلطان محمد أمر أن يفعل به ما كان يريد أن يفعله مع المسيح الكذاب الذى تقدم ذكره فارتضى ومات قتلا بالسهام وتوفى السلطان محمد بعد خمس سنين من خلعه وعمره إذ ذاك ثلاث وخمسون وقيل : خمس وخمسون.

السلطان سليمان الثانى ابن إبراهيم:

تسلطن بعد خلع أخيه محمد وحصل عند ذلك فتن كثيرة بين العساكر قتل فيها كثير من أعيان رجال الدولة وبقى السلطان سليمان فى السلطنة إلى أن توفى - رحمه الله - فى رمضان سنة ١١٠٢ ألف واثنتين ومائة.

السلطان أحمد الثانى :

تسلطن بعد وفاة أخيه سليمان وبقى إلى أن توفى سنة ١١٠٦ فى جمادى الأولى لإحدى وعشرى مضين منه وكان فاضلا تقيا لايحب سفك الدماء.

السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع :

تسلطن بعد وفاة عمه أحمد وكان قوى الهمة فى جهاد الكفار وفى أيامه وقعت وقائع كثيرة استمر إلى أن خلع سنة ١١١٥ وتولى أخوه أحمد ولوالده السلطان مصطفى هذا تعمير فى الكعبة المعظمة سنة ١١٠٩. لما هاجمت العساكر أخاه السلطان مصطفى المتقدم ذكره لأسباب يطول ذكرها وأرادوا خلعه دخل على أخيه السلطان أحمد هذا وخلع نفسه وأجلسه فى السلطنة وطلبوا منه قتل شيخ الإسلام فيض الله أفندى فأعطاهم إياه فقتلوه واستمر أحمد إلى أن خلع سنة ١١٤٣ ثلاث وأربعين وألف وتسلطن أخوه محمود بن مصطفى تسلطن بعد عمه أحمد وكان محبوسا فأخرجوه من الحبس وأجلسوه على كرسى السلطنة، وقيل : إن عمه أحمد هو الذى أخرجه بنفسه وخلع نفسه وأجلسه على كرسى السلطنة لإسكان الفتنة وقتل العساكر فى تلك الفتنة الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكتخدبك واستمر محمود إلى أن توفى وكانت وفاته لاثنين وعشرين من شهر صفر الخير سنة ١١٦٧ وكان محمودا كاسمه فى حسن السيرة - رحمه الله تعالى - تسلطن بعد وفاة أخيه محمود وكان قزوال أغاسى متغلبا عليه يولى ويعزل من يشاء وبقى إلى أن توفى خامس عشر صفر سنة ١١٧١ فكانت مدته ثلاث سنين.

تسلطن بعد وفاة ابن عمه عثمان بن مصطفى بن محمد بن إبراهيم وكان حسن السيرة محبا للعلم والعلماء وفى أول سلطنته كان متقلدا للصدارة الوزير راغب باشا وكان عالما حسن التدبير له البراعة الكاملة فى سياسة الأحكام وله مؤلفات فى العلم منها الكتاب المشهور بسفينة الراغب وترجمة الكاملة الوزير أفردت بالتأليف واستمر السلطان مصطفى فى السلطنة إلى أن توفى - رحمه الله تعالى -.

تسلطن بعد وفاة أخيه مصطفى وفى ذلك الوقت كانت حروب قائمة بينه وبين الدولة الروسية فسعى السلطان عبد الحميد هذا فى إخمادها ثم عقد صلحا بينه وبينهم وأرجع للدولة قوتها بعد أن كادت تذهب وكان سلطانا جليلا حسن السيرة حميد الخصال واستمر فى السلطنة إلى أن توفى ـ رحمه الله تعالى ـ.

لما توفى السلطان عبد الحميد كان أولاده صغارا فتسلطن السلطان سليم بن أخيه مصطفى وكان عاقلا حازما شجاعا وأراد فى مدة سلطنته تعليم العساكر النظام الجديد فهاج عليه عساكر الانكشارية وحصلت أمور يطول ذكرها حدث منها فتنة عظمى ثم إن الانكشارية قبضوا على السلطان سليم هذا وخلعوه وحبسوه وأجلسوها فى السلطنة السلطان مصطفى بن عبد الحميد وكان للسلطان سليم وزير كامل يسمى مصطفى البيرقدار كان قد توجه بالعساكر لقتال الروسية فلما بلغه خبر خلع السلطان سليم عقد صلحا مع الروسية ورجع بعساكره يريد إرجاع السلطان سليم إلى السلطنة فلما أحسوا بمجيئه قتلوا السلطان سليم بأمر السلطان مصطفى فلما تحقق ذلك البيرقدار قتل السلطان مصطفى وأجلس على كرسى السلطنة أخاه محمود بن عبد الحميد والقصة طويلة مبسوطة فى التواريخ.

السلطان مصطفى الرابع :

جلس على كرسى السلطنة بعد خلع السلطان سليم ثم بعد سنة خلع وقتل فى أواخر سنة ١٢٢٣

السلطان محمود الثانى :

جلس على كرسى السلطنة بعد خلع أخيه مصطفى وطالت مدته وأباد عساكر الإنكشارية وعلم العساكر النظام الجديد ولقى أمورا عظاما فى مدة سلطنته يطول ذكرها مبسوطة فى التواريخ وبقى فى السلطنة إلى أن توفى - رحمه الله -.

السلطان عبد الحميد خان :

جلسعلى كرسى السلطنة بعد وفاة أبيه وكانت الفتنة قائمة بين السلطان محمود ومحمد على باشا صاحب مصر فلما تسلطن السلطان عبد المجيد انعقد الصلح بينهما وسكنت الفتنة واستمر فى السلطنة إلى أن توفى فى أواخر سنة ١٢٧٧ - رحمه الله .

السلطان عبد العزيز خان

تسلطن بعد وفاة أخيه عبد الحميد واستمر إلى سنة ١٢٩٣ فخلع ثم قتل بعد أيام.

السلطان مراد الخامس :

تسلطن بعد خلع عمه عبد العزيز ومكث نحو ثلاثة أشهر ثم خلع.

السلطان عبد الحميد الثانى :

تسلطن بعد خلع أخيه مراد ثم قامت عليه ثورة من الضباط الأتراك بقيادة مصطفى كمال أتاتورك ربيب الماسونية العلمانى الذى أنهى الخلافة الإسلامية وجعل تركيا دولة علمانية .

الحملة الفرنسية على مصر

وكما استغل المماليك الضعف الذى اعترى الدولة العثمانية وقوى نفوذهم بمصر .. اعتبرت فرنسا هذا الضعف أيضاً فرصة سانحة لاحتلال مصر، فأرسلت حملتها إليها لتحقق مجموعة من الأهداف منها :

* السيطرة على البحر المتوسط للحصول على مكاسب تجارية كبيرة.
* المحافظة على مصالح فرنسا فى طريق البحر الأحمر التجارى.
* الوصول إلى الهند عن طريق مصر لإحراج مركز عدوتها بريطانيا هناك.
* ضمان حصول فرنسا على نصيبها من ممتلكات الدولة العثمانية التى تسعى أوروبا لإسقاطها،لإسقاط الخلافة الإسلامية، وتوزيع ولاياتها على دول أوروبا.

وفى ٢ يوليو ١٧٩٨م .. وصلت الحملة الفرنسية إلى الاسكندرية وقوامها ٤٠ ألف جندى بقيادة نابليون بونابرت .. واقتح الفرنسيون أسوار الاسكندرية.. وتصدى لهم أهلها .. ودار القتال شديداً فى الشوارع والبيوت .. وجعل أهالى الاسكندرية من البيوت والمساجد قلاعاً لإطلاق النار .. ولكنهم لم يصمدوا طويلاً للجيش الفرنسى لكثرة عدده وحداثة عدته الحربية .. واقتحم الفرنسيون المساجد وقتلوا كل من كان بها من المحاربين ، وغير المحاربين .. واضطرت الاسكندرية فى النهاية إلى التسليم.

ولما كان المصريون ينظرون للمماليك على أنهم مستغلون دخلاء، وأن سلطتهم غير شرعية، وينظرون للسلطان العثمانى على أنه خليفة المسلمين،

والخروج عليه خروج على الدين الإسلامى .. حاول نابليون بونابرت إفهام المصريين بأن هدف الحملة الفرنسية محاربة المماليك الغرباء الذين اغتصبوا حكم مصر وخيراتها وأن حملة فرنسا على مصر لن تؤثر على علاقات الود القائمة مع الدولة العثمانية وسلطانها، وأن شعار فرنسا هو ، الحرية والأخاء والمساواة،

ولكن كلمات نابليون لم تُغير من موقف أهل الاسكندرية ضد نابليون وحملته .. فلجأ نابليون إلى سياسة الترغيب والترهيب .. فجعل يُرغب المصريين فى التعاون مع الفرنسيين ليتم إصلاح أحوال مصر وتنظيم شئونها.. كما حاول إرهابهم باستخدام العقاب الشديد لكل من لم يذعن لأوامر الحكم الفرنسى.

وزحف نابليون نحو القاهرة، وعند شبراخيت لقيه مراد بك بقوات المماليك ولتعود المماليك وقتذاك على حياة الرفاهية، ولتقدم المدفعية الفرنسية لم يصمد المماليك أمام الفرنسيين وتراجعوا إلى القاهرة.

واستنفر السيد عمر مكرم الناس للجهاد، وبث فيهم روح المقاومة، واستجاب سكان القاهرة، واشتروا السلاح، وجمعوا المؤن لملاقاة الفرنسيين، وتجمعوا حول السيد عمر مكرم بالبنادق، والعصى، والطبول.

وانضم المماليك إلى المصرين .. وفى إمبابة وقعت الحرب بين الفريقين .. وكما قيل أنها كانت حرباً بين القديم والحديث - أى بين أساليب وأسلحة القتال القديمة، وأساليب وأسلحة القتال الحديثة - لذا تم النصر للفرنسيين، وفر مراد بك بأمواله إلى الصعيد، وفر إبراهيم بك والوالى العثمانى إلى الشرقية، وتتبعتهم القوات الفرنسية لمنع إبراهيم بك من السيطرة على شرق الدلتا، واشتبكت مع

قواته عند الصالحية ولم يستطع إبراهيم بك الصمود لهم، فهرب إلى الشام .. وهكذا شتت قوات المماليك .. وبدخول نابليون القاهرة .. انتهى حكم المماليك لمصر.

وبدأ نابليون ينظم شئون الحكم الفرنسى لمصر .. وبالرغم من محاولاته فى التودد إلى المصريين ومشاركتهم فى أعيادهم وحفلاتهم إلا أن المصريين لم يرضوا عن الاحتلال الفرنسى.

وفى أغسطس ١٧٩٨م وصل الأسطول الإنجليزى إلى الاسكندرية وحطم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية وبذلك حصر الفرنسيين فى مصر وقطع خطوط اتصالهم مع فرنسا ومنع وصول الإمدادات إليهم. ولحاجة نابليون إلى المؤن والأموال فرض الضرائب الباهظة على المصريين .. وأخذ الفرنسيون فى ابتزاز الأموال ومصادرة الأملاك وكسر المحلات والاستيلاء على ما فيها بحجة البحث عن السلاح .. وحصل نابليون مبالغ باهظة إذا ما قورنت بثروة مصر من الضرائب التى فرضها على المصريين وعلى نساء المماليك .. ولذلك قامت ثورة القاهرة الأولى.

ثورة القاهرة الأولى

تكونت لجنة من رجال الأزهر بقيادة الشيخ السادات .. وجعلت تشجع المصريين على الجهاد. وتحثهم على الثورة، فتجمع نحو ١٥ ألف متطوعاً .. وفى ٢١ اكتوبر ١٧٩٨م اندلعت شرارة الثورة، وظل المصريون يقذفون الفرنسيين بالحجارة والسهام والرصاص، حتى إن الجنرال (ديبوى) الفرنسى حاكم القاهرة قُتل فى هذه الثورة، وعندما عجز الفرنسيون عن إخماد نار الثورة، أمر

نابليون بنصب المدفعية فوق هضبة المقطم لضرب الجامع الأزهر مركز تجمع الثوار، وراحت المدفعية تطلق نيرانها على القاهرة كلها، ثم خصت بالقذف الجامع الأزهر والأحياء المجاورة له حتى تخربت هذه الأحياء، ومات الكثيرون تحت الأنقاض واحتلت القوات الفرنسية الشوارع الموصلة للجامع الأزهر وأغلقتها وبذلك انحصر الثوار بين نار المدفعية ونار القوات الفرنسية، ولم يملك الثوار إلا الاستسلام وإلقاء أسلحتهم التى لو تعادلت مع الأسلحة الفرنسية الحديثة لتم النصر، وجلاء الفرنسيين فى هذه الثورة التى استمرت ثلاثة أيام واستشهد فيها نحو ٢٥٠٠ مصرياً وقتل من الفرنسيين حوالى مائتين.

وانتشر الفرنسيون بالقاهرة، ودخلوا الجامع الأزهر بخيولهم، وربطوها فى القبلة، وكسروا قناديله، ونهبوا مكتبته، وأعدم نابليون الكثير من المصريين من بينهم الكثير من رجال الدين وبدون محاكمة وزاد فى قسوته، وفى نسبة الضرائب المفروضة.

موقف الدولة العثمانية

ورغم ضعف الدولة العثمانية آنذاك، إلا أن السلطان سليم الثالث أعلن الحرب على فرنسا، كما أعلن عن عدم استعداده التفريط فى حفنة من رمال مصر، وأنه لابد من خروج الفرنسيين أعداء الإسلام من مصر .. وجعل يُصدر الفرمانات بذلك، ولم يدخر جهداً، فأرسل حملة عثمانية لتعيد لمصر استقلالها بمساعدة الأسطول البريطانى الذى يحاصر شواطئ مصر.. وأصبح موقف فرنسا حرجاً، ولخروج نابليون من هذا المأزق قام بحمله على الشام فأرسل السلطان العثمانى حملة أخرى للقاء نابليون فى الشام أثناء حصاره لعكا واتخذت الحملة الأولى طريقها إلى مصر لدخولها بعد خروج نابليون منها ..

ولأن ضعف الدولة العثمانية كان منعكساً على جيشها استطاع نابليون الانتصار على الحملة التى لاقته بالشام فى موقعة تل طابور .. ثم عاد سريعاً إلى مصر لاستنفاذ مؤن جيشه ولمنع الحملة العثمانية الثانية من دخول مصر والتى انتصر عليها أيضاً فى موقعة أبى قير البرية (وكان محمد عى الذى سيحكم مصر بعد ذاك ويؤسس مصر الحديثة من ضباط الحملة العثمانية وقد فر مع الفارين) .. وتكررت محاولات العثمانيين لإخراج الفرنسيين من مصر، واشتبكوا معهم للمرة الثالثة على أرض مصر فى موقعة عين شمس وكان النصر أيضاً حليفا للفرنسيين بقيادة كليبر الذى تركه نابليون قائداً للقوات الفرنسية [ورجع إلى بلاده سراً فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٩م بعدما علم أنها تمر بظروف صعبة وأصبحت مهددة من جانب النمسا وروسيا] وعاد كليبر إلى القاهرة وفوجئ باندلاع شرارة ثورة القاهرة الثانية.

ثورة القاهرة الثانية

استغل زعماء الشعب مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والسيد المحروقى كبير التجار موقف الفرنسيين الحرج وحرضوا المصريين على الثورة والمطالبة بجلاء الفرنسيين عن مصر وفى ٢٠ مارس ١٨٠٠م هب الثوار بثورتهم عاقدين عزمهم على محاربة الفرنسيين حتى النصر أو الموت .. وفى ٢٧ مارس ١٨٠٠م عندما عاد كليبر إلى القاهرة، وفوجىء بالثورة وشدتها اضطر إلى السعى إلى الصلح والتفاوض، ورفض زعماء الشعب كل مساعى الصلح، وانضمت كتيبة عثمانية إلى الثوار، كما انضم إليهم بعض بكوات المماليك.

وبينما كان الفرنسيون يعانون من حرج الموقف وشدته عقد مراد بك المملوكى معاهدة مع كليبر، وانحاز إلى صفه خوفاً من عودة العثمانيين إلى

مصر وانتهاء نفوذ المماليك تتلخص المعاهدة فى مساعدة مراد بك للفرنسيين ليستمر وجودهم فى مصر على أن يتركوا له حكم إقليم الصعيد والتصرف فى شئونه .. لذلك مد مراد الفرنسيين بالحطب والمواد الملتهبة لاشعال الحرائق فى القاهرة .. وبعد قرابة شهر من الثورة اضطر الثوار إلى السكون خوفاً على بلدهم من الحريق مقابل عفو كليبر عنهم .. ولكن كليبر لم يف بوعده وقبض على الكثير، وفرض غرامة كبيرة على القاهرة وصادر أموال البعض منهم السيد أحمد المحروقى.

وبينما كان كليبر يعيد تنظيم صفوفه، ويبنى القلاع بالقاهرة خوفًا من اشتعال الثورة مرة أخرى قتله سليمان الحلبى [ذلك البطل الأزهرى الذى عاهد الله على قتل نابليون لما فعله بالجامع الأزهر - وعندما فوجىء بعودة نابليون إلى بلاده قتل كلبير بدلا منه فى ١٤ يونيو ١٨٠٠م وقبض الفرنسيون على سليمان الحلبى وأعدموه لتصعد روحه إلى ربها].

وتولى قيادة القوات الفرنسية الجنرال مينو الذى كان يشغل منصب حاكم القاهرة، واعتنق مينو الإسلام ، وتسمى بـ (عبد الله جاك مينو) وتزوج من مصرية مسلمة وربما كان يهدف إلى استمالة المصريين إليه ورأى فى ذلك أسلوباً يحقق المكاسب للفرنسيين ولا عجب .. فقد تظاهر نابليون بالإسلام من قبله وشارك المصريين احتفالاتهم الإسلامية وارتدى زيهم.

والدليل البين على زيف إسلام مينو أنه استمر فى سياسة جمع الغرامات الكبيرة التى فرضها كليبر مما أدى إلى زيادة كراهية المصريين له وللفرنسيين وفشل سياسته.

ولم ترض الدولة العثمانية عن جلاء الفرنسيين عن مصر بديلاً رغم هزائمها المتكررة أمامهم فتحالفت مع بريطانيا على ضرورة إخلاء الفرنسيين من مصر.

جلاء الفرنسيين من مصر

أرسلت الدولة العثمانية حملة إلى مصر .. وبمقتضى الاتفاق بين الدولة العثمانية وبريطانيا .. قامت بريطانيا بدورها بإرسال حملتين.

وبين الفرنسيين والإنجليز حدثت موقعتان بالاسكندرية إحداهما بالقرب من سيدى جابر وسميت بموقعة (كيوبوليس).. والثانية فى ٢١ مارس ١٨٠١م عند باب كانوب (باب شرقى حايا بالاسكندرية) وكان النصر فيهما من نصيب الإنجليز.. ثم أشار الجانب العثمانى باللجوء إلى المفاوضات التى اضطرت بعدها القوات الفرنسية إلى الجلاء عن مصر فى أغسطس ١٨٠١م على أن تقوم سفن الحلفاء بنقل القوات الفرنسية إلى أحد موانى فرنسا.

وهكذا خرجت الحملة الفرنسية من مصر بعد احتلال دام أربع سنوات .. وإذا تأثرت مصر اقتصادياً بسبب الغرامات الفرنسية وبسبب حصار البريطانيون لسواحل مصر، فقد أوقف هذا الحصار حركة التجارة الخارجية .. إلا أن مصر حققت بعض المكاسب من هذه الحملة التى تركت آثاراً واضحة فى ميدان العلوم والفنون والآداب، كما اكتشفت الحملة حجر رشيد الذى أضاف لحضارة مصر خمسة آلاف سنة عندما فك شامبليون رموزه وكشف طريقة الكتابة المصرية القديمة، كما قامت الحملة بعمل أول ميزانية لمصر، وعمل أول إحصاء لسكانها، وكذلك عرفت مصر الطباعة والصحافة.

* وإذا تحققت لمصر بعض المكاسب .. فإن الحملة الفرنسية فشلت فى تحقيق أهدافها .. وخرجت من مصر خاسرة لم تستفد شيئًا بسبب :

* موقف الدولة العثمانية والتى ساهمت - رغم ضعفها آنذاك - بكل ما استطاعت من قوة لإخراج الفرنسيين من مصر.

* موقف بريطانيا والتى اتخذته بجدة من أجل مصالحها وأطماعها فى مصر فما لبثت إلا وأرسلت حملة إنجليزية لاحتلال مصر بعد خروج الفرنسيين بنحو سبع سنوات .

* موقف المصريين وثورتهم المكررة على الفرنسيين كان له الأثر الكبير فى عدم استقرار الفرنسيين وخروجهم من مصر.

مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية

وبعد خروج الحملة الفرنسية .. عانت مصر من صراع ثلاث قوى للوصول إلى حكمها وهم العثمانيون ، والإنجليز، والمماليك .. فأدى ذلك إلى عموم الفوضى فى البلاد.. ولم يمض سوى شهرين حتى استطاعت الدولة العثمانية أن تعيد مصر إلى نفوذها وحكمها بطريق غير مباشر .. وتعيين خسرو باشا والياً على مصر فى ٢ يناير ١٨٠٢م.

واستطاعت اقوات العثمانية الموجودة بمصر خلع خسرو باشا بسبب تأخير رواتبهم .. وتعيين طاهر باشا (قائد القوات الألبانية التى كانت الدولة العثمانية قد أرسلتها لحرب الفرنسيين ضمن الحملة العثمامية).

وعندما تولى طاهر باشا ولاية مصر فى ٦ مايو ١٨٠٣م .. تم تعيين محمد على بدلاً منه قائداً للقوات الألبانية .. وكان محمد على ذكياً، قويًا واسع

الدهاء، كثير التطلعات، فتطلع إلى شغل منصب والى مصر ولكن بهدوء وتروى .. وجعل يضع نفسه مع الكفة الراجحة.. فتحالف مع المماليك لطرد أحمد باشا والى مصر وبالفعل تم طرده.

وعندما ثار الشعب المصرى بسبب الضرائب التى فرضها البرديسى المملوكى أيقن محمد على أن القوة الحقيقية هى قوة الشعب .. فتحالف مع الشعب المصرى وزعمائه ضد المماليك، ونجح فى طرد المماليك من القاهرة وبدأ نفوذه فى الظهور بقوة على مسرح الأحداث المصرية عندما استطاع أن يعين خورشيد باشا واليًا على مصر .. ثم استأنف الحرب بقواته الألبانية مع قوات المماليك حتى استطاع طردهم إلى الصعيد.

وخشى الوالى خورشيد باشا من نفوذ محمد على فحاول إبعاده عن مصر .. وجعل يكرر محاولاته حتى أصدر السلطان العثمانى فرماناً بإبعاد محمد على عن مصر.

ولكن محمد على كان قد استطاع أن يحقق شوطاً كبيراً من هدفه وهو كسب حب الشعب المصرى بزعمائه وعلمائه الذين اجتمعوا بزعامة السيد عمر مكرم.. وأجمعوا على عزل خورشيد باشا وتولية محمد على حكم مصر فى ١٨ يونيو ١٨٠٥م، وما ذاك إلا لأن محمد على طالما كان يردد على أسماعهم أنه لابد على الحاكم أن يحكم وفقاً للأوامر والأحكام الإسلامية ووفقاً لصالح الشعب وأن يعمل على إصلاح أمور البلاد، وأحوال أهلها، وأن تتصف كل قراراته بالعدل.

ونزولا على رغبة الشعب المصرى، وعملاً بمبدأ حق تقرير المصير وافق السلطان العثمانى على تعيين محمد على واليًا على مصر.

وهكذا يتضح لنا أن محمد على كان يتطلع إلى ولاية مصر منذ أن عُين طاهر باشا قائد القوات الألبانية على حكم مصر، وعُين محمد على بدلاً منه .. فتطلع بدوره إلى مكانة الوالى .. وقد سنحت له الفرصة إلى تلك المكانة ولكنه تمهل وولى خورشيد باشا .. لأنه أراد أن يكون متفرداً فى الوصول إلى تلك المكانة.. أى يصل إليها بطريق لم يصل به أحد من الولاة.. وهو الجلوس فى الحكم بإرادة الشعب ورغبة زعمائه ورضا علمائه .

سلاطين الأتراك العثمانيين

١ - السلطان الغازى عثمان خان الأول .

٢ - أورخان .

٣ - مراد خان .

٤ - بايزيد خان الأول .

٥ - محمد جلبى الغازى .

٦ - مراد خان الثانى .

٧ - محمد الثانى (الفاتح) .

٨ - بايزيد خان الثانى .

٩ - سليم الأول .

١٠ - سليمان خان الأول القانونى .

١١ - سليم خان الثانى .

١٢ - مراد خان الثالث .

١٣ - محمد خان الثالث .

١٤ - أحمد الأول .

١٥ - مصطفى خان الأول .

١٦ - عثمان خان الثانى .

١٧ - مراد خان الرابع .

١٨ - إبراهيم خان الأول .

١٩ - محمد خان الرابع .

٢٠ - سليمان خان الثانى .

٢١ - أحمد خان الثانى .

٢٢ - مصطفى الثانى .

٢٣ - أحمد خان الثالث .

٢٤ - محمود خان .

٢٥ - عثمان الثانى .

٢٦ - مصطفى الثالث .

٢٧ - عبد الحميد الأول .

٢٨ - سليم الثالث .

٢٩ – مصطفى الرابع .

٣٠ – محمود الثانى .

٣١ – عبد الحميد خان الأول .

٣٢ – عبد العزيز خان .

٣٣ – مراد الخامس .

٣٤ – عبد الحميد الثانى .

٣٥ – محمد رشاد الخامس .

٣٦ – عبد الحميد (ولاية ثانية)

ثم الرئيس كمال أتاتورك الذى أنهى دولة الخلافة ، وكان علمانيا خبيثا عميلا للاستعمار الغربى ، وكان فى الأصل يهوديا ، ورأس جمعية الاتحاد والترقى الماسونية الصهيونية ، فحكم تركيا بالنظام العلمانى وقتل العلماء وحول المساجد إلى متاحف والمساجد أبقاها مفتوحة جعل الأذان فيها باللغة اللاتينية ، وألزم النساء بالملابس الأوربية الخليعة وأغلق مدارس القرآن وعدل قانون الأحوال الشخصية فغير شريعة الله وساوى فى الميراث بين الرجل والمرأة وحرم الطلاق وتعدد الزوجات ، بينما لم يسن عقوبة الزنا وتعدد العشيقات ووضع نصوصا فى الدستور التركى جعل للجيش وصاية على الحكم وحراسة للنظام العلمانى .

أهم المراجع

١ – بدائع الزهور فى وقائع الدهور – ابن اياس المصرى .

٢ – مذكرات أحمد جمال باشا .

٣ – التيارات السياسية فى البحر المتوسط .

٤ – المسألة الشرقية (١٨٥٦) – محمد مصطفى صفوت .

٥ – تاريخ الدولة العلية – محمد فريد .

٦ – الشعوب الإسلامية – د. عبد العزيز سليمان .

٧ – تاريخ العراق الحديث – عبد العزيز نوار .

٨ – السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط – د. حسين فوزى النجار .

٩ – الوحدة العربية – أحمد طربين .

١٠ – تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم – أحمد الساداتى .

١١ – تاريخ الدولة الإسلامية بالجداول المرضية – السيد دحلان .

١٢ – تاريخ الجبرتى – عبد الرحمن الجبرتى .

وغيرها ....

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس